

رايسبيلدر

هاينريش هاينه

رحلات هاينه في أوروبا

المجلد الأول

ترجمة : عبد المعين الملّوحي

رايسبيلدر

رحلات هاينه في أوروبا

* الطبعة العربية الأولى ١٩٨٢

دار التنوير للطباعة والنشر . ص . ب ٦٤٩٩ - ١١٣
بيروت - لبنان . الصنوبرة - أول نزلة اللّبان - بناية عساف .

* الناشر : دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر . ص . ب ٥٨٠٣ - ١١٣
بيروت - لبنان . هاتف ٣٤٥٥٧١ تلكس : دِلتا ٢٠٦٣٩ .

* التنفيذ الفني : دار المثلث ش . م . م .

هـــاينريش هـــاينـه

رايسبيلدر

رحلات هاينه في أوروبا

المجــلد الأول

ترجمة



عبد المعين الملوحي



يضم هـذا الكتاب الترجمة الكـاملة للجـزء الأول من النص الفرنسي :

Heinrih Heine: Reisebilder, Tableaux de Voyages



Henri Heine

هاينريش هاينه

بقلم: تيوفيل غوتييه

رأيت هاينريش هاينه آخر مرة قبل عدة أسابيع من وفاته. ومن واجبي أن أكتب لمحة موجزة من أجل إعادة طبع مؤلفاته.

كان يستلقي على السرير الذي تشده إليه تلك الوعكة الخفيفة ــ كما يقول الأطباء ــ ولكنها وعكة لم تسمح له بمغادرة سريره منذ ثماني سنين: كنا واثقين تماماً أننا سنجده ــ كما لاحظ هو نفسه ــ ومع ذلك فقد كانت الوحدة تتسع وتشتد حوله وهكذا قال مخاطباً بيرليوز عندما زاره: أجئت أنت لزيارتي. ذلك شيء طريف.» ولم يكن انقطاع الناس عن زيارته لأنهم صاروا يحبونه أقل مما كانوا يحبونه، أو يحترمونه أقل مما كانوا يحترمونه، ولكن الحياة تشغل أكثر القلوب إخلاصاً وحناناً، رغماً عنها. فليس غير الأم والزوجة قادرتين على احتمال هذا الاحتضار الطويل الدائب. ولا تستطيع عيون الناس أن تتأمل أمداً طويلاً، منظر الألم دون أن تشيح بأنظارها عنه. الآلهات أنفسهن يرهقهن هذا المنظر، وبنات أطلس océanides، وكن ثلاثة آلاف، اللواتي جئن ليحملن العزاء إلى بروميثيوس وهو على الصليب في القفقاس غادرنه وعدن من زيارته عند المساء.

عندما ألفت عيناي النور الشاحب ــ شبه الظل ــ الذي يلف هنري، وكان النور الباهر يجرح نظره الذي كاد ينطفىء ميزت وجود مقعد قريب من مرقد المريض فجلست عليه. مدّ لي الشاعر في صعوبة يداً صغيرة ناعمة نحيلة كامدة بيضاء كأنها خبزة القداس، يد مريض محرومة من الهواء الطلق، لم تمس شيئاً من الأشياء حتى القلم منذ سنوات، إن براثن الموت القاسية لم تظفر قط بجلد أكثر طراوة وطلاوة ونعومة وصقلاً من هذه اليد. لقد وهبت لها الحمى،

لنقص الحياة فيها، شيئاً من الحرارة. ومع ذلك فقد شعرت حين مسستها برعشة خفيفة كأني لمست يد مخلوق ليس من أهل الأرض.

ورفع، باليد الأخرى، لكي يراني، جفن عينه المشلول، وهي عين ما تزال تحتفظ بمفهوم غامض للأشياء، وما تزال تبصر شعاع الشمس خلال غيمة زرقاء، وبعد أن تبادلنا بعض العبارات، قال لي، وقد عرف دافعي إلى الزيارة: «لا تشفق عليّ كثيراً، إن صورتي الصغيرة التي نشرتها مجلة العالمين، والتي تمثلني نحيلاً مطأطىء الرأس كأني مسيح رسمه موراليس قد أثارت مشاعر الناس الطيبين في مصلحتي، أنا لا أحب ما يشبه هذه الصور، وأريد أن أرسم مثل رسوم النساء الجميلات. لقد عرفتني عندما كنت شاباً مزدهراً، بدّل بهذه الصورة التي تدعو إلى الرثاء صورتي القديمة.»

الواقع أن هاينريش هاينه الذي قدموني إليه في عام ١٨٣- بعد قليل من وصوله إلى باريس لا يشبه في شيء هذا الذي يتمدد تحت عيني جامداً لا يتحرك كأنه جسد ينتظر أن يوارى في تابوت.

كان رجلاً جميلاً في الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين من عمره، يدل مظهره على صحة شديدة الأسر، حتى يخيل إليك أنه «أبولون» ألماني إذا رأيت جبهته العالية البيضاء النقية كأنها لوح من المرمر تظللها خصلات وافرة من الشعر الأشقر، تتوقد عيناه الزرقاوان بالنور والالهام، وخداه المدوران الممتلئان في حدود رشيقة لا تبدو عليهما تلك الكآبة الرومانطيقية التي كانت مألوفة في ذلك العهد. على عكس ذلك كانت الوردتان القرمزيتان تتفتحان تفتحاً كلاسيكياً، وكانت انحناءة خفيفة عبرية تدخل شيئاً من الشك، دون أن تعرقل صفاءه، على إدراك أن أنفه يوناني. وشفتاه المنسجمتان «تنبثقان وكأنهما نغمتان جميلتان» لكي تقدّما لنا جملة من جمله، فإذا لزمتا الهدوء احتفظتا بتعبير ساحر ولكنه عندما يتكلم قذفت قوسها الحمراء وهي تئز سهاماً حادة شائكة ونبالاً ساخرة لا تخطىء إصابة أهدافها. فليس هنالك شخص يعدله في القسوة على الحماقة: وهكذا تخلي ابتسامة ربة الشعر الخالدة مكانها إلى تكشيرة شيطان.

كانت بدانة خفيفة وثنية كفّرت عنها بعد ذلك نحافة مسيحية تماماً تجعل شكله مستديراً، لم يكن يطلق لحيته ولا شاربه ولا عوارضه، لا يدخن، ولا يشرب الجعة، وكان مثل غوتيه يرهب ثلاثة أشياء: كان آنذاك في أوج حماسته

الهيجلية، وإذا كان يكره الاعتقاد بأن الرب أصبح إنساناً فهو يقبل دون صعوبة أن يصبح الإنسان رباً، وكان يسلك على هذا الأساس. دعونا نتركه يتحدث هو نفسه ويقص علينا هذه الثورة العصبية الرائعة العقلية: «كنت أنا نفسي قانون الأخلاق الحي. كنت معصوماً عن الخطأ، كنت الطهارة المتجسِّدة. أكثر الفتيات شبهةً وتلوثاً كنّ يتطهّرن في لهب حماستي وشوقي ويصبحن عذراوات بين ذراعيّ، والحق أن إعادة العذرية إليهن كانت تستنفد أحياناً قواي المقدسة؛ كنت حباً تماماً مبرّءاً من كل بغض، لم أنتقم قط من أعدائي لأني لا أقبل أن يكون هنالك أعداء يواجهون شخصيتي الخالدة وإنما هنالك ملحدون لا يؤمنون بها، وما يلحقونه بي من أذى إنما هو تدنيس للحرمات. كما أن الشتائم التي يقولونها عني إنما هي تجديف، وكان من الواجب بين حين وحين معاقبة مثل هذه الزندقات، ولكن هذا العقاب كان عقاباً إلهياً ينال الآثم الخاطىء، ولم يكن انتقاماً يمليه الحقد الإنساني. كما أني لا أعرف لي أصدقاء وإنما هم مريدون، مؤمنون أقدم لهم كثيراً من الخير. أمّا نفقات تمثيل الإله، وهو تمثيل ليس يسيراً ولا قليل التكاليف ولا يوفر ماله ولا جسده فقد كانت نفقات باهظة. ولكي يقوم المرء بهذه المهمة الرائعة فيجب أن يكون مزوداً بكثير من المال وبوافر من الصحة. وحدث في آخر شهر شباط ١٨٤٨ أن تخلّ عني هذان الشيئان: المال والصحة، فاهتزت ألوهيتي هزّة أدّت إلى انهيارها انهياراً بائساً».

رأيت هاينه كثيراً خلال هذا العهد الإلهي، كان إلهاً ساحراً ــ خبيثاً كأنه شيطان ــ كثير الطيبة رغم كل ما يُقال عنه. أمّا أنه كان ينظر إليّ كصديق له أو كمؤمن به فأمر لا يهمني أبداً، شريطة أن أستطيع التمتع بمحاورته المشرقة اللاهبة، ذلك أنه إذا كان معجزة من المعجزات في ماله وفي صحته فقد كان معجزة أكبر في فكره وروحه. ورغم أنه كان يعرف اللغة الفرنسية معرفة جيدة جداً فقد كان يتسلى أحياناً في أن يقنِّع سخرياته بلهجة جرمانية فظة تتطلّب لكي تحدث أثرها المطلوب الكلمات الصوتية الغريبة التي نجدها عند بلزاك في الملهاة الإنسانية، والجمل الباروكية ــ نسبة إلى عصر الباروك ــ التي يستعملها البارون نوسنجان. وكان أثرها الهزلي لا يقاوم، كان مثل أريستوفان يتحدث بلغة أهل أويلنشبيجل.

وفي روحه الغنائية يمتزج نوع من القوة المرحة، وإذا كان ضياء القمر يلوّن بالفضة جانباً من هيئته، فإن شمس فرنسا المرحة تكوِّن بالذهب جانبها

الآخر. ما من كاتب كانت له في آنٍ واحد كل هذه الشاعرية، وكل هذا الفكر. وكل من هذين الشيئين يدمر أحدهما الآخر في العادة. أمّا الحساسية العصبية التي تصنع ما في كتبه «انترميز و»، و«طبل لوكراند»و«حمامات لوكس»وما في كثير من صفحات «رايسبيلدر» فكان يخفيها في الحياة العادية في براءة ساحرة، ويوقف في الوقت المناسب الدمعة التي تفيض بكلمة طيبة.

أمّا هندامه، رغم أنه بعيد عن التكلف والتأنق، فقد كان يُعنىَ به أكثر مما يُعنىَ به عادة رجال الأدب، وهو هندام يفسد بعض الإهمال دائمًا حرصه على الفخامة. والبيوت المختلفة التي أقام فيها ليس عليها ما نسميه اليوم الطابع الفني بمعنى أنها لم تكن مزدحمة بالأثاث المحفور واللوحات والتماثيل وغير ذلك من المثيرات للفضول تكوّم أكواماً، ولكنها كانت تمثل على عكس ذلك رفاهية عيش برجوازي تظهر فيها واضحة الرغبة في عدم المبالغة. كانت هنالك صورة امرأة رسمها (لايملان) تمثل جولييت، تلك التي يتحدث عنها الشاعر في مطلع كتاب (أتاترول)، وكانت هذه الصورة وحدها الشيء الغني الذي أتذكر أني رأيته عنده.

ولكي يثبت خلوده الذي بدأ يترنح ذهب هاينريش هاينه ليقضي فصل الحمامات في (كوتيرتز) وهناك نظم قصيدته الفريدة التي كان بطلها دباً، ومزج فيها أكثر ألوان الشعر مثالية بأكثر أنواع النزعات والأهواء عاميةً. وقد غاب آنذاك عن عيني بعض الوقت.

ذات صباح جاء الخادم يقول لي أن أجنبياً، لم أستطع فهم اسمه الذي شوّهه الخادم، يطلب الحديث معي. ونزلت إلى الحجرة التي استقبل فيها الزائرين ورأيت رجلاً هزيلاً جداً ذكّرني قناعه بقناع جيريكو ينتهي بذقن حادة شقراء تختلط فيها خيوط كثيرة من الفضة بحثت في ذكرياتي عمّن يمكن أن يكون هذا الزائر الصباحي الذي حيّاني باسمي الصغير وأمسك بيدي في ترحيب صادق لصديق قديم. ولم أتوصل إلى وضع اسم لهذا الوجه الذي تبدل كل هذا التبدل، ولكني بعد عدة دقائق من الحديث، وفي لمحة وبارقة من بوارق روح الزائر المجهول صرخت:

أهذا هو الشيطان أم هاينه ولقد كان هاينه حقاً. الإله الذي أصبح إنساناً. بعد بضعة أشهر استلقي هاينريش هاينه على السرير لكيلا يغادره أبداً، ظل

مسمّراً على صليب الشلل بمسامير الألم والعذاب. وخلال هذا الاحتضار الطويل قدّم لنا ظاهرة الروح الحية بدون جسد، ظاهرة الفكر الذي ترك المادة، لقد هدّه المرض وأطفأهُ وشرّحه كما يحلو له، وظهر لي في تمثال الإله الإغريقي تمثال آخر حوّله صبر أحد الفنانين في القرون الوسطى، إلى مسيح مجرد من اللحم حتى الهيكل العظمي تبدو فيه الأعصاب والعضلات والشرايين بارزة ناتئة. وظلّ هاينه رغم كل تجرده من اللحم، جميلاً، وعندما كان يرفع جفنه الثقيل، تنبثق شرارة من بؤبؤه الذي كان أعمى تقريباً، وتنبعث العبقرية من هذا الوجه الميت. لقد خرج لازار من كهفه خلال بضع دقائق، ووجد هذا الشبح، الذي يشبه في أكفانه جثة مرسومة تنام على أثر من الآثار، وجد صوتاً يتحدث به ويضحك ويطلق سخريات بارعة، ويملي صفحات ساحرة، ويهب الازدهار لكلمات مجنّحة وللأيام الآتية التي ستسحق فيها حجر قبره خاصرتيه سحقاً أشد قسوة، آهات وأنّات أكثر حزناً وأسىً من آهات يعقوب على مزبلته. كان على أصدقائه أن يسرّهم أن ينتهي أخيراً هذا الاحتضار الأليم. وأن يطلق ذلك الجزار الذي لا يرى طلقة الرحمة على هذا الإنسان المعذب، ولكنهم عندما يفكرون في أن هذا الدماغ الوضّاء المعجون بالأشعة والأفكار والذي يطلق الصور فتبدو وهي تطن طنيناً مثل نحلات من الذهب، هذا الدماغ الذي لم تبق منه اليوم إلا آثار من نسخ شاحب، فهذا التفكير يسبب لهم ألماً لا يقبلونه دون ثورة.

الحق أنه كان مُسمّراً، وهو حي، في نعشه، ولكنك حين ترهف السمع إليه وتدني أذنك، تسمع الشعر يغني تحت الشرشف الأسود. ما أقسى أن ترى هذا العالم الصغير الذي هو أكثر سعة من الكون الكبير تطوقه قبة جمجمة ضيقة، محطمة، ضائعة، هالكة! ما أشق ما بذلت الطبيعة من جهود وتنسيق لتكوِّن مثل هذا الرأس!

ولد هاينريش هاينه في١ كانون الثاني عام ١٨٠١، وذلك ما جعله يقول وهو يضحك إنه أول إنسان في عصره. لقد لاحظ (توبفر) ما في هذا التاريخ للولادة من ضرر عندما يحمل الإنسان طابع أول يوم من القرن الذي ولد فيه فيذكّره دائمًا بسنه ويخيل إليك أن يجرفك معه. لقد ترك هاينه رفيقه القرن التاسع عشر في العقد ــ الخامس ــ السادس من رحلته.

كان الطقس بارداً رمادياً ضبابياً. كانت الساعة التي حُـدِّدت للجنازة

مبكرة في الصباح، كان بعض الأصدقاء والمعجبين يتجولون أمام بيت الميت، وكانوا نادرين، ينتظرون البدء في السير إلى المقبرة. لقد أوصى الشاعر بمنع كل فخامة وكل احتفال. إنه يرى نفسه ميتاً منذ أمدٍ بعيد، وأراد أن يُحمَل ما بقي منه في صمت من تلك الحجرة التي لم يتركها إلاّ إلى القبر.

إن منظر التابوت، وكان عريضاً جداً وثقيلاً جداً، الذي ترقد فيه رفات الميت الناعمة في راحة أكثر مما وجدته في سريرها جعلنا نتذكر دون أن نريد، ذلك المقطع في كتاب «انترميزو»: «هيا فتشوا لي عن تابوت من ألواح متينة سميكة: يجب أن يكون أكثر طولاً من جسر «مايانس» وهاتوا لي اثني عشر عملاقاً أكثر قوة من ذلك العملاق القديس «كريستوف» في قبة «كولونيا» على ضفاف الرين، يجب أن يحملوا التابوت وأن يلقوا به في البحر. إن مثل هذا التابوت الكبير يحتاج إلى حفرة واسعة. أتعرفون لَم يجب أن يكون التابوت كبيراً إلى هذا الحد وثقيلاً إلى هذه الدرجة؟ ذلك لأني سوف أضع فيه في الوقت نفسه حبي وآلامي».

الواقع أن النعش لم يكن كبيراً جداً، وإذا لم يتم إلقاؤه في البحر فقد أنزلوه إلى مغارة عميقة مؤقتة، في حضور مجموعة من الشعراء والفنانين الفرنسيين أو الألمان، كانوا قلّة ولكنهم وقفوا هنالك في احترام في صف، وهم يعلمون أنهم يشتركون في جنازة ملك من ملوك الفكر، رغم أنها خالية من صفوف طويلة ومن الموسيقى الجنائزية، ومن الطبول المغطاة ومن القماش الأسود المزين بالنياشين، ومن الخطابات الحماسية ومن الحاملات المكلّلة باللهب الأخضر. سوي التراب على الميت ووضعت الشاهدة وهبط المشيعون التل الحزين وضاعوا في ضوضاء النمل الواسعة، ضوضاء الحياة الإنسانية.

ما أقل الشعراء الذين سحرونا وهزونا كما سحرنا هين وهزنا ـ نحن حقاً لا نعرف اللغة الألمانية، هذا صحيح، ونحن لم نستطع الإعجاب به إلاّ من خلال الترجمة، ولكن يا له من إنسان ذلك الذي استطاع، بغير نغمة ولا وزن وبدون تنسيق الكلمات الطيب، بغير كل ما يكون الأسلوب، استطاع أن يحدث فينا كل هذه التأثيرات السحرية. إن هين أكبر شاعر غنائي في ألمانيا، ومكانته في الواقع إلى جانب غوته وشيللر، هكذا بدا لنا رغم أن الشعر المترجم إلى النثر ليس إلاّ نور القمر المحشو بالغش كما قال هو نفسه.

لم نر قط طبيعة مكوّنة من عناصر شديدة التنوع مثل طبيعة هنري هين. إنه مرح وحزين، شكّاك ومؤمن، رقيق وقاس، عاطفي وساخر، كلاسيكي ورومانطيقي، ألماني وإفرنسي ناعم وصلف، متحمس وبارد الدم، في آنٍ واحد، كان كل شيء إلاّ أن يكون مثيراً للملل. لقد أضاف إلى الطبع اليوناني اللدن الصافي الذوق العصري المرهف. كان حقاً «افريون» ولد فوست وهيلين الجميلة.

ليس هنا مجال لتقويم آثار الكاتب فإنها تتحدث عن نفسها، ولكننا لا نستطيع إلاّ أن نذكر انطباعاتها علينا على أقل تقدير. عندما تفتح كتاباً من كتب هين يخيّل إليك أنك تدخل في بستان من هذه البساتين التي يجب وصفها، تجد تماثيل أبي الهول على السلم تحدد كبرائها على زاوية دعائمها، وتنظر إليك بعيون بيض في حرارة مثيرة للقلق، وقد أخذتها رعشات تصيب أردافها الأسدية، وتضطرب حناجرها النسائية كأن هنالك قلباً يخفق في حناياها الصلبة. والأبواب تصرّ وهي تدور حول مجاورها المغلقة الصدئة. ويخيّل إليك أيضاً أنك ترى ثنية ثوب وهي تتوارى تحت القنطرة، كأن روح الوحدة تفرّ عند اقترابك منها، وقد نما الطحلب والقراص والأرقطيون بين شقوق الملاطات المتناثرة فوق السطح، والخمائل غير المشذبة تتشبث بك عند المرور بأغصانها وترجو منك ألاّ تذهب بعيداً عنها. ويخيّل إليك أيضاً أن الورود تنزف دماءها على أشجار العليق، وأن قطرات المطر العالقة على أوراقها تتلألأ كما تتلألأ الدموع، والأزهار التي خنقتها الأعشاب البرية لها أريج غريب يسمم مَنْ يشمّه ويصيبه بالدوار. وفي الحوض يأسن الماء تحت الطحالب الخضراء، وحورية الماء المبتورة صديقة مثل نقاب الموت الأصفر. والضفادع تقفز خلال الممرات وتمضي لتقص خبر قدومك إلى عمتها الأفعى. والريح، أثناء ذلك، تتنفس ترانيمها المؤثرة، والعندليب يغني متاعب الحب الضائع. وفي قصرها الصغير المخرّب تبدو صبية شقراء طريّة، يضم جسدها اللدن ثوب من الحرير وتظهر كأنها من أولئك الفتيات الجميلات في الأراضي الواطئة اللواتي يحب (كاسبار نيتشه) رسمهن في إطار من الحجر أو من الكرمة العذراء، إنها «ساحرة» ولكن ليس لها قلب، وفي صدرها تترجّح ثلاجة صغيرة. إنها لا تسيء إليك أبداً، ولكنك إذا كانت لك روح وأعصاب فخير لك أن تعشق هؤلاء النسوة اللواتي يحملن الرذيلة مرسومة باللدن الأحمر على خدودهن. إنها قادرة على قتلك بألف لون من العذابات

البريئة الشيطانية، وأنت في يوم الحساب لا تريد أن تُبعَث خوفاً من أن تراها مرة ثانية.

تلك هي الظاهرة المشتركة بين هاينه وغوته: أن يصنع نساء حقيقيات ـ تكفيه لمسه واحدة لكي يرتسم وجه حي كامل. يا له من سحر خدّاع، ويا لها من كآبة ماكرة ويا لها من ضحكة هي ضحكة الضبع، ومن دموع كدموع التماسيح، ويا لها من برودة محرقة ومن لهب جليدي، ومن فتنة رشيقة. ما من شاعر استطاع قط خيراً منه أن يجعل طرف ذنب تنين يهتز على طرف شفة وردية وما أكثر قناعته وهو يقول عن (لوسينيان) حبيب (ميلوزين): «يا له من إنسان سعيد ليست عشيقته إلاّ نصف أفعى».

وإذا كان هاينه قد نحت في الرخام الأبيض أروع تماثيل الآلهة اليونانية وأحسن قواعد «باشانال» في أصفى أشكال العصر القديم فقد كان على أقل تقدير نداً لـ«أوهلاند» و«تييك» عندما يقص أساطير كاثوليكية وفروسية من أساطير العصور الوسطى. كان ينفخ في شكل رائع في بوق «أشيم دارنيم» و«برانتانو» ألحاناً تهز الأيائل في أعماق الغابات، وتهدم الجسور المتحركة في القصور الاقطاعية. وهو عندما ينقضّ ممتطياً صهوة حصانه فلا يلبث إلاّ قليلاً حتى يمسّ بحذائه ثوب سيدة القصر المزين بالشعارات، تلك السيدة التي يطاردها، ثم ما من أحد يجيد تقليب الرمح خيراً مما يجيده.

إن أخلاقنا الأدبية ـ اللطيفة جداً ـ يمكن أن ترى في بعض أحكام الإعدام التي أصدرها هاينريش هاينه قسوة بالغة، فقد كان لا يشفق على الشعراء السيئين. ولكن ألم يكن (أبولون) على حق عندما سلخ جلد «مارياس»؟ إن اليد التي تمسك القيثارة الذهبية تمسك أيضاً السكين لكي تشرِّح جسد الهجاء الفظ ـ لننتهِ من حديثنا إلى إيراد هذه الصفحة من كتاب «لازار» فهي تعطينا فكرة عن طريقة الذي نعرف الآن لماذا يقف موقفه هذا من هذه القضية الخطيرة:

قالت الروح المسكينة للجسد: «لن أتركك. سأبقى معك. أريد معك أن أستغرق في الليل والموت، أريد معك أن أشرب العدم. لقد كنت دائمًا ذاتي الثانية، تلفني في حب كأنك ثوب من الحرير مبطّن بالفراء. وآأسفاه يجب عليّ الآن أن أمضي عارية تماماً ومجردة تماماً من جسدي العزيز، ومخلوقاً مجرداً تجرداً كاملاً، لكي أتشرد هنالك في الأعالي وكأني مخلوق سعيد في غير سعادة، في

ملكوت الغور، في تلك الفضاءات الباردة في السماء حيث تنظر إليّ المخلوقات الخالدة الصامتة وهي تتثاءب، إنها تجرجر حياتها هناك مفعمة بالسأم والملل، وتطلق فرقعات تافهة لا طعم لها بأخفافها الرصاصية. أوه. يا لها من نهاية مرعبة. أوه! ابق معي يا جسدي الحبيب.»

ويقول الجسد للروح المسكينة:

«أوه تعزي وتأسّي، لا تَأْسَي هكذا. يجب أن نحمل في سلام نصيبنا الذي كتبه القدر لنا. أنا ذُبالة القنديل وعليّ عاجلاً وآجلاً أن أُستهلَك وأنتهي: أمّا أنتِ أيتها الروح فستختارين في الأعالي لكي تلمعي وتضيئي، مثل نجمة صغيرة جميلة، وفي نور صافٍ تام الصفاء. أمّا أنا فلست إلاّ خرقة بالية، ثوباً رثاً، لست إلاّ مادة: شهاباً باطلاً سرعان ما ينطفىء، وعليّ أن أتلاشى وأعود إلى ما كنت عليه، شيئاً من رماد. إذنْ فالوداع والعَزاء لك والسلوان. ربما كانوا هنالك يتسلون ويلهون في هذه السماء أكثر مما تظنين. إذا قابلت الدب الأكبر في قبة النجوم فبلغيه مني ألف تحية وسلام».

تيوفيل غوتييه

مقدمة الكتاب

بقلم المؤلف: هاينريش هاينه

إنها قضية تبقى دائمًا عسيرة الحل، هي قضية كيف يجب أن تُترجَم إلى الفرنسية آثاركاتب ألماني. هل يجب علينا أن نشذِّب أو نحذف هنا وهنالك أفكاراً وصوراً عندما نراها لا توافق ذوق الفرنسيين المتمدن وعندما يمكن أن تبدو لهم مبالغة غير مناسبة، أو مضحكة؟ أو أن من الواجب أن ندخل الألماني المتوحش في عالم باريس الجميل بكل ما فيه من أصالة في الجانب الآخر من نهر الرين، هذا الألماني الملون في شكل عجيب بالألوان الجرمانية والذي يحمل فوق ذلك زخارف وتزاويق حظها من الرومانطيقية غير كثير؟

رأيي أني لا أعتقد أن من الضروري ترجمة الألماني المتوحش إلى فرنسية مدجنة مستأنسة. وأنا أقدِّم نفسي هنا في بربريتي الساذجة على غرار أفراد «شاروَاس» الذين استقبلتموهم في الصيف المنصرم استقبالاً جد حسن. وأنا أيضاً محارب مثلما كان (تاكوابي) الكبير، إنه الآن ميت، وما تزال رفاته راقدة محفوظة في بستان النباتات، في هذا المتحف الحيواني، الذي هو (بانتيون) المملكة الحيوانية.

هذا الكتاب مسرح استعراضي. ادخلوا ولا تخافوا. أنا لست خبيثاً كما يبدو في سحنتي. لم أصبغ وجهي بمثل هذه الألوان البشعة إلاّ لكي أخيف أعدائي في المعركة. والحق أني في أعماقي وديع مثل الحمل. إذنْ فاطمئنوا وأعطوني أيديكم. بل إن أسلحتي يمكن أن تلمسوها. حتى كنانتي وسهامي. لأني لم أثقف وأحدد هذه السهام كما هي العادة عندنا نحن معاشر المتوحشين عندما نقترب من المكان المكرس. ولكن أقول لكم فيما بيننا إن هذه السهام ليست نافذة فحسْب، بل هي أيضاً مسمومة. إنها اليوم في الواقع لطيفة رحيمة

غير هجومية وتستطيعون أن تتسلوا برؤية ريشها المبرقشة، بل إن أطفالكم يستطيعون أن يجعلوا منها دمى وألعاباً لهم.

سأترك اللغة ذات الوشم وأعبر باللغة الفرنسية.

الأسلوب، وهو قيد الأفكار، والانتقالات، والتفجرات المفاجئة والغرابة في التعبير، والخلاصة كل صفات النص الأصلي الألماني، نُقلت، كلمة كلمة، على قدر المستطاع في هذه الترجمة الفرنسية لكتاب (ريسبليدر). أمّا الذوق والرشاقة والزخرف فقد ضُحي بها في كل مكان حرصاً على الأمانة الحرفية حتى إن هذا الكتاب أصبح كتاباً ألمانياً باللغة الفرنسية، وهو لا يدّعي أنه يرضي الذوق العام الفرنسي، ولكنه يعرف هذا الجمهور بالأصالة الأجنبية. ونحن الألمان ترجمنا بهذه الطريقة آثار الكتّاب الأجانب. وقد أفادنا هذا العمل، كسبنا وجهات نظر وأشكال الكلمات، وطرائق اللغة الجديدة. ومثل هذا الكسب لا يمكن أن يكون ذا ضرر.

بعد أن عرضوا عليّ أول ما عرضوا أن أعرّفكم بطبيعة هذا الكتاب الدخيل فأقل ما يهمني أن أعرضه عليكم كاملاً، وذلك أولاً أن عدداً كبيراً من المقاطع التي لا تعتمد إلاّ على إشارات أو مواضع أو عصور، على ألعاب لفظية أو غير ذلك من هذا النوع لا يمكن أن تؤدّى باللغة الفرنسية، ولأن أقساماً كثيرة، في الدرجة الثانية، الموجهة في طريقة من أقسى الطرق ضد أشخاص أو ضد مواقف، تجهلها فرنسا، يمكن إذا رُدّدت في اللغة الفرنسية أن تتيح المجال لكثير من سوء التفاهيم المزعج. وهكذا فقد حذفت من النص قطعة رئيسية، فيها وصف لجزيرة «نورديرني» وللنبلاء الألمان. والمقطع الذي يتحدث عن «انكلترا» قد اختصِر إلى نصفه أو أكثر: وكل هذا يتعلّق بسياسة ذلك العهد. وفي مقطع «ايطاليا» وقد كُتِب في عام ١٨٢٨ دعتني الدواعي نفسها إلى التخليّ عن فصول كثيرة. ومع ذلك فإن من الحق أن أقول إنه قد كان عليّ أن أضحي بكل هذا المقطع لو أني تركت نفسي تتوقف من أجل مثل هذه الاعتبارات فيما يمس الكنيسة الكاثوليكية. ولكني مع ذلك لم أستطع إلاّ أن أحذف قسماً جد لاذع يشعر فيه القارىء بما يعتلج في قلب رجل بروتستانتي من قلق وحماسة. وهي حماسة نكدة بعيدة عن ذوق فرنسا المرحة. أمّا في ألمانيا فإن مثل هذه الحماسة تحلّ محلها، فأنا بصفتي بروتستانتياً قادر على أن أوجِّه إلى أنصار التعتيم

والمنافقين على العموم، وإلى الفريسيين والصدوقيين الألمان ضربات أكثر إصابة ولذعاً، مما لو أني وجهتها إليهم كفيلسوف.

ومع ذلك فمن أجل القرّاء الذين يريدون مقارنة الأصل بالترجمة والذين يستطيعون، بسبب هذه الفقرات المحذوفة، أن يتهموني بتجاوزات عشوائية، ولكي أدفع عني هذه التهمة وأحول دون اتهاماتهم فلا بدّ لي من أن أشرح موقفي من هذا الموضوع في وضوح.

إن هذا الكتاب، ما عدا بعض الأوراق، تمّت كتابته قبل ثورة تموز. في هذا العهد فرض الاضطهاد السياسي على ألمانيا صمماً وبكماً عالميين. وسقطت الأفكار والعقول في سبات اليأس، والرجل الذي كان ما يزال يتجرأ على الكلام كان عليه أن يعبر في هيجان أكثر مما ييأس من انتصار الحرية وأن يثير طبقة الكهان والارستقراطية ضده. استعملت التعابير الكهنونية والأرستقراطية بحكم العادة فقط لأني طالما استخدمت هذه الكلمات في ذلك العهد عندما كنت وأنا وحيد أؤ يد هذا الحوار ضد المدافعين عن الماضي. كانت هذه الكلمات يفهمها الناس جميعاً ويجب أن أعترف أني كنت ما أزال أعيش على مصطلحات ثورة ١٧٨٩، وكنت أصوغ حملات ممتازة ضد الكهنوت وطبقة النبلاء أو كما أسميهما الخوارنة والأرستقراطيين. ولكني سرت منذ ذلك الحين أشواطاً بعيدة في طريق التقدم والألمان الطيبون الذين أيقظتهم مدافع ثورة تموز، ساروا على خطاي وهم يتحدثون الآن بلغة ثورة ١٧٨٩ بل بلغة ثورة ١٧٩٣ وما يزالون بعيدين عني حتى إنني خرجت من نطاق أنظارهم فظنوا أني ما أزال وراءهم، في المؤخرة.

لقد اتهموني بالاعتدال وبالتواطؤ مع الأرستقراطيين، وقد رأيت منذ ذلك الحين اليوم الذي اتهم فيه بالتواطؤ مع الكهنوت أيضاً وقد لاح للعيون. والواقع الحقيقي أني لا أفهم اليوم تحت كلمة الأرستقراطية نبلاء الولادة وحدهم، ولكني أفهم منها كل أولئك الذين يعيشون على حساب الشعب مهما كانت الأسماء التي يحملونها. الصيغة الجميلة التي ندين بها، مثل كثير من الأشياء الرائعة، إلى أتباع مذهب «سيمون» يعني، استغلال الإنسان للإنسان، هذه الصيغة تقودنا إلى ما وراء كل التصريحات عن امتيازات الولادة. إن صرختنا الحربية القديمة ضد رجال الكهنوت قد حلّت محلها أيضاً شعارات أفضل، فليس المعروض أن نهدم بالعنف أركان الكنيسة القديمة، ولكن أن نبني

جيدا كنيسة جديدة، وليس المعروض أن نبيد رجال الكهنوت ولكنا نريد نحن اليوم أن نكون رجال دين.

لا شك أن عهد السلبيات لم ينتهِ حتى الآن في ألمانيا، بل هو في بدايته، أمّا في فرنسا فيظهر أنه يشرف على نهايته ويخيّل إليّ على أقل تقدير أننا يجب أن ننصرف هنا إلى نزعات إيجابية وأن نعيد كل ما تركه لنا الماضي من طيب وجميل.

لقد تركت لكتابي، في نوع من الخرافة الأدبية، اسمه الألماني. تحت هذا الاسم «رايسبيلدر» شق طريقه في العالم (أكثر بكثير مما فعل صاحبه نفسه) وأردت أن يحافظ على اسمه السعيد هذا في الطبعة الفرنسية.

باريس ٢٠ أيار ١٨٣٤ **هاينريش هاينه**

جبال هارتز

١٩٢٤

ثياب سود، جوارب من حرير
أكمام بيض ضافية
كلمات عذبة، عناق
آه، لو كانت لهم قلوب.

قلوب في الصدور وحب
حب لاهب في القلب
آه! لقد أصابتني زقزقاتهم بالصمم
زقزقات حب مزيف.

أريد أن أتسلق الجبال
حيث الأكواخ التقية
حيث يتنفس الصدر في حرية
حيث تهب النسمات في حرية.

أريد أن أتسلق الجبال
حيث تنتصب الصنوبرات القائمة
حيث تدمدم الينابيع وتغني العصافير
حيث تمر الغيوم في كبرياء.

الوداع أيتها الأبهاء المصقولة
أيها الرجال المصقولون والنساء المصقولات
أريد أن أتسلق الجبال

وأخلِّف تحت أقدامي محافلكم التي تشبه بيوت النمال.

مدينة (غوتينغ) المشهورة بنقانقها وجامعتها، تعود إلى ملك (هانوفر)، وتضم مائة وتسعة وتسعين بيتاً، وعدة كنائس، ودار توليد، ومرصداً، وسجناً ومكتبة جيدة وفندقاً للبلدية تجد فيه بيرة طيبة جداً. الغدير الذي يمر أمام المدينة يسمى (لين) يسبح الناس فيه خلال الصيف. الماء فيه بارد جداً وهو عريض في بعض الأماكن حتى إن صديقي (لودر) كان عليه أن يندفع اندفاعة غاضبة ليُتاح له اجتيازه بوثبة واحدة. والمدينة نفسها جميلة وأكثر ما ترضيك إذا نظرت إليها من وراء ظهرها. ربما كانت المدينة قائمة منذ عهد بعيد، ذلك لأني عندما سجلت فيها وأبعدت عنها بعد ذلك بقليل، وقد حدث ذلك منذ أكثر من خمس سنوات، كانت ما تزال تحافظ على مظهرها القاتم والوقور، وكانت في ذلك الحين خالية تماماً من جنود الحرس ومن الأكشاك ومن مجالس المناقشات والأبحاث ومن حفلات الشاي الراقصة، ومن الغسالات ومن المرافقات، ومن البط المشوي، ومن مراتب الغولف، ومن عربات المهرجانات، ومن رؤوس الغلايين، ومن مستشاري القنصليات والنفي ومن غير هؤلاء من المهرجين.

بل إننا نجد أشخاصاً يدّعون أن المدينة بنيت في عهد هجرات الشعوب، وأن كل قبيلة من القبائل الألمانية تركت فيها نموذجاً أصيلاً من أعضائها وأنها شهدت انحدار ونزوح كل الفاندال والفريزون والسواب والتيتون والساكسون والطورانجيين الخ... الخ. الذين ما نزال نراهم حتى اليوم عصابات يتميز بعضها عن بعض بألوان قبعاتهم وزخارف غلايينهم، وهم يروحون ويغدون في شارع واندر ستراوس في (غوتينغ)، ويضرب بعضهم بعضاً يومياً في الساحات الدامية لمعركة رازنميله وريتشنبروغ وبوفدن، إنهم من عروق احتفظت بأخلاقها وطباعها وممارساتها منذ زمن هجرات الشعوب الكبرى والذين حكمهم إلى حد ما أدواقهم الذين يسمونهم «الديكة» وإلى حد ما قانونهم الغوطي الذي يسمونه «كيف» والذي يستحق مكانته في قوانين العدالة البربرية.

سكان غوتينغ يتوزعون على العموم إلى طلاب وأساتذة وغير مثقفين وبهائم. أربع حالات يفصل بينها خط فاصل حاد. أمّا فصيلة البهائم فهي أكبرها وأكثرها. إن سرد أسماء كل الطلاب وكل الأساتذة العاديين وفوق العاديين أمر طويل جداً، وبين الأساتذة مَنْ ليست لهم أسماء على الإطلاق. وعدد المثقفين في غوتينغ يجب أن يكون كثيراً جداً، مثل الرمال أو إذا أردنا تشبيهاً أفضل قلنا مثل

الوحل على شاطىء البحر. والحق إني كلما رأيتهم عند الصباح بوجوههم القذرة ومذكرات الدفع البيضاء وقد وقفوا أمام باب مجلس الشورى العلمي لم أستطع إلاّ أن أتساءل كيف استطاع الله أن يخلق كل هؤلاء الأوغاد المتشابهين.

يمكن لنا أن نقرأ كما نشاء أبسط التفصيلات عن مدينة غوتينغ في وصف ك. ف. هـ ماركس لحياتها. ومهما كانت واجباتي تجاه المؤلف الذي كان طبيبي وأعطاني قليلاً من الأدوية فأنا لا أستطيع مع ذلك أن أنصح بقراءة مؤلفه دون تحفظ، وأنا ألومه لأنه لم ينكر في شدة كافية الرأي الخاطىء القائل إن نساء غوتينغ ذوات أقدام كبيرة جداً. أمّا أنا فقد اهتممت منذ أكثر من سنة بدحض هذا الخطأ دحضاً جاداً. لقد حضرت من أجل هذه الغاية درساً في التشريح المقارن واستشرت وكتبت مذكرات حول أكثر المؤلفات ندرة في المكتبة، ودرست خلال ساعات كاملة أقدام السيدات اللواتي يجتزن شارع «واند» وفي التحقيق العلمي الذي نتج عن كل هذه الدراسة اتحدث ١ ــ أولاً عن الأقدام على العموم، ٢ ــ ثانياً عن أقدام القدماء، ٣ ــ ثالثاً عن أقدام الفيلة ٤ ــ رابعاً عن أقدام سيدات غوتينغ، ٥ ــ خامساً لخصت كل ما قيل عن هذه الأقدام في ملهى «أولريك» ٦ ــ سادساً أتفحص هذه الأقدام في علاقات بعضها ببعض، وأتوسّع أيضاً بهذه المناسبة في ربلات السيقان والركب وغير ذلك وأخيراً ٧ ــ لو أني وجدت كمية من الورق كافية لأضفت إلى كتابي هذا بعض الصور المطبوعة على الحجر مع الوجه اللازم لأقدام بعض سيدات غوتينغ اللواتي كن أكثر سيداتها تميزاً.

كان الوقت مبكراً جداً عندما غادرت غوتينغ. لا شك أن العالم «ايشهورن» كان ما يزال يتمدد في سريره ويحلم حلمه المعتاد: إنه يتنزه في حديقة جميلة لا يرى في مساكبها غير أوراق صغيرة بيض محمّلة بالحكم والأمثال والأقوال المأثورة تلمع لمعاناً حلواً في نور الشمس وأنه يلتقط منها هنا وهنالك عدداً غير قليل ويعيد زراعتها في جهد في مسكبة جديدة، وكانت العنادل خلال ذلك تدخل السرور إلى قلبه العجوز بأعذب ألحانها.

في بوابة «واند» لقيت طالبين بلديين صغيرين، يقول أحدهما لصاحبه: لا أريد أن أزور (تيودور) إنه وغد، لأنه لم يعرف أمس المضاف إلى كلمة (مانسا)... ومهما بدت هذه الكلمات لا معنى لها فـإن عـلـي مع ذلك أن أرجعها إلى أصلها، بل إني أريد أن أكتبها في شكل رمز على باب المدينة، لأن الصغار يزقزقون مثلما الكبار يصفرون، وهذه الكلمات تصف تماماً الكبرياء الضيقة الجافة

لما تتمتع به العالمة الكبيرة جورجيا أوغوستا من تراث وتبحر في المعرفة.

كان نسيم الصباح الرطب يهبّ على الرصيف، والعصافير تغني في فرح، وشعرت شيئاً فشيئاً بالفتوة والنشوة يعودان إلى روحي. كنت في حاجة إلى مثل هذه التسلية الناعمة. لم أخرج في الأيام الأخيرة من اسطبل الباندكت، وقضايا الضمير الرومانية غطّت عقلي بغشاء من نسيج العنكبوت، وكأنما ضغط قلبي بين الفقرات الحديدية لطرائق المحاكات الأنانية. كنت لا أسمع في أذني إلاّ أصوات (تريبونيان) و(جوستانيان) و(هيرموجبليان) و(بووتيان)... وبدأت الطريق في الحياة.

بائعات الحليب بدأن يمررن، ثم صاحبات الحمير مع طلابهم السمر ورأيت وراء (واند) (بيرجر) و(دوريس). ولا يتعلّق الأمر هنا بذينك الزوجين الغزلين اللذين غنى بهما (جيسنر) ولكن بذينك الحارسين الرسميين في الجامعة اللذين كان عليهما أن يريا إذا كان قد وقعت بين الطلاب مبارزة في مكان ما من (بوفدن) وأن يريا كذلك ما إذا كانت بعض الأفكار الجديدة قد تسرّبت عبر بعض بوابات (غوتينغ) في عملية تهريب يقوم بها مثقف كبير شاب لم يحصل على شهادته. حيّاني بيرجر في طريقة جامعية واضحة لأنه هو أيضاً كاتب طالما تحدث عني في كتاباته كل ستة أشهر في مدونات الطلاب، وكثيراً ما أورد ذكري، بل إنه طيب جداً إلى حد أنه يكتب بالطباشير الفقرة على باب بيتي.

ومن حين إلى حين كانت تمر إحدى العجلات يجرها حصان واحد وعليها مجموعة من الطلاب يسافرون لقضاء العطلة أو يتركون الدراسة نهائياً. في مثل هذه الجامعة كان يحدث تحرك كامل من القادمين إليها والخارجين منها. في كل ثلاث سنوات يأتي جيل جديد من الطلاب. إنها نهر أبدي من الناس تطرد كل موجة جديدة في كل نصف سنة الموجة السابقة. والأساتذة الشيوخ وحدهم، في هذه الحركة الشاملة يبقون صامدين لا يتزعزعون عن أماكنهم كأنهم أهرامات مصر، إذ لم تكن هذه الأهرامات الجامعية تخفي كنزاً من الحكمة.

في (راوشنفاسر) رأيت باقات من الآس، تمتطي صهوات الخيول، ورأيت معها شابين يبشّران بالمستقبل يخرجان: امرأة تدرس في هذه البقعة، الفلسفة الأفقية تقود الحصانين حتى على الطريق، وتضرب بيد مدربة مجموعات الخيول العجفاء، وتضحك ملء شدقيها عندما يرد عليها أحد الفرسان دعابتها بكل ما في سوطه من طول في الموضع نفسه. ثم

مضت المرأة في طريقها إلى (بوفدن). أمّا الشابان فسارا نحو (نورتن) يوغلان في رضا في مقاطعة التيرول وينشدان في شكل جيد نشيدنا الوطني : اشربي البيرة يا عزيزتي ليز. وسمعت مدة طويلة الضحكات المرحة ولكني لم ألبث أن أضعت نهائياً المغنِّيَيْنْ اللطيفين، اللذين كانا يسوطان ويهمزان خيولهما في شكل يائس. إن نحر الخيول لا يجري في مكان ما بأشد مما يجري في (غوتينغ) وطالما قلت وأنا أرى مثل هذا الحيوان الأسفر يعرج ويتصبب عرقاً ويعذبه فرسان (راوشنفاسر) أو يجبرونه على جر عجلة ملأى بالطلاب، طالما قلت كما قال فولتير: يا لك من حيوان مسكين، لا شك أن أسلافك أكلوا في الجنة الشعير المحرم.

في (نورتن) وجدت صاحبي الشابين في الفندق. كان أحدهما يلتهم سلطة بالأسماك، أمّا الثاني فكان منهمكاً في حديث مع الخادمة ذات الجلد الأصفر «فوسيا كانينيا» المسماة أيضاً «هوشيكو».كان يقول لها بعض الكلمات اللطيفة، ولم يلبثا أن تشابكت أيديهما. وسحبت من حقيبتي لأخفف حملها سروالاً أزرق ممتازاً من الناحية التاريخية، وأعطيته لنادل الفندق الصغير الذي يسمونه «كوليبري» وخلال ذلك حملت إلي «بوسينيا» صاحبة الفندق العجوز شطائر طيبة وجعلت تشكو أنها لا تراني إلاّ نادراً مع أنها تحبني كثيراً.

كانت الشمس وراء (نورتن) قد ارتفعت ولمعت. وكانت معاملتها لي جد مهذبة فقد سخنت لي رأسي حتى نضجت فيها كل الأفكار التي كانت تنبت فيه كالأعشاب. وكذلك كانت الشمس المحبوبة في فندق (نوردهيم) فلست أستطيع الشكوى منها هي أيضاً. دخلت الفندق فوجدت الغداء محضراً. كل الصحون معدّة في شكل لذيذ وهي تناسبني أكثر مما تناسبني مأكولات المطبخ التقليدي، شطائر «غوتينغ» الخالدة. وعندما أصبحت معدتي راضية بعض الرضا لاحظت أن في القاعة التي كنت فيها سيداً وامرأتين يستعدون للسفر. كان السيد يلبس لباساً كاملاً أخضر، بل يضع حتى على عينيه عوينات خضراً، تلقي على أنفه الأحمر ــ النحاسي ظلاً من الخضرة الداكنة. إنه تماماً على شاكلة الملك نبوخذ نصر في أيامه الأخيرة، عندما كان ــ كما تقول التقاليد الموروثة لا يأكل السلطة قط. أراد الرجل الأخضر أن أدله على فندق جيد في (غوتينغ) ونصحته أن يسأل أول طالب يجده عن فندق (بروهباخ). كانت إحدى رفيقتيه السيدة زوجته، وهي امرأة كبيرة حيية ذات وجه أحمر يمتد فرسخاً مربعاً. ولها على خديها غمازتان توحيان إليك أنهما مبصقتان للحب، ولها ذقن مزدوجة متدلية ذات لحم طويل يبدو أنها استمرار

سيء للوجه، وكان صدرها الفخم الذي تغطيه طبقات من الكشاكش والقمصان المزركشة تشبه الخنادق والاستحكامات، كان هذا الصدر يشبه قلعة من القلاع. ولم أشعر قط بالرغبة في محاصرتها. أمّا المسافرة الأخرى، السيدة أخته فكانت النقيض الكامل للسيدة الأولى. وإذا كانت الأولى سليلة إحدى بقرات فرعون السبع السمان، فإن الثانية، لا شك، سليلة البقرات العجاف. لم يكن وجهها غير فم بين أذنين. أمّا صدرها فأرض من أراضي (لونيبورغ). كل ما في شخصها يعطي فكرة أو صورة لمائدة مجانية تُقدّم لطلاب اللاهوت الفقراء. وسألتني السيدتان إذا كان الفندق (بروهباخ)، يسكنه أناس محترمون كما يجب، فأجبتهما مؤكداً على ذلك مطمئن الوجدان وعندما غادر الثالوث الظريف الفندق ظللت أحييه وأودعه حتى من النافذة. كان فندق الشمس يضحك في خبث. إنه يعرف دون شك، أن الطلاب في (غوتينغ) يسمون السجن التقليدي باسم فندق (بروهباخ).

وراء (نوردهيم) تبدأ الأرض تصبح جبلية، وتبدو هنا وهنالك بعض المرتفعات الجميلة، ورأيت في طريقي عدداً غير قليل من البائعين الذاهبين إلى سوق (برونزويك) وجمهرة من النساء تحمل كل واحدة منهن على ظهرها سلة كبيرة كأنها بيت من البيوت، وقد أحاطت بالسلة قطعة بيضاء كبيرة من القماش. في هذه السلل كل أنواع العصافير المغنية التي تصفر وتزقزق وحاملاتها يذهبن بها وهنّ يقفزن ويتعثرن وقد رأيت شيئاً مسلياً في أن تحمل العصافيربعضهابعضاً إلى السوق على هذا الشكل.

كان الليل قد أظلم عندما وصلت إلى (أوستيرود). كانت شهيتي للطعام قليلة وتمددت على السرير فوراً. كنت تعباً مثل كلب، ونمت مثل إله. وعدت في الحلم إلى (غوتينغ) ووجدتني في المكتبة أجلس في زاوية قاعة الحقوق أتصفح بعض المخطوطات القديمة وأستغرق في القراءة وعندما انتهيت لاحظت وأنا في دهشة بالغة أن الليل قد هبط وأن ثريات من البلور الصافي تضيء القاعة. دقت ساعة الكنيسة المجاورة اثنتي عشرة دقة، وفتح باب القاعة في بطء وأتاح المرور لإمرأة متكبرة فخمة يرافقها في احترام أعضاء كلية الحقوق. وكانت المرأة الضخمة، رغم سنها، ذات ملامح تدل على جمال رائع. وكل نظرة من نظراتها توحي بأنها بنت (تيتان) العظيمة يعني (تيميس) القادرة. وكانت تمسك باحدى يديها الميزان في غير احتفال، وفي اليد الثانية مدرجاً من الرق. وكان هنالك شابان

حقوقيان يرفعان ذيل ثوبها الحائل الرمادي. وعلى يمينها يقفز المستشار الجاف في المحكمة العليا (روستيكوس بانير) لبغورغ (هانوفر) ويعلن شيئاً من مشروع القانون. وعلى يسار الإلهة تهرول في لطفٍ وفي مرح خادمتها الفارسة، المستشار القضائي الخاص (كوجاسيوس هوغو) الذي لا يكفّ عن إطلاق كلمات قانونية طيبة، ثم يضحك منها من أعماق قلبه، حتى إن الإلهة الوقور نفسها مالت، وهي تضحك، نحوه وربتت على ظهره بمدرج الرق الذي في يدها، وقالت له في أذنيه في لطف: «أيها التابع السيء، الذي يضحك ضحكاً جيداً جداً ويفكر تفكيراً سيئاً جداً».

ولاحظ كل واحد من السادة الآخرين شيئاً ما، وكان من المضحك أن يكون طريقة صغيرة تعاد إلى البحث من جديد أو نظرية ما أو حكمة ما تخرج من ذلك الرأس الصغير. وجاء أيضاً من الباب الذي ظلّ مفتوحاً كثير من السادة الأجانب الذين تبدو عليهم مثل سائر الرجال العظام الأولين مظاهر العظمة وكانوا رجالاً بارزي التقاطيع، حادي الذقون في الجملة. وبدأوا، وهم يشعرون بكفاية متواضعة، بدأوا فوراً بالقاء التعاريف وبالتشدق بالمزايا وبالتخاصم حول كل فقرة من فقرات القوانين الرومانية. وظلّت الوجوه الجديدة تأتي، علماء قانونيون شيوخ، يلبسون ثياباً مضى زمنها، ويضعون شعَوراً مستعارة بيضاء طويلة ولهم وجوه نسيها الناس منذ أمدٍ بعيد، ولقد أدهشهم جداً أن الناس لا ينتبهون إليهم ولا يهتمون بهم، وهم أعلام القرن الماضي، ثم اشتركوا، حسب طريقتهم في الثرثرة، وفي الصراخ والزعيق العام الذي أصبح أكثر ضجة وصخباً وشتاتاً، ثم كان مثل هدير البحر أصمّ أذني الإلهة النبيلة حتى إنها فقدت صبرها وصاحت فجأة في صوت هائل معبرة عن يأسها الكبير «صمتاً. صه، صه، أسمع صوت عزيزي بروميثيوس إن القوة الخرقاء والقسوة الصماء في الحلف المقدس قد قيدتا البطل على صخرة في المحيط. ولكن ثرثرتكم ونزاعاتكم لن تضمِّد جراحه ولن تكسر أغلاله». هكذا تكلمت الإلهة. وجرت من عينيها جداول من الدموع. وزمجر كل المجتمعين، كأنهم أصيبوا بجزع من الموْت، وطقطقت القبة وتدحرجت الكتب من الرفوف. وعبثاً حاول الشيخ (مونشهوزن)، وهو يخرج من إطاره إعادة الهدوء وأصبح الأضطراب والضجة أكثر رعباً. وهربت بعيداً عن هذه الفورة من الجنون، ولجأت إلى القاعة المخصصة للتاريخ، إلى الملجأ الذي يجلس فيه أبولون بيلفيدير، وفينوس مديش جنباً إلى جنب وركعت عند أقدام إلهة الجمال. وعندما رأيتها نسيت تلك الضوضاء المرعبة التي فررت منها. وشربت عيناي في ولهٍ ذلك الإنسجام الرائع واللطف الخالد في هذه الأشكال السماوية وانداحت الطمأنينة

اليونانية في روحي كلها وكان فيبوس ـ أبولون يسكب أحلى أنغام قيثارته.

وعندما استيقظت كنت لا أزال أسمع بعض الأنغام المسلية؛ تلك هي قطعان الأغنام التي تمضي إلى المراعي وتطنطن بأجراسها، وكان نور الشمس الذهبي الطيب يدخل من النافذة ويضيء الصور المعلقة على جدران الغرفة.

إنها لوحات تمثل الحرب الأخيرة مع فرنسا، وهي تعكس في أمانه كيف كنا جميعاً أبطالاً. كما تمثل بعض حوادث الاعدامات في زمن الثورة: لويس السادس عشر على المقصلة وغير ذلك من مناظر قطع الرؤوس التي لا يمكن أن نراها دون أن نحمد الله على أننا نستلقي في أسرتنا في هدوء وأننا نشرب قهوتنا الطيبة وأننا ما نزال نحتفظ برؤوسنا قائمة خير قيام فوق أكتافنا.

وبعد أن شربت قهوتي ولبست ثيابي وقرأت الكتابات على ألواح الزجاج في النوافذ وأنهيت حساباتي في الفندق غادرت (أوستيرود).

في هذه المدينة عدد كبير من البيوت، وسكان مختلفون بينهم كثير من الأرواح كما يمكن أن نراها في شكل أكثر صحة في سجل رحالة هارتز لمؤلفه (غوتشالك). وقبل أن أسير في الطريق الكبرى تسلقت التل لزيارة خرائب قلعة (اوستيرود). وهي لا تقوم على أكثر من نصف برج كبير له جدران سميكة مهترئة كأنما أصابها السرطان. وجعلني دربي إلى (شوستلال) أصعد التلال مرة أخرى وأجلت بصري من إحدى المرتفعات إلى وادي (اوستيرود) فبدت المدينة بأسطحة بيوتها الحمر فوق أشجار الصنوبر الخضر وكأنها وردة تغطيها الطحالب. ومن هنا يبدو أكثر جوانب نصف البرج الذي لا يزال قائماً، وقاراً.

بعد أن تمشيت بعض الوقت لقيت فناناً شاباً يقضي فترة تدريبه. جاء من (برونز ويك) وحدثني، من شائعات البلد، أن الدوق الشاب وقع أسيراً في يد الأتراك، وهو في طريقه إلى الأرض المقدسة، ولا يستطيع الخلاص إلاّ بدفع فدية كبيرة. إن رحلة الدوق الطويلة هي التي أتاحت ولادة هذه القصة. إن الشعب ما يزال يحتفظ حتى اليوم بهذا الميل الفكري الأسطوري التقليدي، الذي يتضح في شكل ساحر في دوقه (ارنست). ومذيع هذا النبأ الجديد هو في هذه المرة خياط صديق، وهو شاب صغير لطيف، ولكنه رقيق حتى إن ضوء النجوم يمكن أن تراه خلال جسده كما تراه خلال الأشباح السحابية في (اوسيان). إنه يقوم على خليط متنافر من المزاج الطيب ومن الكآبة. وهذه الصفة الأخيرة تظهر على الخصوص في

طريقة مؤثرة إلى حد مضحك في غناء الأغنية الرائعة: الجعل يدندن على السياج: سوم، سوم. إن فينا نحن الألمان هذه المزية الطيبة أننا ليس فينا مجنون إلى حد لا يجد فيه مجنوناً آخر أكثر جنوناً منه لكي يفهمه. ليس هنالك إلاّ ألماني واحد يمكن أن تتآلف حساسيته مع هذه الأغنية إلى درجة أن يضحك منها ويبكي منها حتى الموت. وألاحظ أيضاً في هذه المناسبة إلى أي حد تغلغلت كلمات غوته في حياة الشعب. كان رفيق الطريق الرقيق يدندن من وقت إلى آخر بالأغنية: سواء أكنت حزيناً أو طروباً، فالأفكار حرة، ثم يغني الأغنية التي نجد فيها (شارلوت) تنهار على قبر صديقها (فرتر). وكان الخياط يخرج عن جلده وهو يحس بهذه الكلمات:

أبكي وحيداً عند مسكبة الورود
عندما كان القمر المتأخر يفاجئنا.
أتشرد وأنا أتأوه قرب الينبوع
الذي يبعث خريره فينا نشوة حلوة من الفرح.

ولكنه لا يلبث أن يملّ ويقول لي: عندنا بروسي في فندق المرغمين في (كاسل) يصنع هو نفسه مثل هذه الأغاني. إنه لا يستطيع أن يخيط درزتين متتابعتين، وهو عطشان إلى درجة فلسين، وعندما يكون ثملاً يرى السماء وكأنها قميص أزرق، ويبكي كأنه مزراب، ويغني أغنية في شعر مزدوج. وكان صديقي الخياط المسكين لا يفعل شيئاً غير أن يقفز على ساقيه الصغيرتين الناعمتين وهو يردد: الشعر المزدوج هو مزدوج الشعر. وأخيراً فهمت أنه يريد أن يتحدث عن الشعر ذي النغم المزدوج وخاصة في المقاطع الشعرية. إنه في الواقع يبدي استعداداً كبيراً للتقدم وقد وضع حداً للتبجح وهو يقول: الآن أريد السكوت طول الطريق. ولكنه لم يلبث أن اشتكى لأنه يحجل حجلاناً على رجل واحدة، وأن العالم واسع جداً وأخيراً تمدد على طوله عند جذع شجرة وحرّك رأسه الصغير الناعم، كأنه ذنب حمل صغير متعب وصرخ وهو يضحك في حزن: يا لي من بليد مسكين. ومع ذلك فأنا مرهق.

أصبحت الجبال هنا أكثر وعورة، وأصبحت غابات الصنوبر تلقي على قدمي ظلالها الكثيفة كأنها أمواج البحر الخضراء، والغيوم البيض تسبح فوق رأسي في السماء الزرقاء. والمظهر الوحشي في البلد خففت وحدته وحشته كما خففتها بساطته في آن واحد. الطبيعة، وهي شاعرة ممتازة لا تحب التحولات المتنافرة تنافراً شديداً. الغيوم مهما بدت في بعض الأحيان مشوّهة مختلطة فهي

تحمل دائماً لوناً أبيض أو صبغاً رمادياً ينسجم مع زرقة السماء وخضرة الأرض وألوان المنظر الطبيعي تذوب جميعاً بعضها في بعض كأنها أنغام موسيقى ناعمة. والمنظر الطبيعي يؤثر في جسد الإنسان وروحه تأثير الحبوب المسكنة. المرحوم (هوفمان) قام بصنع غيوم ذات ألوان رائعة حتى الغرابة. الطبيعة مثل شاعر كبير تستطيع أن تمارس أحسن الآثار بأبسط الوسائل. وهي ليست على الدوام غير الشمس والأشجار والأزهار والماء والحب. ولا شك أن هذا العنصر الأخير ـ عنصر الحب ـ لو لم يكن موجوداً في روح المشاهد، لكانت العناصر الأخرى جميعاً لا تمثل إلاّ منظراً فقيراً، عندئذٍ لا تكون الشمس إلاّ ألوف الأميال من الأوتار ولا تكون الأشجار إلاّ حطباً للوقود، ولا تكون الأزهار إلاّ شيئاً مبرقعاً بقماش رقيق، ولا يكون الماء إلاّ شيئاً رطباً.

غلام صغير يجمع أكوام الحطب لعمه المريض دلّني على قرية (ليرباش). كانت منازلها الصغيرة ذات السقوف الرمادية تمتد على طول الوادي في امتداد يبلغ أكثر من نصف فرسخ، قال لي: إن في القرية سلعاً غبية وزنوجاً بيضاً. . . أراد بالكلمة الأخيرة أن فيها ذوي لون أمهق أحب، كان الشاب الصغير في تفاهم كامل مع الأشجار. . . يحييها كأنها معارف قديمة باسلة، وكأنما هذه الأشجار ترد عليه تحيته بحفيف أغصانها. كان يصفّر كأنه صفارة وكل ما حوله يردد أجوبته بزقزقة العصافير وقبل أن أستطيع رؤيته وهو يهرب، غاب عني بقفزة واحدة حافياً في كثافة الغابة. وفكرت في الموضوع. الأطفال أكثر شباباً منا، وهم يتذكرون خيراً منا الأزمنة التي كانوا فيها هم أنفسهم أشجاراً أو عصافير. وهم ما يزالون في حالة من القدرة على فهمها. أمّا نحن فشيوخ وعجزة، وفي عقولنا كثير من المشاغل ومن القوانين ومن الأشعار الرديئة. أتذكر جيداً الزمن الذي كان يجري فيه عندي ما ليس يجري الآن، أو على خلاف ما يجري الآن، ومضيت وأنا أفكر في هذا إلى (كلوستال). وصلت إلى هذه البلدة الجبلية الجميلة التي لا يمكن أن تراها إلاّ إذا وقفت أمام أبواب منازلها، في عز الظهيرة، في اللحظة التي يغادر فيها الأولادمدارسهم. كان هؤلاء الغلمان اللطفاء، وكلهم تقريباً ذوو خدود حمر، وعيون زرق وشعور شقر كالصوف يقفزون ويصرخون فرحين ويوقظون في نفسي ذكريات ضاحكة حتى الألم. عدت إلى الزمن الذي كنت فيه وأنا تلميذ صغير. لا أستطيع طول ما قبل الظهيرة أن أترك مقعدي الخشبي، في مدرسة الدير القائمة الكاثوليكية في (دوسيلدورف)، التي كان عليّ فيها أن أحمل كثيراً من المعلومات في

اللاتينية والجغرافية وأن أتحمل كثيراً من السياط. وما أكثر ما كنت أغالي في فرحي وفي صرخاتي عندما كان جرس (الفرنسيسكان) العتيق يقرع ليعلن أخيراً حلول الظهيرة. عرف أطفال (كلوستال) من حقيبتي أني غريب وأقبلوا يحيونني في ترحيب وضيافة كريمة. أخبرني أحد الصغار أنهم تلقوا درساً في الديانة وأطلعني على كتاب الكهنوت الملكي في هانوفر وهو الكتاب الذي تطرح منه الأسئلة عن المسيحية. هذا الكتاب الصغير مطبوع طباعة سيئة جداً. وأخاف كثيراً أن يحدث هذا الانطباع السيء عن العقائد الدينية انطباعاً يماثله في السوء على أفكار الأطفال. كما رأيت في خشية وحذر جدول الرياضيات الذي يناقض مناقضة مقلقة عقيدة الثالوث المقدس. وقد طبع الجدول في مدرسة اللاهوت نفسها على الصفحة الأخيرة وذلك ما يمكن أن يوحي إلى الأطفال في ساعة مبكرة أشد الشكوك خطراً. إننا في مملكة بروسيا أكثر مهارة ونحن نمنع أنفسنا من أن نطبع (واحد يساوي واحداً) في آخر كتاب الكهنوت.

تغديت في (كلوستال) في فندق (التاج) قدّموا لي حساء أخضر ربيعياً من البقدونس، وملفوفاً أحمر وقطعة لحم حمل مشوي كبيرة تكاد تبلغ من صغرها حجم (شامبوراكو) ونوعاً من الرنكة المدخنة يسمونها «بوكينغ» باسم الرجل الذي اخترعها وهو وليم بوكينغ الذي مات عام ١٤٤٧ والذي احترمه من أجل هذا الاختراع ومجده شارل الخامس في عام ١٥٥٦ عندما جاء إلى مدينة (ميدلبرغ) من (بيفليد) في زيلنده، وذلك فقط ليرى قبر هذا الرجل العظيم. ما أطيب طعم مثل هذه الوجبة عندما نعرف المعطيات التاريخية التي أحاطت بها. ولكن شيئاً من أحكام القدر الحاسد حرمني من قهوتي. وذلك لأن شاباً جلس على مائدة بالقرب مني، وجعل يخطب ويغني في شكل عاصف حتى إن اللبن صار يدور في الفنجان. إنه شاب مسافر يمارس التجارة ويلبس خمساً وعشرين صدرية من ألوان مختلفة ومثلها في العدد الأختام والخواتم ودبابيس الذهب. وهو يعرف عن ظهر قلب مجموعة من الألغاز ومن النكات التي يلقيها تماماً في غير موضعها ومناسبتها. سألني ماذا في (غوتينغ) من جديد وحدثته أنني قبل سفري شهدت ظهور مرسوم من مجلس الشيوخ العلمي يقضي بمنع قص أذناب الكلاب وأن عقوبة القص دفع ثلاثة (تاليرات) غرامة، مع العلم أن الكلاب الغاضبة في الصيف تدس أذنابها بين ساقيها حتى إن من الصعب أن تميزها من الكلاب التي ليس لها أذناب. وبعد الغداء مضيت لزيارة مصاهر الفضة والعملة والمناجم.

في مصاهر الفضة، كما يجري غالباً في الحياة كان عليّ أن أكتفي برؤية الفضة وحدها. ولم أكن أكثر سعادة في معمل العملة الذي استطعت فيه أن أرى كيف تُصنع الدراهم. الحق أني لم أستطع المضي إلى أبعد من هذا في أي زمن، في مثل هذه المناسبات لم تتح لي غير الرؤية، وأعتقد أن (التاليرات) حتى لو هطلت من السماء فلن يكون حظي منها غير الثقوب التي تصيب رأسي بينما ينصرف أطفال إسرائيل إلى التقاط المن والسلوى الفضيتين. في شعور ينضم إليه في شكلٍ ساخر الاحترام والهيجان الخفيف كنت أتأمل (التاليرات) المولودة حديثاً واللامعة. أمسكت بيدي واحداً منها هبط من تحت الميزان وقلت له: «أيها (التالير) الشاب أيّ قدرٍ في انتظارك. أيّ خيرٍ وأيّ شرٍ ستفعل. كم مرة ستمضي لحماية الرذيلة، أو للتوصية بالفضيلة. كمْ من الصفقات والعربدات المخجلة والأكاذيب والمجازر ستُرتكب عن طريقك وبواسطتك. وكم ستجري دون هوادة في الأيدي القذرة والأيدي النظيفة، خلال عصور وعصور. حتى إذا أثقلتك الآثام أخيراً وأتعبتك الأخطاء تجمعت مع أمثالك في حضن إبراهيم، الذي يعيد صهرك ويطهِّرك ويدعوك إلى ممارسة وجود جديد أكثر خيراً».

وجدت أمراً لذيذاً طريقة الهبوط إلى المنجمين الرئيسيين في (كلوستال) وهما منجم (دوروتي) و(كارولين) وأريد أن أقص عليكم قصتهما في تفصيل.

على بعد نصف فرسخ من المدينة نبلغ بناءين كبيرين أسودين. هناك يستقبلك فوراً عدد من عمال المناجم يلبسون في العادة أردية عريضة، غامقة اللون، زرقاء ــ سوداء تصل إلى أردافهم، وسراويل من اللون نفسه وصدارة من الجلد، كما يضعون على رؤوسهم قبعات من الجلد ليست لها حواش كأنها مخروط مبتور. ويلبس الزائر مثل هذا اللباس دون الصدرية ويأتي منجمي، معلم، فيشعل مصباحه لما تحت الأرض ويقودك عبر فتحة قاتمة تشبه بوري المدفأة ويهبط قبلك حتى صدره ويعطيك قواعد في التمسك بالسلالم ويدعوك إلى اتباعه دون قلق. هذا الشيء في نفسه ليس شيئاً كثير الخطر ولكنك باديء بدء لا تظن ذلك عندما لا تعرف شيئاً عن المناجم. إنك تحس عندئذ إحساساً خاصاً جداً عندما يجب عليك أن تخلع وتلبس شيئاً يشبه بزّة المجرم القاتمة. والآن يجب عليك أن تمضي على قوائمك الأربع، فالثقب أسود حالك والله يعلم كم يبلغ طول السلم. ولكنك سرعان ما تكتشف أنها ليست وحدها التي تقودك إلى الظلام الأبدي وأن هناك أكثر من خمس عشرة أو عشرين سلمًا صغيرة، تقودك كلها إلى لوح خشبي

يمكن أن تتوقف فيه، ثم ينفتح أمامك ثقب جديد وسلم جديد. بدأت بالهبوط إلى منجم (كارولين). إنه حقاً أقذر (كارولين) عرفتها وأكثرها تجهمًا. السلالمُ يغطيها طين لزج، وأنت تمضي من سلم إلى أخرى وأمامك المنجمي يهبط قبلك ويطمئنك دائمًا أن ليس هنالك خطر، ولكن عليك فقط أن تتمسك جيداً بالسلالم وألاّ تنظر إلى قدميك وإلاّ تُصاب بالدوار وأنْ تحذر من وضع رجلك على اللوحة الخشبية المجاورة، التي يصعد عليها حبل البراميل وهو يزمجر، والتي هوى عليها منذ خمسة عشر يوماً رجل غير حذر فاندقت عنقه، وهناك في العمق، ضجة وتمتمة غامضة وأنت تصطدم دائمًا بعارضات وحبال تتحرك لتحمل أطناناً من المعادن أو الماء الذي يتسرّب إلى المنجم، إلى الأعلى. تصل من حين إلى حين إلى ممرات عرضانية تُسمّى الردهات يكون فيها المعدن مكوّماً والمنجمي الوحيد يبقى طول النهار مشغولاً يفصل بمطرقته قطع المعدن في الردهة. لم أنزل إلى أعماق المنجم وهناك ــ كما قيل لي ــ تُسمَع الحافلات وهي تصرخ بالأمريكية: مرحىً لافاييت! ولنقلْ فيما بيننا أنني وجدت في المكان الذي نزلت إليه ما يكفي من العمق. لم يكن هنالك إلاّ الدمدمة والدوي يستمران ولعبة الآلات العجيبة، وخرير الينابيع تحت الأرض، وغيوم من الأبخرة الأرضية واهتزاز نور مصباحنا الذي يزداد شحوباً في ذلك الليل الموحش. الحق أن ذلك يكتم الأنفاس ويصمّ الآذان، وأصبح تنفسي صعباً. وكنت لا أتمسك بالسلالم الزلقة إلاّ في صعوبة. لم أقع في نوبة من القلق، ولكن الشيء الغريب أنني في هذا العمق تذكرت أني في مثل هذا الوقت تقريباً، في العام الماضي شاهدت عاصفة على البحر الأسود وأتصور الآن أنها كانت أسهل بكثير، وأنا أشعر بأن المركب يترجّح هنا وهنالك، وبأن أسمع الرياح تنفذ النفخ بأبواقها، وحركة البحارة المسلية، وكان كل ذلك مغموراً بالهواء العذب والحر في السماء. نعم الهواء! صعدت، بعد أن شعرت بالهواء الفاسد، عدداً غير قليل من السلالم، والمنجمي يقودني عبر ردهة طويلة ضيقة محفورة في الجبل حتى وصلت إلى منجم (دوروتيه). هناك وجدت المنجم أكثر رطوبة ومرحاً. والسلالم أيضاً كانت أكثر نظافة ولكنها أكثر طولاً وحدة من سلالم منجم (كارولين). وجدتني أكثر طمأنينة، ولا سيما عندما لقيت عدداً أكبر من آثار الناس الأحياء. إنك ترى في العمق أنواراً تتحرك وعمال مناجم يصعدون بمصابيحهم إلينا دون أن نحس بهم ثم يحيوننا بتحيتهم الودودة: صعود طيب ويتلقون منا الأمنية نفسها، ثم يمرون ويتجاوزوننا. وقد تأثرت جداً بهذه التحية وبقيت ذكرى هادئة حلوة، ولكنها فذة

ذات لغز ، وأنا أصادف نظرات ثاقبة مفكرة ووجوهاً صفراً إلى حد ما، ولكنها تقية لهؤلاء الشبان والشيوخ، وقد أضاءتهم في شكل سري أنوار مصابيحهم الغامضة. وبعد أن يقضي هؤلاء الرجال كل يومهم وهم يعملون في جحورهم القاتمة المتوحِّدة يخرجون نحو بقايا نور النهار ونحو عيون نسائهم وأطفالهم.

كان دليلي نفسه رجلاً شهمًا مخلصاً ـ من طبيعة الإنسان الألماني أن يكون مخلصاً كالكلب ـ وقد دلّني في عاطفة من الصداقة الخاصة على الردهة التي زارها دوق (كامبردج) مع حاشيته عندما تفقد المنجم حيث ما زالوا يحتفظون بمائدة الغداء الطويلة وبالمقعد الكبير الذي جلس عليه الدوق. ذلك ينبغي أن يكون من الذكريات الخالدة ـ كما قال لي المنجمي الطيب ـ وحدثني في حماسة عن كل ما رافق هذه المناسبة من أعياد، وكيف زُينت الردهة بالأنوار الساطعة والأزهار والأوراق، وكيف أخذ أحد عمال المنجم قيثارته وجعل يغني وكيف شرب الدوق العزيز السمين كثيراً من الأنخاب وكيف احتشد العمال عن طيبة خاطر وهو على الخصوص، لتحية الدوق العزيز السمين ولكل بيت (هانوفر).

قادنا المصباح الصغير للمنجمي، مَثل الإخلاص الألماني، دون إضاءة ملتهبة، بل في هدوء وثقة عبر شبكة كثيفة من الممرات والردهات حتى خرجنا من المنجم من ما تحت الأرض الثقيل، إلى نور الشمس الساطع . . . صعود طيب.

كل عمال المناجم تقريباً يسكنون. . كلوستال ومدينة (زيللرفيلد) الصغيرة القريبة منها. زرت كثيراً من هؤلاء الناس الطيبين ورأيت ما في بيوتهم، وسمعت بعض أغانيهم التي يرافقونها بالقيثارة مرافقة حلوة جداً، والقيثارة هي أداتهم المفضلة عندهم، وقصوا علي بعض قصص الجبال العتيقة ورددوا الأدعية والصلوات التي من عادتهم أن يقرؤوها معاً قبل الهبوط إلى ما تحت الأرض من ظلمات، وقلت معهم أكثر من دعاء طيب واحد. وقد رأى أحد عمال المناجم الشيوخ أن أبقى معهم وأن أنتسب إلى العمل في المنجم. وعندما ودعتهم مستأذناً أعطاني الشيخ رسالة إلى أخيه الذي يقطن في ضواحي (غوسلار) وكلفني أن أقبّل مرات عديدة ابنة أخيه العزيزة.

مهما بدت حياة هؤلاء الناس هادئة ساكنة فإنها مع ذلك حياة حقيقية حية. المرأة العجوز المرتعشة التي تجلس وراء المدفأة في وجه المرآة الكبيرة يبدو أنها ظلّت ربع قرن في هذا المكان نفسه، وقد توحّدت عواطفها وأفكارها في شكل عميق مع زوايا هذه المدفأة ومع نقوش تلك المرآة. هنا إذن للمرآة والمدفأة حياة، لأن إنساناً أعطاهما شطراً من روحه.

من هذه الأعماق، وفي مثل هذا التعارض بينها وبين العالم الخارجي، أمكنت ولادة أقاصيص المرضعات في ألمانيا، وخاصتها هي في أن تنطق وتحرك لا الحيوانات والنباتات فحسب، بل مجموعة من الأشياء الجامدة التي ليس فيها حياة.

إنهم الأشخاص الحالمون الهادئون الذين يتكشّفون في السر الهادىء المطمئن المنبعث في هذه الأكواخ بين الجبال والغابات. إنها الحياة الداخلية لكل هذه الأشياء. وهم يكتشفون لها طبعاً ملازماً لها ومجدياً، وتصبح خليطاً من الرغبات الوهمية والعواطف الإنسانية الحقيقية، وهكذا نجد في القصص أشياء عجيبة تُنقل على أنها أشياء جد طبيعية. الإبرة والدبوس مثلاً يخرجان على سيطرة الخياطين ويضيعان في الظلام، وقشة التبن والفحم يريدان قطع النهر ويغرقان أو ينجحان، والمجرفة (المسحاة) والمكنسة تتنازعان على السلم وتتضاربان، والمرآة حين تسألها تبدو لك أجمل النساء، بل إن قطرات الدم نفسها تشرع في الكلام، وكلماتها المتشائمة تعكس أكثر عواطف التقوى قلقاً، هذا السبب نفسه هو الذي جعل حياتنا منذ الطفولة ذات قيمة لا نهائية. في ذلك العهد كان كل شيء له معنى عندنا ودلالة. كنا نرى كل شيء ونسمع كل شيء، وكانت كل إحساساتنا في درجات متساوية، أمّا بعد ذلك فقد كنا نتحرك بالعقل في نسب مختلفة. نعم، إننا بعد ذلك كنا ننصرف في شكل خاص إلى هذا الشيء المنعزل أو ذلك، كنا نستبدل في صعوبة أوراق العملة في تعاريف الكتب بذهب الحدْس الخالص، وكسبت حياتنا من السعة ما أضاعته في العمق. وهكذا أصبحنا ناساً مصنوعين متميزين، نبدل غالباً مساكننا وتفرض خادماتنا نظام وترتيب هذه المنازل وتغير كما تشاء أمكنة الأثاث، الذي يتحكم فينا بعض التحكم إمّا لأنه جديد أو لأنه اليوم ملك (لجان) وغداً ملك (لاسحق). بل إن ملابسنا نفسها تبقى غريبة عنا، لا نعرف تماماً عدد الأزرار المربوطة بالمعطف الذي نرتديه في هذه الساعة. ثم إن هذه الثياب نبدّلها غالباً، دون أن يكون لأي قطعة منها علاقة ضرورية مع تاريخنا الذاتي والخارجي. ولا نكاد نستطيع أن نتذكر ما شكل هذا القميص الرمادي الذي كلفنا أمس كثيراً من الضحكات المتفجرة، والذي لامست دروبه العريضة أنامل اليد الناعمة لحبيبتنا الغالية.

كانت المرأة التي أمام المرآة ووراء المدفأة تلبس ثوباً له أزهار من قماش عتيق هو ثوب عرس جدتها، وكان آخر أحفادها غلاماً أشقر له عينان براقتان، يلبس منذ الآن ثياب عامل مناجم ويجلس عند أقدام جدته ويعد أزهار ثوبها، ولعلها قصّت عليه قصصاً جَمّة حول هذا الثوب، قصصاً جدية وجميلة لا ينساها الطفل في سرعة، فهي ما تزال ترفرف حوله، وستبقى في مخيلته عندما سيعمل في جد، وقد أصبح

رجلا في الردهات القاتمة في (كارولينا) وربما رددها طويلاً بعد أن تموت الجدة الطيبة، ويصبح هو نفسه شيخاً منطفئاً أبيض يجلس وحوله دائرة من أحفاده، أمام المرآة الكبيرة ووراء المدفأة.

نمت في فندق (التاج) الذي وصل إليه المستشار القضائي (بوترفيك) قادماً من (غوتينغ) خلال النهار. وسرّني أن أعاكس العجوز، وعندما سجلت اسمي في سجل الغرباء وتصفحت شهر تموز وجدت اسم عزيزي (ألبرت شاميسّو) قال لي صاحب الفندق إن هذا الشخص جاء في طقس مخيف وسافر في مثل هذا الطقس المخيف.

في اليوم التالي كان عليّ أن أخفف وزن حقيبتي، ألقيت على المقعد حذائي وكنت أدسهما فيه، وشمرت عن ساقي وسافرت إلى (غوسلار) وسرت إليها دون أن أعرف كيف تم لي ذلك. أتذكر فقط أني جعلت أطوف في الجبال والأودية. كنت أحدِّق غالباً في الأودية الجميلة الضاحكة والجداول الفضية المتمتمة، وعصافير الغابات تزقزق في عذوبة، وأجراس القطعان تدندن، والأشجار بخضرتها المتفاوتة تذهّبها أشعة الشمس اللطيفة، وقبة السماء الحريرية شفافة حتى تكاد ترى ما وراءها إلى حدٍ بعيد، حتى إلى الملأ الأعلى وهنالك تجلس الملائكة عند أقدام الله ويدرسون في عينيه ما في اللوح المحفوظ. أمّا أنا فكنت ما أزال أعيش في حلم الليلة السابقة، لا أستطيع طرده من ذاكرتي. إنها تلك القصة العتيقة للفارس الذي نزل إلى بئر عميقة فوجد أجمل الأميرات تغطّ في نوم مسحور. كنت أنا نفسي ذلك الفارس وبدا لي أن البئر كانت ذلك المنجم المظلم في (غلوستال). وفجأةً انبثق كثير من الأنوار وطلع من كل جنبات البئر أقزام حذرون جعلوا يغمزونني غمزات حانقات ويطوّحون لي بسيوفهم ويبعثون من أبواقهم أصواتاً منكرة تتصاعد دون انقطاع ودون حساب ويحركون رؤوسهم العريضة حركات مخيفة. وفي اللحظة التي ضربتهم فيها سال الدم، وأدركت أن هذه الرؤوس هي رؤوس الأشواك الحمر الطويلة التي قطعتها بعصاي على قارعة الطريق في اليوم السابق. واختفى الأقزام جميعاً فزعين وبلغت قاعة لامعة فخمة في وسطها تقف حبيبتي الغالية على قلبي يغطيها ستار أبيض، ولكنها كانت جامدة لا تتحرك. قبّلت فمها، وشعرت بعون الله الحي بنَفَس روحها المنعش وبارتعاش شفتيها العذب، وكان ذلك بالنسبة إليّ كأني سمعت الله يقول لي:
ــ ليكن النور: وصعقني شعاع باهر من النور الخالد. ولكن الليل هبط عليّ في الوقت نفسه من جديد، وهوى كل شيء في فوضى في بحر لجي غاضب. ويا لها من ثورة ومن فوضى. وعلى الماء المزبد تتطاير في رعب أشباح الموتى، وأكفانهم البيض

تموج على هوى الرياح. ووراءهم يهرع في غضب مهرج ذو قبعة مزركشة يضربونها بسياط مدوية، أمّا أنا فقد كنت أيضاً ذلك المهرج. وفجأة خرجت من الأمواج القائمة شياطين بحرية ذوو رؤوس مشوّهة ومدّوا إليّ براثنهم البارزة وإذا أنا أستيقظ خوفاً ورعباً.

ما أكثر ما يفسدون أجمل الحكايات. حسب الأصل يجب أن يكون ذلك الفارس الذي وجد الأميرة النائمة هو الذي يقصّ قطعة من نقابها وعندما ينكشف بسبب جرأته نوم الأميرة السحري وتجد الجميلة نفسها في قصرها جالسة على عرشها الذهبي فعلى الفارس عندئذ أن يتقدّم إليها ويقول لها: يا أميرتي الرائعة: هل تعرفينني، وهي تجيبه: يا فارسي الباسل. لست أعرفك. وعندئذٍ يكشف لها عن القطعة المقطوعة من نقابها، فإذا هذه القطعة تنضم وتلتصق بشكل كامل وفي اللحظة نفسها بنقابها، وإذا الشابان يتعانقان في حنان، وتقرع الطبول والصنوج ويحتفل بزواجهما.

يا لها من مصيبة فادحة أن أحلام حبي لا تنتهي إلاّ نادراً بمثل هذه النهاية الحلوة.

إن اسم (غوسلار) له رنين معجب وذكريات قديمة راسخة ترتبط بها في أعداد كبيرة. حتى إني كنت أنتظر أن أجد مدينة جليلة رائعة. ولكن هذا ما رأيته عندما نظرت من قريب إلى تلك الأشياء الشهيرة. لم أجد إلاّ عشاً من الطرق الضيقة الملتوية كأنها شبكة. في الوسط يجري قليل من الماء ربما كان من نهر (كوز) كل شيء فيها مقلوب طيني، والرصيف ذو حصى كأنه جنيات المدافىء في برلين. إن آثار سورها وبقايا حيطان الأبراج والحصون، هي وحدها التي تعطي المدينة شيئاً من التأثير. أحد هذه الأبراج، ويُسمّى (تسفينجر) له حيطان سميكة جداً حتى انهم حفروا فيها شققاً كاملة. أمّا الساحة أمام المدينة التي كانت تدور فيها ألعاب الرماية المشهورة فهي مرج واسع جميل محاط بالجبال العالية. السوق صغيرة في وسطها يجري نبع يسيل ماؤه من أنبوب معدني. وفي حالة الحريق يضربون هذا الأنبوب عدة ضربات فيتصاعد منه صوت يرن بعيداً. لا يعرفون شيئاً عن مصدر هذا الأنبوب، ويقول بعضهم إن الشيطان هو الذي وضعه ذات ليلة في السوق. كان الناس في ذلك العهد أغبياء، كما كان الشيطان أيضاً غبياً فتبادلوا الهدايا بينهم وبينه.

مقر بلدية (غوسلار) بناء للحرس مدهون باللون الأبيض، أمّا منزل (غويلد) وهو قرب البلدية فأحسن حالاً. وعلى بعد متساوٍ من الأرض والسقف تقوم تماثيل

الأباطرة الألمان وقد جللها السواد وبقي قسم منها مذهَّباً، وفي يد كل تمثال الكرة الأرضية وفي اليد الأخرى الصولجان. إن لهم شكل حجّاب الجامعة إذا تعرضوا للشواء. أحد الأباطرة يمسك بيده سيفاً بدلاً من الصولجان. ولم أستطع إدراك ما تعنيه هذه المفارقة التي لها مع ذلك معنى من المعاني إذا عرفنا أن الألمان لهم عادة متميزة في أن تكون لهم فكرة في كل ما يصنعونه.

قرأت في كتاب (غوتشالك) كثيراً من الأشياء حول القبة العتيقة في (غوسلار) وحول تاج الأباطرة المشهور. وعندما أردت زيارتها قالوا لي إن القبة قد انهارت وأن التاج نُقِل إلى (برلين). إننا نعيش حقاً في عهد له دلالة قاسية: قبب من آلاف السنين تهدَم وتيجان امبراطورية تُقذَف في المستودعات.

ومع ذلك فقد رأينا في كنيسة القديس ايتيين بعض ما يثير الفضول من القبة المرحومة: ألواحٌ زجاجية رائعة وبعض اللوحات السيئة ومنها، كما يقولون، لوحة لوقا كرانش ثم لوحة المسيح المصلوب المنحوتة على الخشب، ومذبح وثني للأضاحي من معدن لا نعرفه، ولهذا المذبح شكل صندوق طويل مربع يحمله تماثيل أعمدة لنساء منحنيات يرفعن أيديهن إلى رؤوسهن ويكشرن تكشيرة بشعة.

قطنت غرفة قرب السوق في فندق ربما كان الغداء فيه أحسن لو أن السيد صاحبه لم يأتِ ليجلس إلى جانبي بوجهه الطويل المسطح وأسئلته المزعجة. ويا لسعادتي حين تمّ إنقاذي بوصول مسافر جديد سوف يحتمل الاستجواب نفسه الذي هو دائمًا على هذا النحو: مَنْ؟ ماهو؟ من أين جئت؟ إلى أين تذهب؟ هل أنت راضٍ؟ متى تسافر؟. كان هذا المسافر الجديد رجلاً عجوزاً متعباً مهترئاً، جاب الكرة الأرضية كلها حسب أحاديثه وعاش مدة طويلة على الخصوص في (باتافيا) وكسب كثيراً من الأموال ثم أضاعها. وهو الآن، وبعد ثلاثين سنة من الغياب يعود إلى (كيدليمبورغ) مسقط رأسه: لأن له ــ كما أضاف ــ أسرة ذات محتد وتراث. ولكن السيد صاحب الفندق لاحظ ملاحظة فلسفية جداً هي أن المكان الذي يواري أجسامنا لا يبالي مطلقاً بأرواحنا، وأجاب الغريب: وهل أنت واثق من هذا؟ وفي الوقت نفسه ارتسمت منحنيات أليمة ناعمة حول شفتيه الحزينتين وعينيه المنطفئتين. ثم استأنف ــ في هيئة مطمئنة ــ في عناء: أنا لا أريد أن أقول شيئاً سيئاً للقبور الغريبة. إن الأتراك يدفنون موتاهم دفناً خيراً من دفننا لأمواتنا، ومقابرهم حدائق حقيقية، يجلسون على حجارتها الملساء البيضاء المعممة بعمامة، في ظل شجرة سرو، ويداعبون لحاهم ويدخنون دخانهم التركي في غلايينهم التركية الطويلة. أمّا الصينيون فإن مما

يسرك أن تراهم وهم يرقصون محتفلين حول قبور موتاهم، وكيف يصلون ويشربون الشاي ويعزفون على الكمـان ، ويعرفون كيف يزينون القبور التي هي عزيزة عليهم بكل أنواع الزخارف من اللك ومن أشكال البلور ومن الخرق الملونة ومن الأزهار الاصطناعية والمصابيح المبرقشة. آهٍ ما أجمل كل هذا... ماذا عانيت هنا في (كيدليمبورغ) ولماذا جئت؟

مقبرة (غوسلار) أعجبتني قليلاً، ولكن الذي سحرني منظر ذلك الرأس الرائع الصغير الأشقر الذي كان عند دخولي المدينة ينظر، وهو يبتسم من نافذة في الطابق الأول يرتفع قليلاً عن الأرض. بعد الغداء بحثت عن هذه النافذة العزيزة، ولكني لم أجد عند ذلك إلّا كأساً من الماء تترطّب فيه بعض الأزهار البيض. تسلقت النافذة وأخذت الأزهار الجميلة ووضعتها في هدوء على قبعتي دون أن أبالي بأفواه المارة الفاغرة، وبأنوفهم الذاهلة وبعيونهم البقرية، وخاصة منهم العجائز. وهنّ يراقبن هذه السرقة الموصوفة. وعندما مررت بعد ساعة أمام البيت نفسه كانت الجميلة في النافذة، وعندما رأت أزهارها على قبعتي احمرّ وجهها وأسرعت في الانسحاب من النافذة. ورأيت هذه المرة في كثير من الانتباه ذلك الوجه الساحر: إنه تجسيد عذب شفاف لأشعة القمر وغناء العندليب وعطر الوردة. وعندما هبط الليل القاتم مضت إلى باب البيت ووصلت واقتربت منها وانسحبت في بطء إلى الدهليز. أمسكت بيدها وقلت لها: أنا مولع بالأزهار الجميلة وبالقبلات والذين لا يهبونها لي بملء خاطرهم أسرقها منهم. عانقتها في سرعة وأرادت الهرب فاوقفتها وقلت لها في صوت خافت: سأسافر غداً ثم لا أعود أبداً، وأحسست عند ذلك بضغط شفتيها الناعم ويديها الحلوتين... وغادرتها وأنا أضحك. الحق أني ما أزال أجد سبباً للضحك عندما أتذكر أني قلت لها تلك العبارة الساحرة التي تليق بثيابنا الزرق والحمر أكثر مما تليق بالغزل الذكوري الفظ، في الانتصار على قلب المرأة: «سأسافر غداً ولن أعود أبداً».

يطلّ مسكني على منظر رائع في (رامسبرغ). كان المساء رائعاً والليل يطير على حصانه الأسود الذي ترفرف أعرافه في الريح، جلست عند النافذة ونظرت إلى القمر، أيوجد حقاً في القمر إنسان؟ يقول السلافيون إن هذا الإنسان يُدعى (غلوتار) وأنه يمدد القمر وهو يسكب عليه الماء. عندما كنت صغيراً سمعت مَنْ يقول: إن القمر ثمرة يقطفها الله الطيب عندما تنضج، وأنه يضعها مع الأقمار الأخرى الملأى في الخزانة الكبيرة التي في طرف العالم، في المكان الذي تسده الألواح. وعندما اصبحت أكبر سناً لاحظت أن العالم ليس محدوداً هذا الحد الضيق، وأن الذهن

البشري حطّم سدود الخشب وأنه فتح السماوات السبع بمفتاح عبقري يسمونه فكرة الخلود. الخلود يا لها من فكرة جميلة! مَنْ هذا الذي اخترعها! أيمكن أن يكون برجوازياً سميناً من (نورمبرغ) قبعته البيضاء على رأسه وغليونه من التراب الأبيض في فمه، يفكر على هواه، في أن القدرة على الاستمرار دون أن يفقد غليونه الصغير الطيب ونفسه الصغير في الحياة تبقى مع ذلك شيئاً جيداً، وهكذا يُتاح له أن يرعى في مرج الخلود والأبدية العذبة. أم تُراه شاباً عاشقاً يحلم وهو بين ذراعي حبيبته بفكرة الخلود، ويحلم بها لأنه يحسها ولأنه لا يستطيع أن يحس ولا أن يفكر في غيرها. الحب، الخلود، وشعرت فجأة أن صدري يحرقني واعتقدت أن الجغرافيين بدّلوا خط الاستواء وأنهم يمرون له الآن تماماً فوق قلبي. واختلج قلبي بمشاعر الحب ومضت تنطلق في رعونةٍ في الليل الواسع. أزهار الحديقة تحت نافذتي فاحت بشذى أكثر قوة. إن الشذى هو عاطفة الزهر كما أن عواطف القلب الانساني تصبح أكثر عمقاً في الليل عندما يعتقد القلب أنه وحيد، ليس عليه شهيد، وكذلك الأزهار يبدو أنها، بسبب من حيائها وعفتها تنتظر ستار الظلام لكي تسترسل بكل ما فيها في مشاعرها العطرية وتنشرها في الفضاء. انتشري أنتِ يا عطورِ قلبي، وفتشي وراء هذه الجبال عن حبيبتي الغالية. إنها الآن مستلقية على فراشها نائمة، وعند أقدامها تركع الملائكة، وعندما تبتسم في النوم فإن هذه الابتسامة صلاة ترددها الملائكة. في صدرها تكمن السماء بكل ما فيها من نعيم، وعندما تتنفس يختلج قلبي من بعيد. خلف أجفانها الحريرية تنام الشمس، وعندما تفتح عينيها يتنفس النهار ونستمع إلى العصافير وهي تغني وأجراس القطعان وهي ترن، والجبال تتلامع بثيابها الزمردية، وأنا أمسك بحقيبتي وأسافر.

في تلك الليلة التي قضيتها في (غوسلار) حدث لي شيء خارق للعادة، لا أستطيع أن أفكر فيه اليوم إلاّ ويصيبني رعب. أنا لست جزوعاً في طبيعتي، ولكني أخاف الأرواح مثلما أخاف «المراقب النمساوي» تقريباً. ما الخوف؟ هل هو من عمل الفكر أو من الحساسية؟ لقد تناقشت غالباً حول هذه المسألة مع الدكتور (ساول آشير) عندما كنت ألقاه في المقهى الملكي في برلين، وكنت أتغدى فيه زمناً طويلاً. كان يدعم دائماً رأيه في أننا نخاف شيئاً ما لأن استنتاجاتنا العقلية تجعلنا نراه مخيفاً، وأن العقل وحده هو القوة وليس الإحساس. وكان يثبت لي، وأنا آكل وأشرب جيداً، وفي شكل دائم عظمة العقل، وما كان يكفّ بعد بيانه عن النظر إلى ساعته والخلاص إلى هذه النتيجة: «العقل أول كل المبادىء. ! .». العقل! عندما أسمع

اليوم هذه الكلمات أرى دائماً الدكتور (ساول آشير) وساقيه المجردتين، وثيابه الضيقة ذات اللون الرمادي. ووجهه الصلب ذا البرودة الثلجية، الذي يمكن أن يُتخَذ نموذجاً للوحة أشكال في كتاب جغرافيا. هذا الشخص المتقدم في سن الخمسين يجسِّم الخط المستقيم. هذا الانسان المسكين في نزعته الدائمة إلى التحليل أضاع كل ما في الوجود من خيرات، أضاع حتى أشعة الشمس والأزهار وكل العقائد ولم يبق له شيء غير القبر البارد الموضوعي. إن له بدل (أبولون) (بيلفيدير) وبدل المسيحية خبثاً خاصاً، كتب ضد المسيحية منشوراً يثبت فيه تفاهتها وسخافتها ويعلن نهاية هذا الدين القريبة. ولقد كتب على الخصوص مجموعة من الكتب يعبر فيها العقل عن نفسه تعبيراً لا هوادة فيه لكي يثبت فيه وجوده الخاص، وبما أن هذا الدكتور المسكين مؤمن بعقيدته إيماناً كافياً فهو لا يستحق إلاّ الاحترام في هذا المجال. ولكن هذا هو الذي يجعله مسلياً ويهب له وجهاً أحمق في صورة جدية عندما لا يستطيع أن يفهم ما يفهمه الطفل، لأنه طفل فعلاً. زرت مرات دكتور العقل في منزله فوجدت فيه فتيات جميلات، ذلك أن العقل لا يمنع الإحساس، وذات يوم ذهبت لزيارته فقال لي خادمه: لقد مات الدكتور. . وكأنه قال لي: انتقل الدكتور من منزله.

ولكن لنعد إلى (غوسلار). قلت لنفسي وأنا أهدئها: أول المبادىء العقل، وأنا أستلقي في سريري. ومع ذلك فقد بقيت هذه الصيغة دون تأثير. قرأت في «الأقاصيص الألمانية» لـ(فارنهاغن انس) التي استعرتها من (غلوستال) قصة ولد يريد أبوه أن يقتله فأنذرته روح أمه الميتة في الليل. تركيب هذه القصة الرائع أدهشني عند القراءة حتى أني أُصِبت برعشة. ثم إن قصص العائدين من الموت أثارت شعوراً من الخوف كبيراً ولا سيما عندما قرأتها خلال السفر، في الليل، في مدينة، في غرفة لم أكن فيها قط ــ ما أكثر الأهوال في هذا المنزل، هذه الأهوال التي جرت هنا في هذا المكان الذي أنا فيه. هذا ما قلته لنفسي دون إرادة. وعلاوة على ذلك فقد كان القمر يلقي نوره الشاحب على الغرفة وتتحرك على الحائط كل الظلال المشئومة السود وعندما جلست القرفصاء في سريري لأرى ما حولي رأيت. . . لا شيء أدعى للرعب من أن ترى فجأة وفي ضوء القمر وجهك نفسه في مرآة. وفي اللحظة ذاتها دقت ساعة كبيرة ثقيلة دقاتها في بطء وفي طول، حتى أني اعتقدت في شكل أكيد بعد الدقة الثانية عشرة أن اثنتي عشرة ساعة كاملة قد انقضت خلال هذه الدقات وأني سوف أسمع بالضرورة اثنتي عشرة دقة أخرى، بين ما قبل آخر قرعة وآخر قرعة للمطرقة، ودقت ساعة كبيرة أخرى ولكنها كانت حية واضحة تكاد تكون مزمجرة، وكأنها أفقدها الصبر

بطء السيدة زميلتها. وعندما خرس لسانا الحديد وساد صمت الموت على الغرفة والمنزل خُيِّل إليّ فجأة أني أسمع في الدهليز، أمام باب غرفتي شيئاً ما يُجرجَر ويترنح كأنه مشية عجوز غير متماسكة، وأخيراً فُتِح باب الغرفة، ثم دخل المرحوم الدكتور (ساول آشتر) في بطء. سال حتى في مخ عظامي سيل من الحمى الباردة، وارتجفت كأني ورقة نخيل ولم أكد أجرؤ على النظرة إلى الشبح. إن له هيئته السابقة نفسها ولباسه الرمادي الشفاف نفسه، وساقيه المجردتين نفسهما، ووجهه الرياضي نفسه، ولكنه كان أكثر شباباً، ثم إن فمه الذي كان بالأمس يشكل زاويتين لهما ٢٢ درجة ونصف أصابه تجعد كبير: أمّا عيناه فقد اتسع محجرهما. كان يترنح ويعتمد ــ كما كان من قبل ــ على عصا اسبانية من الأسل، واقترب مني وقال لي في لهجة صديق، وفي نبرته العادية المصابة بداء الحفر: «لا تخش شيئاً، ولا تظن إني ميت عائد. إنه لوهم منك أن تعتقد أنك لا ترى إلّا شبحي، ما الشبح؟ دُلّني على تعريفه، استقرأ لي شروط إمكانية الشبح. في أية علاقة معقولة يمكن أن توجد مثل هذه الظاهرة مع وجود العقل؟ العقل... أقول العقل...» وبدأ الشبح عندئذٍ بتحليل العقل واستشهد بـ(كانت) وكتابه نقد العقل الخالص، القسم الثاني، الفصل الأول، الكتاب الثاني، المقطع الثالث، واستعرض الفرق بين الفينومين (الظاهرة) والتومين (النقيضة) وألّف عندئذ مسألة الاعتقاد بالأشباح وراكم الأقيسة فوق الأقيسة واستنتج بالدليل المنطقي عدم وجود الأشباح على الإطلاق. وخلال ذلك كان العرق البارد يجري على طول ظهري وتصطك أسناني كالصناجات. ودفعني خوفي إلى أن أشير برأسي إشارة موافقة مطلقة عند كل مقطع كان يذكره الدكتور لإثبات سخافة الخوف من العائدين من الموت إثباتاً فيه كثير من الحرارة حتى إنه في آخر الأمر، وللتسلية، سحب من صداره، بدل ساعته، كومة من القصائد وضعها في سرعة كبيرة مقلقة وهو يردد في حيوية أكبر: «العقل هو الأمل». وقرعت الساعة الكبيرة قرعة واحدة واختفى الشبح.

في اليوم التالي غادرت (غوسلار) ماضياً في مغامرة ومن المغامرة زيارة شقيق عامل المنجم في (غلوستال). كان الجو طيباً، طقس يوم أحد. تسلقت التلال والجبال ورأيت الشمس تجهد في تبديد الضباب، وسرت تحت أشجار الغابات، الفرح في قلبي وعلى رأسي أزهار صبية (غوسلار) المرحة. كانت الجبال تتبدى في غلالات الليل البيض وأشجار الحور تهز أغصانها من سباتها، وأطلق النسيم العليل والفجر شعرها الأخضر، والعصافير الصغيرة ترتل صلوات الصباح، ومرج الوادي

يلمع كأنه بساط من الذهب تتناثر فوقه اللآلىء، والراعي يطؤه هو وقطيعه المدندن. كنت أخاطر في الضياع: تسلك دائمًا الدروب والمسالك المختصرة وتظن أنك تصل في سرعة إلى غايتك. ولكن هنالك دائمًا أرواحاً طيبة تعيدنا إلى الطريق المستقيم. وهؤلاء الناس الطيبون يفعلون ذلك في طيبة خاطر ثم إنهم يجدون سروراً خاصاً في إيضاح الطريق لنا وفي هيئة راضية ويقولون ذلك في صوت حريص ساهر على رعايتنا، ما أطول الدورة التي قمنا بها وما أكثر المهالك التي تعرضنا لها، وما أصعب المستنقعات التي كان من الممكن أن نقع فيها، وما أسعدنا حين التقينا في الوقت المناسب بأشخاص يعرفون المسالك كما يعرفونها هم أنفسهم. لقد وجدت مثل هذا الدليل غير بعيد من (هارتزبرغ). إنه بورجوازي سمين من (غوسلار) وجهه يلمع لمعاناً في شيء من الحمق يخُيِّل إليك أنه هو الذي اخترع الجوائح، سرنا معاً شطراً من الطريق وقصّ علي ألواناً من قصص الموتى العائدين، وأن الوجه الأبيض هو وجه صياد، وأن الأصوات الصاهلة هي أصوات خنانيص وحشية ولدت حديثاً، وأن الضجة التي نسمعها في الكهف صادرة عن قطة ميتة. «لا يمكن إلّا إذا كان الإنسان مريضاً أن يعتقد أنه يرى الأشباح». أمّا هو فقد ندر أن يمرض ولكنه أحياناً يُصَاب بطفحات جلدية وعندئذٍ يشفيه اللعاب وهو صائم. وأشار عليّ بملاحظة طريقة الانتفاع بكل شيء في الطبيعة. مثلاً الأشجار خضراء، لأن الخضرة تنفع العيون، وقد وافقته على ما يقول وأضفت إلى ذلك أن الإله الطيب خلق الأنعام السمينة لأن حساء لحمها يقوي الانسان، ووضع الحمير على الأرض لأنها يمكن أن تخدم الإنسان على وجه المقارنة، ثم إنه خلق الإنسان لكي يأكل حساء طيباً ولم يخلقه حماراً. وافتتن صاحبي لأنه وجد إنساناً يشاطره رأيه وانبسطت أسارير وجهه في رضاً أكبر، وكان مندهشاً وهو يغادرني.

لقد كانت الطبيعة، ما دام هذا الرجل قريباً مني، وكأنها محرومة من كل سحرها، فلم يكد يذهب حتى عادت الأشجار إلى الحديث وأصبحت أشعة الشمس ترن، وأزهار البراري ترقص والسماء الزرقاء تضم الأرض الخضراء وتعانقها. نعم أعرف ذلك خيراً مما يعرفه الناس جميعاً، لقد خلق الله الإنسان ليعجب بروعة العالم، كل مبدع مهما كان كبيراً يريد أن يُطرَى عمله. وفي التوراة وهي مذكرات الله، ورد عن قصد أن الله خلق الناس لتمجيده والثناء عليه.

بعد أن تشردت طويلاً هنا وهناك وصلت إلى بيت شقيق صديقي في

(غلوستال) وقضيت فيه ليلتي وكنت سعيداً لأني كنت بطل هذه الأبيات التي سوف تقرؤونها:

(١)

على الجبل يقوم الكوخ
الذي يسكنه المنجمي العجوز
فوقه تدمدم الصنوبرة الخضراء
ويلمع القمر الذهبي.

في الكوخ أريكة ذات ذراع
نقشت في ترف ونشأ عجيباً
سعيد مَنْ يجلس في هذه الأريكة
وهذا السعيد الفاني كان أنا.

على الكرسي تجلس الصبية
تسند ذراعها إلى ركبتي؛
عيناها نجمان أزرقان
فمها وردة أرجوانية.

كلا إن أمها لا ترانا
لأنها تحوك الصوف في حماسة
والأب يداعب القيثارة
ويغني أغنية قديمة.

والصبية تقصّ في صوت خافت
خافت جداً ومخنوق
لقد باحت لي
بأسرار كثيرة هامة.

«منذ ماتت عمتي
لم نستطع الذهاب
إلى عيد «السلاح» في (غوسلار)
والمدينة هنالك جميلة حقاً.

«أمّا هنا، فالمدينة، على عكس ذلك جد حزينة
في قمة الجبل الباردة
ونحن كأننا في الشتاء
نُدفَن في الثلج.

«وأنا فتاة رعديدة
أخاف مثل الأطفال
من شياطين الجبل
الذين يعملون خلال الليل.

وفجأة، سكتت الصبية
كأنها خافت من كلماتها نفسها
وغطت بيديها الصغيرتين
عينيها الجميلتين.

الصنوبرة، خارج المنزل، تصبح أكثر حفيفاً
ودولاب المغزل يدمدم ويزمجر
والقيثارة تروي وسط كل هذه الضوضاء
والأغنية القديمة تدندن.

«لا تخافي شيئاً أيتها الطفلة العزيزة
من سيطرة الشياطين
في الليل والنهار، أيتها الطفلة العزيزة
تحرسك ملائكة السماء.»

(٢)

الصنوبرة بأناملها الخضر
تضرب زجاج النافذة الصغيرة
والقمر، وهو الفضولي المحبوب
يسكب نوره الأصفر في الغرفة.

الأب والأم يشخران في لطف
في الغرفة المجاورة

أمّا نحن الاثنين فنمرح سعيدين
ونعرف كيف نبقى ساهرين.

«أنت لا تؤثر بي
تأثير مَنْ يصلي دائمًا يا صديقي
ومطة شفتيك
ليست من الصلاة.

«هذه المطة الماكرة الباردة
تخيفني كل لحظة
ثم لا يلبث قلقي أن يتبدد
عندما أرى شعاع عينيك التقي.

بل أنا أشك في أن لك
ما يدعونه إيماناً ـ
أأنت لا تؤمن بالله ـ الآب
ولا بالابنِ ولا بالروح القدس»
آه يا طفلتي العزيزة، عندما كنت صغيراً
أجلس على ركبتي أمي
كنت أؤمن عندئذ بالرب ـ الأب
الذي يرفرف في الأعالي في الخير والعظمة.

كنت أعتقد به خالقاً للأرض الجميلة
والناس الطيبين الذين عليها
وأعتقد أنه الذي سدد سيرهم
في الشمس والقمر والنجوم.

عندما أصبحت أكبر سناً يا طفلتي الغالية
بدأت أفهم أكثر مما فهمت
فهمت وأصبحت عاقلاً
وآمنت كذلك بالابن.

بالابن العزيز الذي أحبنا
وأوحى لنا الحب

وتلقى جزاءه كما هي العادة
بصلبه من قبل الشعب.

أمّا الآن وقد أصبحت رجلاً
وقرأت كثيراً وسافرت كثيراً
فقد انساح قلبي، ومن أعماق هذا القلب
آمنت بالروح القدس

هذه الروح التي صنعت أكبر المعجزات
وما تزال تصنع ما هو أكبر منها
لقد كسرت أغلال الطغيان
وحطمت نير العبودية.

أبرأت جراحات قديمة قاتلة
وجددت الحق الأول
بأن الناس جميعاً يولدون متساوين
وأنهم من سلالة نبيلة.

إنها تبدد الأوهام الخبيثة
والأشباح السوداء
التي تشوه الحب والفرح
وتبدي لنا في كل حين وجوهها المكشرة.

ألف فارس على سروج كاملة
اختارتهم الروح القدس
لكي ينفذوا ارادتهم
وسلحتهم بشجاعة وكبرياء.

سيوفهم الصقيلة تلمع
راياتهم الرائعة ترفرف
ألستِ تريدين يا طفلتي العزيزة
رؤية هؤلاء الفرسان الأشاوس؟

حسناً إذن فانظري إليّ يا طفلتي العزيزة
عانقيني وأنظري إليّ

لأنني أنا أيضاً حارس ساهر
من حرس الروح القدس.

(٣)

خارج البيت يختبىء القمر في صمت
وراء الصنوبرة الخضراء
وفي غرفتنا يشتعل سراجنا
في ضعف وينير في عناء.

ولكن نجومي الزرقاء، يا لسعادتي
تشع بنور أكبر
والوردة الأرجوانية تتفتح كالنار
والصبية الطيبة تقول:

مجنونات، مجنونات
يسرقن خبزنا وزبدتنا.
عند الصباح يكون الخبز والزبدة في الدولاب
وفي غد يختفيان.

هؤلاء الشيطانات الصغيرات يأكلن القشدة
التي تعلو الحليب، ثم يتركن
الأواني مكشوفة فارغة
وتشرب القطة ما بقي منها.

«والقطة هي أيضاً ساحرة
تهيم في الليل
على جبل الموتى العائدين
حيث يقوم البرج العتيق.

«كان هنالك في الماضي قصر
مفعم بالمسرات وبوميض الدروع
الفرسان الشجعان والنساء والمسلحين
يدورون جميعاً راقصين على أضواء المشاعل.

«وعندئذ جاءت ساحرة خبيثة
فلعنت القصر والناس
وبقيت الخرائب وحدها قائمة
تبني فيها الغربان أعشاشها.

«ومع ذلك فإن المرحومة عمتي كانت تؤكّد
أننا إذا نطقنا بالكلمة الصادقة
في الليل في الساعة المضبوطة
هناك في المكان الصحيح.

«فإن الخرائب تتغير
من جديد وتصبح قصراً لامعاً
تُرَى فيه الفرسان والسيدات والمسلحين
يرقصون في نشوة ومرح.

أمّا مَنْ ينطق بتلك الكلمة
فيصبح سيداً للقصر ولأهله
الدفوف والطبول تحتفل
بعظمته الجديدة».

هكذا تحدثت الصبية الطيبة
وكانت عيناها، النجمتان الزرقاوان
تسكبان على ثوبها أشعة
من لازوردها السحري.

كانت الصغيرة تلف شعرها الذهبي
حول يدها
وتعطي لأصابعي أسماء جميلة
تضحك وتقبلها ثم تسكت أخيراً.

في تلك الغرفة الصغيرة الهادئة
كان كل شيء ينظر إليّ بعيون أليفة
المنضدة والخزانة كأني رأيتها
مرات كثيرة قبل اليوم.

طقطقة الرقّاص في صوت عذب
والقيثارة، التي لا تكاد تُحسّ
بدأت تعزف من نفسها
ووجدتني كأني في حلم.

الآن ها هي ذي الساعة المضبوطة
ونحن أيضاً في المكان الحقيقي
ستدهشين جداً يا طفلتي العزيزة
لو أني نطقت أنا بالكلمة الصحيحة...

ونطقت بتلك الكلمة، وها أنتِ ترين
أن كل شيء يتضح كالنهار، وكل شيء يتحرك
الينابيع والصنوبرات تصبح أكثر ضجة
والجبل العتيق يستيقظ.

أنغام الآلات وأغاني الأقزام
تدوّي في أرجاء الجبل
وتخرج من الأرض غابة أزهار
وكأنها ربيع مجنون.

أزهار، أزهار جريئة
ذات أوراق عريضة أسطورية
وروائح عطرية، متعددة الألوان تتحرك في عنف
كأنما تحركها العاطفة.

ورود حارة كاللهب الأحمر
تنبثق من قلب الأعشاب
زنابق تشبه طيات من البلور
تندفع حتى السماء.

والنجوم، كبيرة مثل الشموس
ترمي إلى أسفل أشعة من الرغبات
على أكؤس الزنابق الكبيرة
وتجري في سيل أمواج هذه الأنوار.

ونحن أنفسنا يا طفلتي العزيزة
قد مسخنا أكثر عجباً
لمعان المشاعل، والذهب والحرير
تزدهر في سرور حولنا.

أصبحت أنت أميرة
وأصبح هذا الكوخ قصراً
وهنا يعبث ويرقص
الفرسان والسيدات والمسلحون.

وأنا أيضاً أمتلك كل هذا
أنتِ والقصر والناس
والدفوف والطبول تحتفل
بعظمتي الجديدة.

أشرقت الشمس، وتبدد الضباب كما تتبدد الأشباح عند صياح الديك. ورجعت إلى السير في الطريق بين الجبال والأودية، وأمامي ترفّ الشمس الجميلة تضيء دائماً ألواناً جديدة من الجمال. والظاهر أن روح الجبل كانت تشجعني وتبعث في الحماسة. لعلها تعرف جيداً أن مسافراً شاعراً مثلي يمكن أن يحمل كثيراً من الأشياء الجميلة، وجعلتني أرى هذا الصباح صاحبها «هارتز» وقلّما رآه الناس وبالمقابل رآني (هارتز) كما لم ير إلاّ قليلاً من الناس: في أجفاني تتلألأ لآلىء جد ثمينة، والطل يبلل خدي، فهمتني الصنوبرات وجعلت أغصانها تفسح لي الطريق للمرور وتتحرك عالية وواطئة كأنها أشخاص صم بكم يعبرون عن فرحهم بحركات أيديهم. ومن بعيد تدوّي أصوات عجيبة غامضة كأنها أصوات جرس كنيسة ضائعة في الغابات. ويخيّل إليك أنها أجراس القطعان التي تتمتع في (هارتز) بكثير من السحر والنضارة والصفاء.

بعد ارتفاع الشمس وعند الظهيرة صادفت أحد هذه القطعان وقال لي الراعي، وهو شاب أشقر، حسن الطلعة: إن الجبل الكبير الذي أسير عند سفحه يُسمَى جبل (بروكن) الشهير، وإنه لا يوجد منزل ما في دائرة قطرها عدة أميال، وكنت مسروراً لأن الراعي دعاني إلى الأكل معه. جلسنا أمام غداء من الخبز والجبن، كانت الخراف الصغيرة تلتقط الفتات، والبقرات الجميلة تقفز حولنا وهي تقرع أجراسها في مرح،

وتبتسم لنا بعيونها الكبيرة، وبدا لي على الخصوص أن مضيفي ملك حقيقي، وبما أنه كان حتى الآن الملك الوحيد الذي أعطاني خبزاً فأريد مكافأة له أن أغني له في أبهة ملكية.

إنه ملك، هذا الراعي الشاب
التل الأخضر عرشه
والشمس فوق رأسه
تاجه الثقيل، تاجه الذهبي.

على أقدامه تقفز الأغنام
تمتدحه في عذوبة، تدمغها صلبان حمراء
والحملان حجابه
تتبختر في كبرياء.

أمّا مهرّجوه في العادة فهم الخنازير الصغيرة
والعصافير والأبقار،
بصفارات الأولى وأجراس الثانية
فهي الموسيقيون في القصر الملكي.

كل هذه ترن وتغني في لطف
في لطف تدندن في جوقة
الشلالات والصنوبرات
حتى إن الملك جعل ينام

خلال هذا النوم حكم القصر
الوزير، وإنه لكلب حقير
يرن نباحه الشتّام
في كل ما حوله.

تمتم الملك الشاب خلال نومه
«الحكم أمر جد صعب
آه. أريد الآن أن أكون
في البيت إلى جانب مليكتي

بين ذراعي مليكتي
سيستريح رأسي الملكي في طلاوة
وستمتد في عينيها الجميلتين
مملكتي إلى ما لا نهاية».

ودّعت صاحبي الراعي وودعني في صداقة وعدت إلى تسلق الجبل والقفز في الأودية. ولم ألبث أن استقبلتني قبابُ غابةٍ من الصنوبر عالية كالسماء أوحت إليّ، من كل نواحيها بالاحترام والوقار، لأن هذه الأشجار كان عليها أن تلقى عناء كثيراً حتى تستطيع النماء فلقد كان شبابها كثير الجهد والكد. والجبل هنا تسوده كتل من الحجر الصخري كثيرة العدد وقد كان على الأشجار أن تدور مع مالها من جذور حول هذه الصخور أو توسع المهاوي وتبحث في مشقة عن التراب لتستطيع أن تمتص غذاءها. وهنا وهنالك تتناثر الأحجار واحدة فوق واحدة كأنها بوابات وتنتصب فوقها الأشجار تاركة جذورها العريانة تهبط من أعالي تلك الابواب ثم لا تصل إلى الأرض إلّا عند أقدام تلك الصخور، حتى يخُيّل إليك أنها تتغذى بالهواء الطلق، ومع ذلك فهي تنطلق إلى هذا الارتفاع الكبير كأنها نمت هي وهذه الصخور المتعانقة، ولعلها كانت أشد صلابة ومراساً من زميلاتها الأشجار التي تنمو كما تشاء في أرض الغابات الرخوة في السهول. هكذا ينتصب في الحياة أولئك الرجال العظماء الذين أصبحوا أقوياء بتغلبهم وتخطيهم للصعاب والعقبات. على أغصان تلك الصنوبرات تجري السناجيب وتحتها تتنزه الغزلان ذات الشعر المذهب. وكنت إذا رأيت مثل هذا الحيوان اللطيف النبيل لم أستطع أن أفهم كيف يجد الناس ذوو التربية العالية سروراً في صيده وقتله. إن إحدى هذه الحيوانات كانت أكثر رحمة من الناس وأرضعت القديسة (جنفيف برابانت).

كانت أشعة الشمس تخترق في مرح خضرة أشجار الصنوبر القائمة وتشكل جذورها سلمًا طبيعية. في كل مكان كانت تتوزع المقاعد المريحة لأن الصخور اكتست على ارتفاع قدم أجمل أنواع الطحالب والأعشاب حتى كأنها نمارق من المخمل. كنت أتنفس رطوبة حلوة وأسمع تمتمة الينابيع فأرتمي في أحضان الأحلام. هنا وهناك يتسرب الماء في خيوط فضية تحت الصخور ويغسل جذور وجذوع الأشجار المجردة المكشوفة. وعندما تنحني عليها وتقرب أذنيك يخُيّل إليك أنك تباغت التاريخ السري لتكوين النباتات وتسمع خفقان قلب الجبل. وفي كثير من الأماكن كان الماء ينبثق من خلال الأشجار والجذور في شكل غزير ويحدث شلالات صغيرة. وهنالك يطيب

الجلوس، تسمع أصواتاً رائعة: العصافير تنشد أغاني الحب تقطعها الرغبات من حين إلى حين والأشجار تهمس بألف لسان كأنها تناجي الصبايا الجميلات والأزهار الذابلة تمدّ أوراقها العريضة ذات التقاطيع العجيبة، وأشعة الشمس المرحة تتلامع في إغراء، والزنابق الصغيرة يخُيَّل إليك أنها تحكي لبعضها في صوت خافت حكايات زرقاء. كل شيء يبدو ساحراً أو مسحوراً وتقترب رويداً رويداً من عالم الأساطير وينبثق في روحك حلم قديم وتبدو لك حبيبتك الغالية... وا أسفاه. ما أشقاني حين تتبختر في سرعة.

كلما صعدت الجبل زادت الصنوبرات قوة وصلابة ويخُيَّل إليك أنها ملائكة أو حوريات يتوزعن في صفوف ودرجات حتى لا يبقى إلاّ الجذوع المكسورة والأعشاب ومراعي الجبال. أصبح الهواء أكثر برودا في شكل واضح. هنا فقط يمكن أن نرى جيداً طرائف الكتل الصخرية. بعضها كبير كبراً مخيفاً. لعلها كانت الرصاصات التي توجه في الزمن الماضي إلى الأرواح الشريرة في ليلة السبت عندما كان السحرة يأتون ممتطين المكانس والرفوش وعند ذلك تبدأ حفلات الدعارة والعربدة المظلمة الملعونة كما تقول مرضعاتنا الطيبات والتي يمكن أن نراها في الصور الجميلة لكتاب فوست التي رسمها المعلم (ريتش).

الواقع أنك عندما تبلغ الطرف الأعلى من (بروكن) لا يمكن أن تمنع نفسك من التفكير في قصص (بلوكسبرغ) الرائعة وخاصة في مأساتنا الكبرى الصوفية القومية (الدكتور فوست). يخُيَّل إليّ دائماً أني أرى إلى جانبي قائمة حصان يقفز وأني أسمع أحداً يتنفس تنفساً ساخراً. وأعتقد أن (ميفيستوفيلس) نفسه يتنفس في عناء عندما يتسلق جبله الذي يؤثره: إنها لطريق صعبة عسيرة جداً، ولم أكن منزعجاً قط عندما رأيت أخيراً فندق (بروكن).

هذا المنزل المعروف بالرسوم الكثيرة التي صُنِعت فيه لا يتألف إلاّ من طبقة واحدة وهو يقع على قمة الجبل وقد بُني في عام ١٨٠٠، وكان بانيه كونت شتولبرغ ـ فيرنيجرود، الذي نُظِّمت من أجله منتجات المنطقة. الجدران ذات سماكة خارقة للعادة بسبب الرياح والأمطار في الشتاء: السقف منخفض، ترتفع في وسطه مقصورة على شكل برج وقرب البيت بناءان آخران صغيران كان أحدهما في الزمن البعيد يُستخدَم ملجأ لزوار (بروكن).

دخول منزل (بروكن) أحدث في نفسي انطباعاً خارقاً للعادة سحرياً. بعد تلك

المسيرة الطويلة الوحيدة الملتوية عبر أشجار الصنوبر والصخور أجد نفسي فجأة وقد انتقلت تحت السقائف إلى النجوم. المدن والجبال والأودية تظل تحت قدميك، وهنا، وأنت في هذا المرتفع تجد رفقة من الغرباء مجتمعة في شكل خاص تستقبلك كما هو المألوف في مثل هذا المكان كأنك ضيف منتظر: نصف الاستقبال يكون عن فضول وتطلع ونصفه الثاني في لامبالاة.

وجدت البيت غاصاً بالناس، وفكرت أولاً كإنسان حذر في قضاء الليل في عدم لياقة سرير من القش، وفي صوت لاهث طلبت على الفور كأساً من الشاي. وأدرك السيد مدير فندق بروكن، كإنسان عاقل، أني، وأنا المريض، أحتاج لقضاء الليل لسرير كامل فأعطاني غرفة ضيقة كان أحد التجار الشباب، وهو من النوع الذي يثير الغثيان ويلبس ثوباً ضافياً أسمر، قد احتلها قبلي ووضع فيها ثيابه.

القاعة العامة كانت تسودها الحياة والحركة. كثير من الطلاب من الجامعات المختلفة، بعضهم وصل قريباً ويتهيأ للإقامة، وبعضهم يعد العدة للرحيل فيضب حقائبه ويكتب اسمه في سجل الجبل ويضع على قبعته الباقة التي أهدتها إليه خادمات المنزل. هنا يقرصون الخدود ويغنون ويقفزون ويترنحون ويسألون ويجيبون: «طقس جيد! طريق جيد! سفر سعيد. وداعاً.. بعض الأهل كانوا منتشين إلى حد غير قليل، وإليهم يعود الفضل في التمتع بمنظر جميل، ذلك أن الرجل السكران يرى كل شيء مزدوجاً.

بعد أن استرحت قليلاً صعدت إلى سطح الشرفة فوجدت سيداً صغيراً معه سيدتان إحداهما صبية، والأخرى أكبر سناً. كانت السيدة الصغيرة جميلة جداً. وجه رائع وعلى رأسها الذي عقد شعره قبعة من الساتان الأسود على شكل قبعة العمال، تعبث الريح بريشاتها البيضاء. ويضم أطرافها الناعمة معطف من الحرير الأسود يتيح للمشاهد ملاحظة أشكالها النبيلة، وكانت عيناها الكبيرتان الصافيتان تغوصان في الأفق الكبير الصافي.

عندما كنت صغيراً لم أكن أفكر إلاّ في قصص السحر والعجائب، وكل فتاة أراها تحمل ريش النعام على رأسها كانت عندي ملكة من ملكات الخرافات. وإذا كان ذيل ثوبها مبلولاً عددتها دون شك حورية من حوريات البحر. أمّا اليوم فأنا أفكر مخالفاً لتفكيري السابق منذ عرفت أن هذه الريش الرمزية، كما علّمني التاريخ الطبيعي تأتي من أشد الطيور حماقة وأن ذيل الثوب عند امرأة يمكن أن يبتلّ في شكل

طبيعي جداً. لو أنني نظرت بعيني الطفل إلى المرأة المذكورة في مثل هذا الوضع في (بروكن) لقلت في نفسي دون ريب: «إنها جنية الجبل، إنها هي التي تنطق بالكلمات السحرية التي تجعل هذا الجبل ساحراً فاتناً». نعم لقد بدا لي كل شيء فاتناً ولا سيما عندما رأينا أول مرة منظر (بروكن) ونحن في هذا المرتفع: كل أوجه فكرنا تلقت مشاعر جديدة مختلفة في أكثرها، بل ربما كانت متناقضة ملأت روحنا بعاطفة سامية ما تزال غامضة قائمة. ولكننا إذا استطعنا أن نجرّد منها فكرتها الصافية، أدركنا صفة الجبل وخلقه. هذا الخلق الذي هو ألماني بكل ما فيه من أخطاء وحسنات. إن إنسان (بروكن) ألماني حقيقي. إنه في دقة ألمانية يبين لنا في وضوح وتمايز كأننا نرى منظراً عاماً مثالاً من عدة مئات من المدن والدساكر والقرى التي يقع أكثرها في الشمال تحيط بها الجبال والغابات والأنهار والبراري على مدى البصر. ولكن ذلك كله يأخذ شكل خريطة جغرافية واسعة رُسِمت في جفاء ولوِّنت في صفاء لا تتمتع العين فيها برؤية مناظر طبيعية جميلة. والشيء نفسه يحدث لنا نحن الآخرين المؤلفين الألمان، بسبب تلك الدقة الوجدانية التي نريد أن ننقل فيها كل شيء، دون أن نستطيع التفكير في أن نستخرج التفاصيل في سحر خاص. وإنسان (بروكن) فيه أيضاً شيء من الهدوء والذكاء والتسامح الألماني لأنه يستطيع أن يرى الأشياء من أعلى وفي وضوح. وعندما يفتح مثل هذا الجبل عينيه الواسعتين يمكن أن يرى أحسن قليلاً منا نحن الأقزام الذين نتسلق على ظهره بعين رمداء. كثير من الناس يدعون أن إنسان (بروكن) فيه شيء غير قليل من الإنسان العامي غير المثقف. وقد غنى (كلوديوس): «إن إنسان بروكسبرج عامي تافه». ولكن هذا الرأي غير صحيح. نعم. إن رأسه الأصلع الذي يغطيه أحياناً بعمامة من الغيوم يعطيه حقاً صبغة غير مثقفة، ولكن ذلك من ناحيته مثل ما هو عن الألمان الكبار نصيبه من السخرية الخالصة. بل إن من الواضح أن إنسان (بروكن) له عصوره من الشيطنة العامة وأزمانه الزاهية، مثل ليلة أول أيار مثلاً. وهو عندئذٍ يرمي في طيبة خاطر قبعة من الغيوم فوق الطواحين ويصبح هو أيضاً مثلنا جميعاً ذا طابع عاطفي تماماً.

حاولت رأساً الدخول في حوار مع السيدة الجميلة: لأننا لا يمكن أن نتمتع حقاً بجمال الطبيعة إلّا إذا تحدثنا عنه في مكانه نفسه. لم تكن لـمّاحة الذكاء ولكنها كانت ذات إحساس مرهف. كانت حركاتها متميزة حقاً وأنا لا أتحدث عن ذلك التميز العادي، الصلب والسلبي الذي يعرف تماماً ما الذي ينبغي أن يُحترَز منه، ولكني أتحدث عن هذا التميز النادر، السهل الايجابي، الذي يقول لنا تماماً ما ينبغي أن نفعله ويهب لنا،

في غياب كل ارتباك، الاستسلام الكامل. وقد شرحت وأنا مستغرب معلومات واسعة في الجغرافية وسميت للجميلة، وكانت ترغب في الاطلاع والتعلم، أسماء المدن المنبسطة تحت عيوننا، وبحثت عنها ودللتها عليها في الخارطة التي بسطتها أمامها في سيماء عالم أصيل على المنضدة الحجرية القائمة في وسط الشرفة. كانت هنالك أكثر من مدينة لم أعرفها ولعل ذلك لأني كنت أبحث عنها بأصبعي أكثر مما أبحث عنها بعيني اللتين كانت متجهتين إلى وجه السيدة الجميلة لتجد فيه مناطق أكثر جمالاً من (شيرك) و(ايلاند). هذا الوجه كان من الوجوه التي لا تثير أبداً، وتسحر نادراً وترضي دائماً. أحب مثل هذه الوجوه لأن ابتسامتها تدخل الطمأنينة على ما في قلبي من طيش وعنف.

ما هو الوضع الذي يتخذه السيد الصغير الذي يرافق هاتين السيدتين. أستطع اكتناه ذلك. إن له وجهاً رقيقاً عجيباً، ورأساً صغيراً تكلله شعرات رمادية قليلة تسقط على جبين غائر حتى تصل إلى عينين خضراوين تشبهان عيون اليعاسيب، وأنف مدور كثير الانحدار، وفم وذقن يدخلان على عكس ذلك في سرعة إلى الأذنين. ربما كان هذا الوجه الصغير مصنوعاً من ذلك الطين الهش الأصفر الذي يستخدمه النحاتون في صنع نماذجهم الأولى ومحاولاتهم البدائية، وعندما كانت الشفتان الرقيقتان تتحركان كانتا تبعثان على الخدين تغضنات نصف دائرية. لم يقل الرجل الصغير كلمة واحدة، كان فقط من حين إلى حين عندما توشوش السيدة الكبيرة في أذنيه كلمات طيبة يبتسم مثل كلب أفطس أصيب دماغه بزكام.

السيدة الكبيرة كانت أم الصبية ولها أيضاً تصرفات جد لائقة. تفصحُ عيناها عن عمق روح حالمة مريضة، حول فمها شيء تقي إلى حد بعيد، ولكني أعتقد أني رأيت أن ذلك الفم كان جميلاً جداً فيما مضى من الأيام وأنه طالما ضحك وأعطى واستقبل كثيراً من القبل. أمّا وجهها فيشبه مخطوطاً محت الأيام سطوره، أو أنه بتأثير الطباع التقية القاسية لبعض كتب الصلوات الغوطية يشبه الأشعار نصف الخابية لشاعر غزل يوناني.

لقد قامت السيدتان، في هذا العام، برحلة إلى ايطاليا مع رفيقهما وحدثتاني بأشياء جميلة عن (روما) و(فلورنسا) و(البندقية) وأسهبت الأم في الحديث عن لوحات (رافائيل) في كنيسة (القديس بطرس) وأسهبت البنت أكثر في الحديث عن الأوبرا في مسرح (ديلافينيس).

بينما كنا نتحدث بدأ النهار في الرحيل وأصبح الهواء أكثر برودة وجنحت الشمس للمغيب شيئاً فشيئاً، وغص سطح البرج بالطلاب والرفاق العمال، وبعض البرجوازيين المحترمين مع نسائهم الشرعيات وبناتهم المهذبات، وقد جاؤوا جميعاً ليروا غياب الشمس. يا له من منظر رفيع يحمل الروح على الصلاة. لقد ظلوا جميعاً طوال ربع ساعة في صمت عميق يشاهدون الكرة النارية الجميلة التي تختفي رويداً رويداً في المغرب، والتمعت الوجوه بلون الغروب الأرجواني وتشابكت الأيدي دون إرادة، كأننا في قداس صامت في ظل كاتدرائية عظيمة، والكاهن يحمل آنئذ جسد السيد المسيح، ومن أعلى الأرغن تنتشر أغنية (بالسيترينا) المقدسة..

بينما أطلقت لنفسي العنان فأخذتني نشوة التقوى سمعت واحداً يصرخ إلى جانبي: ــ إن الطبيعة إذن جميلة على العموم. هذه الصرخة في تعجب انطلقت من قلب حساس هو قلب زميلي في الغرفة التاجر الشاب. وهذه الصرخة أعادتني إلى تصرفات الحياة العامة ووجدتني عندئذٍ في حالة تدعوني إلى أن أقول للسيدتين كثيراً من الأشياء الجميلة حول غروب الشمس، وإلى أن أصحبهما إلى غرفتهما في هدوء كأن شيئاً لم يكن. ووعدتاني بالاستمرار في الحوار ساعة أخرى معهما، وكان حوارنا مثل الأرض نفسها يدور حول الشمس. ادّعت الأم أن الشمس التي تضيع في الأبخرة تشبه الوردة الحمراء القانية التي تلقي بها السماء العابثة من فوق على نقاب الأرض الأبيض، والأرض إنما هي خطيبتها الغالية. وابتسمت البنت ورأت أن الرؤية الدائمة لهذه الألوان من الجمال تضعف الشعور بها وتأثيرها. وأصلحت الأم هذا الرأي الخاطىء بترداد مقطع من رسائل السفر لِـ(غوته) وسألتني إن كنت قرأت كتاب (فرتر). وأعتقد أننا تحدثنا أيضاً عن القطط الطويلة الشعر، وعن الأصص الإيطالية الغريبة وعن المناديل التركية وعن المعكرونة وعن اللورد بيرون، الذي أنشدت السيدة الكبيرة مقاطع من شعره «حول غياب الشمس في نشوة وتنهدات جد ناعمة. ونصحت السيدة الصبية التي لا تعرف الانكليزية وتريد الاطلاع على هذه الأشعار مترجمة ما قالته مواطنتي الجميلة والذكية، وهي البارونة (اليزدى هوهنهاوسن). ولم أمتنع، في هذه المناسبة، كما في كل المناسبات التي أتحدث فيها عن (بايرون) أمام الصبايا، من أن أحتجّ على دعارة هذا الشاعر، وعلى تجديفه المرتاب، وشكوكه المزعجة، وطيشه وعماً لا يعرفه إلاّ الله.

انتهت هذه المهمة فعدت أتنزه على نهر (بروكن) لم يكن الظلام دامساً تماماً. والضباب لم يكن كثيفاً جداً ورأيت سفوح رابيتين تسميان (مذبح السحرة) و(منبر

الشيطان). أفرغت مسدسيّ فلم يكن لهما صدى. ولكن فجأة سمعت أصواتاً مألوفة وشعرت أني مطوق معانق. إنهم رفاقي الذين غادروا (غوتينغ) بعد مغادرتي لها بأربعة أيام والذين لم يفاجئهم وجودي وحيداً على ضفة نهر (بروكن)، وتبدأ قصص وتعجبات ومشروعات وضحكات وذكريات، ووجدنا أنفسنا فكرياً في مدينتنا الطيبة «غوتينغ».

كانوا يقدمون الحساء في القاعة الكبيرة، وهنالك مائدة طويلة تمتد وعلى جانبيها صفان من الطلاب الجياع. بدأوا بالحديث العادي عن الجامعات، ثم عن المبارزات والمبارزات ثم المبارزات. كان الاجتماع يضم في معظمه طلاب جامعة (هال) ثم أصبحت (هال) نتيجة لذلك الموضوع الأساسي في الحديث. ألواح الزجاج المكسورة في نافذة المستشار القضائي (شوتز) جرت عليها تعليقات في شكل مفصل. ثم تحدثوا عن الاستقبال الأخير في بلاط ملك (قبرص) وأنه كان احتفالاً لامعاً، وأن الملك اختار ابناً طبيعياً وأنه يريد أن يعقد زواجاً يسارياً مع أميرة من (ليشتنشتاين) وأنه أرسل خليلته الرسمية، وأن كل الوزارة بكت حسب شروط البرنامج. ولست في حاجة إلى أن أذكر أن لهذا الكلام علاقة بكرامة مشارب البيرة في (هال) وشرّحوا في الوقت نفسه الشابين الصينيين اللذين شوهدا في برلين في السنة الماضية واللذين صنعوا منهما أساتذة نادرين لعلم الجمال الصيني. وهنا حان دور الكلمات الطيبة. وافترضوا حالة ألماني برز في الصين طلباً للمال ونشروا من أجل هذه الواقعة إعلاناً يبين فيه الموظفون الكبار في ـ (تشينغ ـ شانغ ـ تشونغ) وفي (هي ـ هـا ـ هو) رأيهم في أنـه ألماني حقيقي، ثم أوردوا مؤهلاته القائمة على الخصوص على التفلسف، وتدخين السجائر والصبر، ولفتوا أنظار الشعب الصيني إلى أن عليه أن يكون حذراً عند الظهيرة، وهي الساعة التي يأكل فيها الألماني طعامه ويسوق كلابه لأن هذه الكلاب تسرق عادة أفضل لقمة عند الألماني المسكين.

وتحدث عضو شاب من (بورشنشافت) ذهب حديثاً للتطهر في برلين حديثاً مسهباً عن هذه المدينة ولكن من وجهة نظر واحدة. لقد زار الحانة الريفية في (فيسوتزكي) ومسرح الملك وحكم عليهما حكماً غير صحيح، يقول شيلر: «الشباب نزق في الكلام». تحدث عن الرفاهية وعن الثياب وعن تكاليف الكواليس. هذا الشاب يجهل أن المظهر هو أهم الأشياء في برلين. هذه السيادة للوهم يجب على الخصوص أن تبسط سيطرتها على المسرح، ومن الواجب نتيجة لذلك على الإدارة الملكية للمسرحيات أن تحسب حساب لون اللحية التي يؤدّى بها هذا الدور أو

ذاك، وحساب الأمانة في الملبس الذي يرسمه المؤرخون المختصون المحلفون، والذي يخيطه الخياطون العلماء. وأن ذلك كله جد ضروري، لأنه إذا لبست مثلاً (ماري ستيوارت) ثوباً من عهد الملكة (آن) فإن المصرفي (كريستيان جامبل) يشكو وهو على حق، بأن ذلك قد حرمه كل أوهامه المسرحية، وإذا لبس اللورد (بورليغ) سراويل (هنري الرابع) فإن السيدة مستشارة الحرب في (شتاينتسوبف) المولودة في (ليليانهو) لن تنسى هذه الفوضى طوال السهرة. هذا البحث عن الوهم عند المديرين لا يتعلق بموضوع الألبسة والسراويل فقط، بل يتعلق أيضاً بالأشخاص الذين يرتدونها وهكذا فيجب أن يؤدّي دور عطيل زنجي حقيقي، مثل الذي أوصى به في الواقع الأستاذ (ليشتنشتاين) من أفريقيا خصوصاً. ودور (أولالي) في مسرحية (الشرسة والقوية) يجب أن تؤدّيه امرأة ضائعة حقاً، أمّا دور (بيير) فيؤديه إنسان أحمق في طبيعته، ودور المجهول زوج تخونه امرأته فعلاً، وهو رجل لا ضرورة الآن لاستقدامه من أفريقيا. وإذا كان هذا الشاب الذي ذكرناه فهم فهماً خاطئاً المسرح التراجيدي في برلين فإنه على أقل تقدير أدرك أن الأوبرا وموسيقى (سبونتيني) مع ما فيها من صنوج وفيلة وطبول وأبواق هي وسيلة بطولية لتقوية أعصاب شعبنا المسترخي أو لجعله شعباً من المحاربين الأشداء، وهي وسيلة أوصى بها (أفلاطون) و(شيشرون) السياسيان الماكران. وأقل ما فهمه الشاب القيمة الدبلوماسية للباليه. وقد بينت له في صعوبة أن بين أقدام (هوجي ــ فيستريس) من السياسة أكثر مما في عقل السيد (بوشهولتز) الذي تُعتَبر كل كلماته المبطنة تركيبات سياسية، وكل حركة من حركاته لها معنى سياسي فهو مثلاً يرمي إلى الإشارة إلى مجلس الوزراء البروسي عندما يمدّ في انحناءة عاطفية يديه إلى أبعد نقطة ممكنة ويرمي إلى (الدييت) الجرماني عندما يدور مائة مرة على قدم واحدة دون أن يتقدم خطوة، وعندما ينط كأنه مربوط القدمين فهو يومىء إلى الأمراء الصغار، وعندما يترنح مثل السكران فذلك يعني أنه يشير إلى التوازن الأوروبي، وعندما يحرك يديه في شكل شبكة من الخيوط فذلك يرمز إلى أنه يواجه مؤتمراً وأخيراً فهو يمثل صديقنا الكبير في الشرق عندما يصل في تطورات متتابعة إلى ارتفاع كبير ويبقى هادئاً مدة طويلة في هذا الوضع ثم يقفز فجأة قفزات مرعبة.

انزاحت الغشاوة عن عيني الشاب ورأى عندئذ في وضوح لماذا يكون الراقصون أكثر أجراً من الشعراء الكبار، ولماذا كانت الباليه موضوعاً لا ينضب معينه للسلك الدبلوماسي ولا ينتهي الحوار فيه، ولماذا كانت الراقصة الجميلة علاوة

على ذلك تعيش على حساب الوزير الخاص الذي يجهد نفسه دون شك ليلاً ونهاراً لكي يجعلها تفهم أسلوبه السياسي. أقسم بآبيس، إن عدد النظارة الظاهريين للمسرح عدد كبير ولكن عدد الهواة السريين صغير جداً. إن الجمهور الغبي يسرع إليه ويتثاءب ويعجب بالقفزات والمقالب، ويدرس عضوية الإنسان في وضعيات السيدة (لوميير) ويصفق لوثبات (رونيش) ويثرثر باللطف والانسجام والخواصر بينما لا نجد واحداً منهم يدرك أو يرى أن في هذه الأرقام الراقصة مصير الوطن أمام عينيه.

وبينما كانت تتشابك أنواع الأحاديث على هذا المنوال لم يضع الناس ما هو أجدى وأنفع فقد كان الحديث حياً مع الصحاف الملأى بألوان اللحوم والكرنب والبطاطا الخ... ومع ذلك فقد كان اللحم سيئاً وقد أبديت ملاحظتي في لطف إلى جاري فردّ عليّ في نبرة عرفت منه أنه سويسري رداً غير مهذب وقال لي إننا نحن الألمان الذين لا ندرك الحرية الحقيقية نعرف كذلك معرفة أقل المزاج الجمهوري. هززت كتفي وأبديت ملاحظة هي أن خدم الأمراء والمطاعم في كل مكان من السويسريين وأنهم يدعون خاصة بهذا الاسم.

لم يكن ابن جبال الألب سيء النية دون شك «كان رجلاً ضخماً يعني أنه في النتيجة طيب» كما يقول (سرفانتس) ولقد وخزته تلك الملاحظة وأكّد أن بساطة الألمان وقوتهم لم تنطفئا، وجعل يضرب صدره حتى كاد يمزقه ثم أفرغ جرة كبيرة من الجعة البيضاء. وقال السويسري: «هيا هيا» كان كلما ازدادت لهجته رغبة في المصالحة ازداد رجل (جرايفسفالد) حماسة واتقاداً. إن هذا الرجل الألماني ينتمي إلى تلك الأزمان الوطنية التي كانت فيها الحشرات تعيش على هواها وعندما كان الحلاقون مهددين بالموت جوعاً، كان شعره كثيفاً يتدلى على كتفيه كأنه مصرفي من العصور الوسطى ولباسه أسود توتوني، وقميصه القذر يستعمله سترة، ويحمل فوق ذلك وساماً يتضمن شعرات بيضاء من ذنب فرس (بلوخر). إنه غبي على مقياس طبيعي. كنت أحب أن أتحرك عند العشاء وحاولت الدخول معه في حوار سياسي. إنه يرى أن ألمانيا يجب أن تقسم إلى ثلاثة وثلاثين وادياً، وأكدت أنها يجب أن تقسم إلى ثمانية وأربعين وادياً، لكي نكتب كتاباً أكثر تفصيلاً حول ألمانيا، ولأن من الضروري أن نقيم الوفاق بين الحياة العملية وبين العلم.

صديقي من(جرايفسفالد) كان أيضاً شاعراً بطولياً ألمانياً، وأسرّ لي أنه ينظم قصيدة بطولية قومية في مدح (أرمينيوس) ومعركة (توتوبرج). وأعطيته أكثر من

نصيحة لنظم هذه الملحمة، ولاحظت أنه يستطيع أن يعطي فكرة صوتية جيدة للمستنقعات والطرق الوعرة في غابة (توتوبرج) عن طريق نظم أبيات شديدة أو رخوة وأن من الدقة الوطنية ألاّ يعطي (فارس) والرومان غير حماقات حقيقية. وأرجو أن ينجح هذا المهني الصانع، مثل سائر شعراء (برلين)، في شكل ينتج أشد الأوهام رعباً.

زادت الضجة وروح الصداقة الصميمة شيئاً فشيئاً في الجالسين على مائدتنا. وطردت الخمرة الجعة وبعثت كرات الشراب دخانها. كانوا يشربون ويقرعون الكاسات للأنخاب ويغنون. ودوّت أغنية الطلاب المشهورة وأشعار (مولر) و(روكيرت) و(أوهلاند) وغيرهم، كما دوّت أغاني (ميتفيسل) الجميلة. ولكن أكثر ما ترك وقعاً طيباً هي كلمات (ارندت): «الله الذي خلق الحديد لا يريد العبيد». وسمعت في الخارج زعقات وصرخات كأن الجبل الشيخ أسهم بنصيبه فيها فهو يحرّك في مرح رأسه الأصلع وكأن القاعة نفسها تزعزعت. فرغت القناني وامتلأت الرؤوس. أحدهم جعل يصهل كالفرس، وآخر يهدل كالحمام، وثالث ينشد أشعاراً مأساوية، ورابع يتكلم باللاتينية. وآخر يدعو إلى الاعتدال يبشّر به، وسادس جلس كأنه على منبر وبدأ يلقي درساً «أيها السادة. الأرض مخروط، والناس نقاط صغيرة منثورة على سطحه، ولكن المخروط يدور والنقاط الصغيرة تصطدم هنا وهناك وتصدر أصواتاً رنانة. بعض يصدرها غالباً وبعض يصدرها نادراً، وهذا يحدث موسيقى رائعة معقدة تدعى التاريخ الكوني، إذنْ فلنتكلم أولاً عن الموسيقى، ثم عن الكون وأخيراً عن التاريخ. وهذا التاريخ نقسمه قسمين إلى تاريخ ايجابي وتاريخ حشرات...». وظلّ على هذا المنوال يتابع درسه في مزيج من العقل ومن الجنون. كان بورجوازياً من (ميكلمبورغ) عاطفياً يدس أنفه في كأس الخمر ويتنفس بخارها في بسمة سعيدة ويلاحظ أنه يشعر وكأنه أمام مشرب مسرح (شفيران) وهناك آخر يمسك بقدحه أمام عينيه كأنه نظارات طبية، وكأنما يلاحظنا في انتباه، بينما كانت الخمرة تسيل على خديه لتنسكب في فمه المفتوح. وأخذت البروسي الحماسة وألقى بنفسه على صدري، وقال وهو في نشوة هذيان: آه ما أعسر عليك أن تفهمني! أنا عاشق. أنا سعيد. دفعت لي أجرة العودة، يلعنني الله. حبيبتي الغالية سيدة كما ينبغي أن تكون، فهي ذات عنق رائع وتلبس ثوباً أبيض وتعزف على البيان. أمّا السويسري فكان يبكي ويقبل يدي في حنان وهي تئن دون انقطاع. آه يا بيبلي يا بيبلي!..

خلال هذه الفوضى، وقد بدأت الصحون ترقص والكؤوس تطير، بقي شابان جالسين أمامي: كانا جميلين أصفرين كأنهما تمثالان من مرمر. أحدهما يشبه (أدونيس) ويشبه الآخر (أبولون). إن الحمرة الحقيقية التي طبعتها الخمرة على خديهما لا تكاد تُرى. كانا ينظران أحدهما إلى الآخر في حنان بالغ كان كل واحد يستطيع أن يقرأ ما في عيون الآخر، وعيناه تشعان كأنها سقطت عليهما قطرات لامعة من تلك الكأس اللاهبة التي جاء بها ملاك الحب من هناك. من أعلى من نجمة إلى نجمة. كانا يتحدثان في صوت خافت فيه نبرة من الحزن ويقصان حكايات تنبض فيها لهجة مؤلمة إلى حد غريب. قال أحدهما: «لقد ماتت ليز الآن أيضاً» ثم تنهد وبعد توقف قصّ على صاحبه قصة فتاة من (هال) أحبت طالباً، وعندما ترك الطالب المدينة لم تتحدث الصبية إلى أحد ولم تأكل إلاّ قليلاً، وبكت ليل نهار، وتأملت دائمًا صفير عصفور الكناري الذي أهداه لها «ومات العصفور وماتت ليز أيضاً» تلك كانت خاتمة القصة. وعاد الشابان إلى الصمت وإلى التنهد وكأن قلبهما يكاد ينفطر وينفجر. وأخيراً قال أحدهما لصاحبه: «روحي حزينة تعال معي نخرج إلى الليل المظلم. أريد أن أتنفس أنفاس الغيوم وأنوار القمر. يا رفيق ألمي. أنا أحبك. إن كلماتك تطن في أذني مثل تمتمة الجداول، مثل السيول التي تهدر، إنها تطن دائمًا في صدري، ولكن روحي حزينة». وعندها نهض الشابان ولفّ أحدهما ذراعيه على طوق الآخر وتركا القاعة الصاخبة. لحقت بهما ورأيتهما يدخلان غرفة مظلمة، وفتح أحدهما عوضاً عن النافذة خزانة كبيرة للثياب، ووقف كلاهما أمام هذه المرآة مادين زراعيهما في حنان وسمعتهما يتحدثان حيناً بعد حين: يا رياح الليل الأسود لتسكب أنفاسك البلل على خدي في لطف، ولتعبث في حنان بأمواج شعري الصاخبة، أنا فوق قمة الجبل الثلجية، تحت قدمي ترقد مدن الناس النائمين وترفع المياه الزرقاء أنظارها إليّ، اسمع! هناك في الوادي تدندن الصنوبرات وهناك تحت في التلال تزحف أرواح آبائنا في شكل ضباب، آه. لو أني أمضي معهم على حصان الغيوم في الليل العاصف على سطح البحر الصاخب الذي تقفز أمواجه لتصل إلى النجوم. ولكن واأسفاه، ولكني أنوء تحت عبء الألم، وروحي حزينة».

وكان الشاب الثاني أيضاً يمد ذراعيه عاطفياً نحو خزانة الثياب، والدموع تنهمر من عينيه، وهكذا جعل يعنِّف سروالاً من الجلد الأصفر جاء به إلى نور القمر وقال له: «أنت جميل يا بن السماء. منظر وجهك الهادىء يحسن إلى القلوب، تمشي في لطف وكياسة. النجوم طريقك الأزرق إلى الشرق. تُسرُّ الغيوم برؤيتك.

وتستضيء وجوهها القاتمة. مَنْ ذا الذي يشبهك في السماء يا بن الليل. عند حضورك تستحي النجوم وتدير رؤوسها الخضراء. أين تتشرد عندما يغرق الفجر وجهك بالصفرة؟ ألك قصر مثل قصري؟ أتسكن في ظلال الألم؟ هل سقطت أخواتك من السماء. هؤلاء اللواتي يجتزن معك الليل في سرور، فإذا هن غير موجودات؟ نعم لقد سقطن، وأنت أيها النور الجميل تختبىء لكي تبكي عليهن. وأخيراً يأتي الليل، وتكون أنت قد ذهبت، تركت هنالك في الأعالي طريقك الأزرق. وعندئذ ترفع النجوم رؤوسها الخضراء، وهن اللواتي كان يخجلهن ويربكهن حضورك، فإذا ذهبت فرحن. ولكنك ما تزال اليوم تلبس بريق أشعتك وتنظر إلينا من أبواب السماء. مزقي أيتها الريح هذه الغيوم لكي يستطيع ابن الليل أن يتلألأ ويغطي بالنور الجبال المشجرة ولكي يستطيع البحر أن يدحرج في النور أمواجه المزبدة».

أحد أصدقائي، وكانت تثقله سمنة أكثر من معقولة، وقد شرب أكثر مما أكل، رغم أنه التهم مثل عادته كمية من اللحم يمكن أن تشبع ستة ملازمين من الحرس وثلاثة أطفال، مرّ بي راكضاً في مرح كثير النزق يعني مرّ بي وهو يترنح في خطوط متكسرة، وقلب زمناً ما في خزانة الصديقين النادبين ثم قفز إلى باب البيت وأحدث ضجة مرعبة. كما أن الضجة ما زالت مستمرة في الزيادة في القاعة مع فوضى تزداد دائماً. أمّا الشابان الواقفان في الخزانة فكانا يصرخان وينتحبان ويقولان إنهما يقبعان مكسري الأضلاع عند سفح الجبل. كان الشراب القرمزي النبيل ينبثق من فميهما ويتبادلان البلل ويغرق أحدهما الآخر بما يقذفه، ويقول أحدهما لصاحبه: «الوداع. أشعر أني أفقد كل ما في جسدي من دماء. لماذا توقظينني يا نفحة الربيع؟ أنتِ تداعبينني وتقولين: أنا أرطبك بندى السماء. ولكن الزمن الذي أذبل فيه قد اقترب، ولكن الزوبعة التي تجردني من أوراقي قد آنت. غداً يأتي المسافر الذي رآني في أوج جمالي سيبحث عني نظره في كل الحقول ثم لا يجدني...». ولكن كل هذه الضوضاء كان يسودها صوت صديقي السمين الجهوري، الذي كان خارج البيت أمام الباب، بين الشتائم والإيمان يشكو من أنه لم ير في شارع (فنده) المظلم كله مصباحاً واحداً منيراً، وأنه لا يمكن أن يعرف من الذي كسر زجاج نوافذه.

كنت قادراً على الاحتمال،.. والتواضع لا يسمح لي بذكر عدد ما شربت من القناني.. وأخيراً وصلت في شروط حسنة إلى غرفة نومي، كان التاجر الشاب

يستلقي في سريره لابساً طاقيته القطنية البيضاء ورداءه الأصفر من الفانيلا. ولم يكن نائمًا وحاول أن يجرّني إلى حديث وحوار.

ورغبت في خداعه وتخويفه فقلت له إني من الذين يتحركون في النوم، وإن عليّ أن أعتذر منه سلفاً إذا أزعجته في نومه. وصرّح لي الرجل المسكين في الصباح أنه لم يستطع إغماض عينيه طوال الليل لهذا السبب، لأنه خاف أن أقوم خلال نومي ببعض الشرور وأنا الذي أحمل مسدسي وهما إلى جانبي قرب السرير. الحق أني لم أجد خيراً منه لأني أنا أيضاً نمت نوماً متقطعاً. أحاطت بي وهاجتني صور خيالية مزعجة وكوابيس تخلصت منها بصوت ضيف (بروكن) الذي جاء يوقظني لرؤية شروق الشمس. ووجدت على البرج عدداً غير قليل من الفضوليين المتشوقين جداً يفركون أيديهم المثلجة، والنوم لا يزال يلوح في عيونهم، يصعدون وهم يترنحون، وأخيراً جاءت كل الجماعة التي كانت ليلة أمس مجتمعة في القاعة ورأينا في صمت ديني بزوغ الكرة الحمراء الصغيرة في الأفق. كان نهاراً نصف مصبوغ: نور شتوي ينتشر في كل مكان، الجبال تسبح كأنها بحر ذو أمواج مزبدة، وكانت قممها وحدها هي التي تخرج من وسط البخار حتى إنك لتخال نفسك فوق رابية صغيرة وسط سهل غريق لم تبق إلّا بعض البقع اليابسة فيه. ولكي أثبت، بمعونة الكلمات هذا المنظر وهذه المشاعر كتبت القطعة الآتية:

كان النور أكثر وضوحاً في الشرق
بشعاع صغير من أشعة الشمس
ومن بعيد، من بعيد جداً كانت قمم الجبال
تسبح في بحر من البخار

لو كان لي حذاء يجري بي سبعة أميال
لجريت في سرعة الريح
من قمة إلى قمة
حتى أصل إلى بيت حبيبتي الغالية.

من السرير الصغير الذي ترقد فيه
أسحب ستائره في لطف
وأقبل جبينها في لطف
وثنايا ثغرها في لطف

ثم أريد أن أوشوش في لطف أشد
في أذنيها الصغيرتين البيضاوين:
فكري في الحلم أننا ما يزال يحب أحدنا صاحبه
وأننا لم نضع أبداً

ومع ذلك فقد شعرت برغبة ليست أقل من تلك الرغبة في الطعام، وبعد أن قلت بعض المجاملات للسيدتين أسرعت بالهبوط إلى القاعة لأشرب القهوة. وكان ذلك ضرورياً لأن معدتي تشبه قليلاً كنيسة (القديسة ايتيين) في (غوسلار)، ولكني بعد شرب الشراب العربي أجد الشرق يجري بحرارته في عروقي، وتطوقني عطوره، وترن أغاني الـ(بلبل) العذبة ويمسخ الطلاب جمالاً، وتصبح خادمات (بروكن) بمالهن من نظرات (كونغريف) حوريات، وأنوف الناس العاديين مآذن. . . الخ.

ومع ذلك فلم يكن الكتاب الذي إلى جانبيي هو القرآن. الحق أن في ذلك الكتاب وهو يضم صور (بروكن) حماقات، فكل المسافرين الذين تسلقوا الجبل قد سجّلوا فيه أسماءهم، وبعضهم أرفقوا أسماءهم ببعض التأملات والأفكار وسجلوا عواطفهم، بل إن بعضهم سجلوا هذه الأفكار والعواطف شعراً. في هذا الكتاب يمكن أن نرى ما يحدث عندما يصبح هذا القطيع من الناس العاديين يملكون حظهم في أن يصنعوا من أنفسهم شعراء في مثل هذه المناسبات، كما يحدث هنا في (بروكن). إن قصر الأمير في (بالاغوني) لا يضم تفاهات أكثر من تفاهات هذا الكتاب الذي يلمع فيه على الخصوص السادة جباة ضريبة الانتاج بما لهم من عواطف نبيلة، وغلمان المحاسبة وما لهم من ميول عاطفية في قلوبهم، والشيوخ (لتتومان teutomanes) بما لهم من ميول مشتركة في الرياضة الوطنية، وأساتذة المدارس في (برلين) بما لهم من جمل طافحة بالإثارة الخ. . . السيد (بيبان) يريد أن يبدو كاتباً مرة واحدة في حياته على الأقل. هنا يصفون الروعة الجليلة لشروق الشمس، وهناك يشكون سوء الطقس، وخيبات الأمل والضباب الذي يغشي النظر. أمّا كلمة الصعود نشوان والبلاط نشوان فكلمة طيبة دائمة ترد مراراً هنا في مئات التسجيلات.

وأخيراً فإن الكتاب كله يفوح برائحة الجبن والجعة والتبغ، فتظن أنك تقرأ قصة للسيد (كلورن).

وبينما كنت أشرب هكذا قهوتي وأتصفح كتاب صور (بروكن) دخل المسافر السويسري، وخداه مضرجان بالحمرة وقصّ علينا وقد أخذته الحماسة المنظر الرائع الذي تمتع به فوق البرج، عندما حارب نور الشمس الهادىء الصافي وهي رمز الحقيقة أبخرة الليل، وخيل إليه أنه يرى، في مثل معركة الأرواح جماعة من العفاريت العمالقة الغضاب يسحبون سيوفهم الطويلة ويقذفون الفرسان المدججين بالحديد الذين يمتطون خيولا لا تضاهى وعجلات حربية، وترفرف فوقهم الأعلام والرايات، وظهرت حيوانات أسطورية في وسط هذه الفوضى واختلطت كل هذه الأشياء في مذبحة من أكثر المذابح هولاً وازداد شحوبها رويداً رويداً وأخيراً أغمي عليها جميعاً. لقد فاتني حظي في رؤية هذه المعركة بين العناصر وهذه الظاهرة الخارقة، ولو أنكم أجريتم تحقيقاً في هذا الموضوع فأنا أؤكد لكم وبالقسم واليمين أني لم أسمع شيئاً ولم أعرف إلّا نكهة قهوتي الطيبة. ولكن واأسفاه. لقد كانت هذه القهوة سبباً في نسياني سيدتي الجميلة التي كانت في هذه اللحظة واقفة أمام الباب مع أمها ورفيقها تستعد لركوب العجلة، وفي صعوبة وجدت الوقت اللازم للركض ولأؤكد لها أن الوقت بارد، ولكنها ظهرت مكتئبة لأني لم أهرع إليها قبل الآن، فاستطعت أن أزيل غضون جبينها الحزين بإهدائها زهرة رائعة كنت قطفتها في اليوم الماضي من فوق صخرة وعرة كدت أكسر فيها رقبتي. أرادت الأم أن تعرف اسم هذه الزهرة كأنها وجدت أن من غير المناسب أن تضع ابنتها على صدرها زهرة غريبة مجهولة، وإنها لحظوة لم تحلم بها الغداة في منبتها المتوحد. وعندئذ فتح رفيقهما الصامت فمه وعدّ أوراق الزهرة وقال في جفاء: إنها من الصنف الثامن..

لقد احزنني أن توزّع الأزهار الجميلة في أصناف وطبقات مثلنا نحن الناس حسب ما لها من فروق خارجية. وإذا كان لا بدّ لها من تصنيف فيجب أن تُصنَّف حسب طريقة (تيوفراست) الذي يقترح تصنيفها حسب روحها أي حسب رائحتها. أمّا أنا فإن لي في التاريخ الطبيعي طريقتي الخاصة، ولذلك فأنا لا أجد فيها إلّا صنفين أقسمهما: بين كل ما يؤكل وكل ما لا يؤكل.

ومع ذلك فإن طبيعة الأزهار الغامضة لم تكن إلّا حرفاً مغلقاً عند السيدة الكبيرة وقالت دون إرادة أنها تُسرّ كثيراً لو رأت الأزهار مطروحة عند الأقدام في حديقة أو في أصيص، ولكن شعوراً بالعذاب مقلقاً يعصر قلبها ويهزّه إذا رأت زهرة مقطوفة، ذلك لأنها عندئذٍ ليست في الحق إلّا جثة هامدة، وأن مثل جثة

الزهرة يخيل إليك أنها تمد في حزن رأسها الصغير الذابل كأنها طفل ميت. وكادت المرأة تُصاب بخوف عند تذكرها ما أوحت به إليها تلك الملاحظة، وكان عليّ أن أقضي على هذا الأثر في نفسها بإيراد أبيات من شعر (فولتير). شيء غريب أننا ببضع كلمات فرنسية نستطيع فوراً أن نعيد الوضع إلى نصابه ونسترجع المزاج المناسب. ننشد الشعر فتتلقى الأيدي القبل، وتعود الابتسامات مفعمة بالأنس، وتصهل الخيول وتمضي العجلة في بطء وجلال على سفح الجبل.

الطلاب يعدون عدتهم للسفر. والحقائب تُصرّ، والحسابات التي بدت رغم كل التوقعات، متواضعة جداً دُفِعت، والخادمات المضيفات جهزن كالعادة باقات أزهار (بروكن) وساعدن في وضعها على القبعات، وتلقين مكافأة عليها بضع قبلات أو دراهم طيبة العدد، وهبطنا الجبل رأساً، بعضنا، ومنهم السويسري وبروسي (جرايفسفالد) أخذوا طريق (شليرك) وآخرون يبلغون عشرين مسافراً منهم أنا وأصدقائي سرنا يقودنا دليل في اتجاه (إيلزانبورغ).

كان هبوطنا في سرعة. بعض طلاب هال مشوا أسرع مما تمشي عربة Landwehr النمسوية. وقبل أن أتخذ احتياطي، كان القسم الصخري من الجبل بما فيه من مجموعات متناثرة من الصخور قد أصبح وراء ظهورنا ودخلنا في غابة صنوبر مثل الغابة التي رأيتها في اليوم السابق. كانت الشمس تتبرّج في أحلى أشعة عرسها الرائعة وتضيء أهل (بورشان) المرحين مع ألبستهم الزاهية المثيرة التي تتوغل حية في المجموعة ثم تختفي لتظهر في مكان أبعد. وكانوا يجرون على جذوع الأشجار المقلوبة كأنها جسور في مناطق المستنقعات، وينزلقون في المهاوي الوعرة على طول الجذور الناتئة، ويغنون أكثر الأغاني شباباً وفتوّة فتردّ عليهم العصافير المزقزقة والصنوبرات المدمدمة والينابيع التي لا تُرى بالخرير والأصداء المدوية. إن الشباب الفرح والطبيعة الجميلة إذا التقيا كانا كلاهما في انسجام ومزاج طيب.

كلما كنا نهبط كانت الينابيع تحت الأرض تجري في انسجام وتغني. ومن آنٍ إلى آن كان أحد هذه الينابيع يظهر فجأة بين الأعشاب والصخور كأنه يريد أن يعرف هل في إمكانه أن يقوم بمغامرته فيظهر للعيان في رابعة النهار ثم يطلق موجة صغيرة من الماء هي التي دفعته إلى اتخاذ قراره. وعندئذٍ يجري ما يجري دائماً في مثل هذه المناسبات. أكثر الأنهار جرأة يظهر والقطيع الكبير من المترددين الخجولين يشعر، وبالدهشته أنه فجأة تجرفه الشجاعة فيهرع لينضم إلى الرائد الأول، بل إن مجموعة من الينابيع أسرعت في القفز خارج مكامنها ثم شكلت غديراً صغيراً بلغ

من القوة أنه يهبط وهو يدمدم إلى الوادي في سفح الجبل وهو يقفز قفزات رائعة ويقوم بجولات وانعطافات بديعة. وها هو ذا نهر (إلس) اللطيف يسيل ويجري خلال وادٍ غني تحيط به من جانبيه الجبال التي تعلو إلى درجة بعيدة دون أن تشعر بما تفعل والتي تغطيها حتى القاعدة أشجار الزان والجوز والأشجار ذات الأوراق العريضة لا أشجار الصنوبر وغيرها من الأشجار ذات الأوراق الإبرية، ذلك لأن أنواع الأشجار ذات الأوراق العادية تسود (هارتز) السفلى، كما يُسمى السفح الشرقي لِـ(بروكن) لتمييزها عن السفح الغربي الذي هو في الواقع أكثر ارتفاعاً وأكثر ملاءمة للأشجار الصمغية.

لا نستطيع أن نصف المرح والنشاط والروعة، وكل هذي الصفات التي ترافق نهر (الس) وهو يهبط في جنون على الكتل الغريبة من الصخور التي يلاقيها في مجراه. هنا يصفِّر النهر في وحشية أو يجري وهو يزبد ليظهر هنالك في أقواس صافية في مجموعة من الشقوق كأنها عيون رشاش، وهنالك أبعد من ذلك يجري وهو يقفز على الحجارة الصغيرة كأنه صبية لطيفة رشيقة. نعم إن التراث على حق: نهر (إلس) أميرة تهبط بضحكة الشباب وتداوته سفوح الجبل وحناياه. ما أشد ما يلمع ثوبها الأبيض المزبد في نور الشمس وما أشد ما تتطاير ثنايا أشرطتها الفضية على صدرها في مهب الريح. وما أكثر ما تضيء لآلئها. أشجار الزان تنتصب واقفة قربها كأنها آباء ذوو وقار يبتسمون داخلياً لشيطنات الطفل الحبيب. أشجار البتولا البيض تترجح في رضا العمات الطيبات اللواتي يخفن القفزات الخطرة، فهن راضيات خائفات، أمّا شجرة الجوز المتكبرة فتنظر إلى كل هذه الألعاب كأنها عم حزين يجب عليه أن يدفع نفقات نصيب البرية. العصافير الصغيرة في الهواء ترسل أغانيها المرحة، وأزهار الشاطىء تدندن في لطف وظرف: أوه: خذنا معك... خذنا معك يا أخانا الصغير الطيب... ولكن الصبي البطر يبتعد عنها ويقفز في الهواء. ثم لا يلبث أن يستولي على الشاعر الحالم، وتهطل عليّ شلالات من الأنوار الرنانة والأصوات المتلألئة، ويشرد عقلي أمام كل هذه الروعة والسحر، ثم لا أسمع إلّا هذا الصوت العذب تعزفه القيثارة!

أنا الأميرة ليز
أسكن صخرة (ايلزنشتين)
تعال معي إلى قصري
سنكون فيه سعيدين.

أريد أن أشفي رأسك
بأمواجي الشفيفة
وستنسى أشجَانك
أيها الغلام المسكين المريض بالقلق.

بين ذراعي البيضاوين كالثلج
في صدري الأبيض كالثلج
ستستريح وستحلم
بسعادة الحكايات العتيقة.

أريد أن أقبلك وأضحك
كما ضممت وقبلت
الأمبراطور هنري العزيز
الذي هو الآن ميت.

الأموات أموات
والأحياء وحدهم يحيون
أنا جميلة زاهية
قلبي يضحك ويخفق.

قلبي يضحك ويخفق
تعال إليّ في قصري البلوري
آنساتي وفرساني يرقصون فيه
وجيش حملة السلاح يعبثون.

الأردان الحريرية الطويلة تحف حفيفاً
مهاميز الذهب ترن رنيناً
الأقزام يقرعون الصنوج
ويعزفون على القيثارة وينفخون في البوق.

أما أنت فسوف تطوقك ذراعي
كما طوقت الامبراطور هنري:
كنت بيديّ البيضاوين أسدّ أذنيه
عندما ينفخ في البوق.

إننا نشعر بلذة لا حدّ لها عندما يذوب العالم الخارجي في عالم روحنا، وعندما تندفع الأشجار الخضراء والأفكار وأغاني العصافير والألم وزرقة السماء والذكريات وشذى النبات، عندما تندفع كلها في فسيفساء عربية ناعمة. والنساء يعرفن خيراً من الرجال جميعاً هذا الشعور. ولهذا ترى بسمة ذات لطف كافر يمكن أن تتشرد على شفاههن، عندما نحتفل، بكبرياء تقليدية بوقائعنا المنطقية، ونتفاخر بأننا قسمنا تقسيمًا جميلًا كل شيء إلى موضوعي وتجريدي وأحسنا تأثيث رؤوسنا فكأنها مخزن صيدلي في عدة آلاف من الخزائن، وضعنا في إحداها العقل وفي الأخرى الفهم وفي الثالثة الذوق السليم وفي الرابعة الحس المشترك وفي الخامسة الفراغ يعني الفكرة.

كنت أمشي، وكأن الحلم يلفني فلم أكد ألحظ أنّا تركنا أعماق وادي (إلس) وأننا بدأنا نصعد. أصبح الطريق وعراً ومرهقاً، وقد فقد بعضنا أنفاسه. ولكننا على غرار المرحوم ابن عمنا المدفون في (مولن) فكرنا سلفاً في لذة الهبوط: وهذا ما أعاد إلينا مزاجنا الطيب. وأخيراً وصلنا إلى (ايلزنشتين).

إنه صخرة ضخمة من الصوان ترتفع عالياً وفي جرأة من أعماق الهاوية. تحيط به من ثلاث جهات جبال عالية مغطاة بالغابات، ورأينا تحت أقدامه (ايلزانبورغ) و(إلس) الذي يجري في السهل. وفوق أعلى قمة في الصخرة، وكانت في شكل برج، نصبوا صليباً كبيراً من الحديد وبقي مع ذلك عند الحاجة مكان لأربع أرجل لإنسان.

وعلى مثال الطبيعة التي كست (ايلزنشتين) بسحر خيالي سواء في وضعها أو في شكلها فإن التراث الشعبي لم ينس أبداً أن يلوّنها بموشور من الورود. قال غوتشالك: «يُقال إنه كان هنا في ماضي الأيام قصر مسحور، تسكن فيه الأميرة (إلس) الغنية الجميلة، وأن صاحب الحظ السعيد هو الذي يمسك بالوقت الملائم فتسوقه الأميرة معها إلى قصرها ثمّ تكافئه مكافأة ملكية. وذكر آخرون تعليقاً على الحب بين الآنسة (إلس) الجميلة وفارس (فستنبرغ) قصة حلوة غنّاها أحد شعرائنا الكبار في (آبندتسايتونغ). وذكر آخرون أيضاً أن الأمبراطور السكسوني (هنري) هو الذي اجتاز بـ(إلس) جنية الماء الجميلة في قصرها المسحور بين الصخور وقضى هنالك أجمل الساعات في العالم وأكثرها لياقة بأمبراطور. وكتب أخيراً، كاتب جديد جد محترم هو السيد نييمان كتاب رحلة إلى (هارتز) ذكر فيه في حذر مشكور وأرقام دقيقة ارتفاع الجبال وتبدلات الابرة المغناطيسية وديدن المدن وغير ذلك من المعلومات وادّعى على الأقل أن «كل ما يقصونه عن أميرة (إلس) الجميلة ليس إلاّ

من دائرة الأساطير». هكذا يقول كل الأشخاص الذين لم تظهر لهم مثل هذه الأميرة، أمّا نحن الذين كانت تحمينا على الخصوص السيدات الجميلات فنعرف عن هذا الموضوع أكثر مما يعرفون. والأمبراطور (هنري) يعرف أكثر منا أيضاً. وليس عبثاً أن الأباطرة السكسونيين القدماء كانوا يتمسكون بـ(هارتز) الغالية. وليس علينا إلاّ أن نتصفح كتاب تاريخ (لونبورغ) الذي يمثل لنا الأمراء البواسل القدماء تمثيلاً طبيعياً، في خواتم رائعة على الخشب، وقد غطتهم الأسلحة وامتطوا صهوات خيولهم في المعركة، وتدثروا بالشعارات، وقد علا التاج الأمبراطوري رؤوسهم المقدسة، وأمسكوا بيد ثابتة الصولجان والسيف، ونستطيع أن نقرأ في وضوح على وجوههم الطيبة الملتحية كيف كانوا يزفرون زفرات حارة عندما يتذكرون في حنان صواحبهم أميرات (هارتز) وحفيف أشجار غابات (هارتز) ولا سيما عندما يذهبون إلى الخارج، حتى في ايطاليا الغنية بالليمون وبالخمور، والتي تدفعهم إليها رغبتهم في أن يلقبوا أباطرة الرومان وهو هوس للألقاب ألماني حقيقي، طالما أضاع الأمبراطور والأمبراطورية.

وعلاوة على ذلك فأنا أنصح كل مسافر يتسلق قمة (ايلزنشتين) ألاّ يفكر في الأباطرة ولا في الأمبراطورية ـ المقدسة ولا في (إلس) الجميلة ولكن أن يفكر فقط في مواطىء قدميه. لأني في الوقت الذي كنت فيه سابحاً في أحلامي سمعت فجأة الموسيقى الصادرة من تحت الأرض في القصر المسحور، ورأيت حولي الجبال وهي تسقط على رأسي، وسقوف (ايلزنبورغ) تتراقص والأشجار الخضراء تدور في السماء الزرقاء حتى إن كل شيء أصبح أزرق وأخضر أمام عيني، وكان من المؤكّد أن هذا الدوار سيلقي بي في الهاوية لو لم أكن في رعبي متشبثاً تشبثاً بصليب الحديد.

* * *

إن رحلة (هارتز) كانت وتبقى مقطعاً، والخيوط المختلفة التي جمعتها في كثير من التسامح لأجعل منها نسيجاً منسجماً قطعت دفعة واحدة كأنما قصها مقص محكمة قاسية. ربما استطعت أن أعيد ربطها في أغانٍ قادمة وأن ما سكتت عنه رصانتي اليوم سوف أقوله يوماً ما دون أي تحفظ. وأخيراً فهذا يرجع إلى قول الأشياء، في هذا الوقت أو ذاك، في هذا الشكل أو في شكل آخر شريطة أن يُقال. وليس شيئاً سيئاً أن تبقى المؤلفات المنعزلة مقاطع وفقرات، ينتج من تجمعها

مجموعة وافية. بمثل هذا التجمع يمكن إكمال الأجزاء الناقصة هنا وهناك وإنقاذ بعض المواقع الخشنة وتلطيف المقاطع القاسية...

وعليّ أن ألاحظ أن هذا الجزء من (هارتز) الذي وصفته حتى بداية وادي (إلس) ذو منظر أقل روعة من منظر (هارتز) الدنيا وهو منظر رومانطيقي جذاب وهو في جماله الأخّاذ وخضرة صنوبره اليانعة يناقض مناقضة واضحة ذلك الجزء الآخر من (هارتز). كما أن الأودية الثلاثة التي يجري فيها (الإلس) و(البود) و(السلك) في المنطقة الدنيا والتي تُسمى بأسماء هذه الأنهار يتناقض بعضها مع بعض في كثير من الروعة عندما تُشخّص صفة كل وادٍ من هذه الأودية. إنها تشبه ثلاث نساء من الصعب عليك أن تقرر أيها أكثر جمالاً.

لقد غنيت آنفاً (إلس) الرقيقة اللطيفة والاستقبال الظريف الذي استقبلت به هنالك. أمّا (البود) فهو جمال قاتم استقبلني استقبالاً أقل لطفاً، وعندما رأيته أول ما رأيته من مقاطعة (روبلاند) السوداء كان يبدو وكأنه نهر عفيف بريء، يتلفع بنقاب من المطر رمادي فضي، ولكنه لم يلبث أن قذف بالنقاب في هياج عندما بلغت مرتفع (روستراب) وبدت ملامحه واضحة لعيني في نور باهر. كل ما في هيئته يدل على لطف غامر وفي صدره تنبثق صخور كأنها زفرات عشاق ونبرات من الإرهاق الأليم. وبدا لعيني نهر (سلك) أقل حناناً ولكنه أكثر مرحاً، إنه مثل امرأة جميلة حبيبة، تبعد عنك بساطتها النبيلة وهدوؤها البري كل فكرة عن ألفتها العاطفية، ولكنها مع ذلك تفضح رغبتها واستعدادها نصف بسمة تتوارى على شفتيها. وهكذا فقد حاولت أن أنسب إلى هذا الاستعداد مجموعة من ألوان العبث واللهو حاولت القيام بها في وادي (سلك) ومنها أنني أردت القفز على الغدران فوقعت تماماً في وسطها ثم غيرت حذائي المبتل ولبست خفّاً، فضاع أحد الخفين وطارت الريح بقبعتي، ومزقت جذوع الأشجار ساقي ثم الخ... الخ... ورغم كل هذه المعاكسات فقد عفوت من كل قلبي عن السيدة لأنها جميلة. وهي الآن تتجلّ لخيالي بكل ما فيها من مفاتن وكأنها تقول لي مهما كنت عابثة فقد أحسنت إليك، فاكتب فيّ شعراً، غنني، أرجوك.

ويقدم لي نهر (بود) الوقور نفسه ويعود إلى ذاكرتي وتقول لي عيناه القاتمتان: لك معي خليط من الكبرياء والألم، وأريد أن تحبني. ويأتي كذلك نهر (إلس) الجميل وكله ظرف، وكل ما في هيئته إغراء وغواية في تثنيه وفي حركته: إنه يشبه تماماً المخلوقة الفاتنة التي تذكّي أحلامي، وهو مثلها أيضاً ينظر إليّ في عدم اكتراث

لا يُقاوَم، وفي كثير من العمق، وفي سحنة غاية في اللانهاية وفي الشفافية وفي الصدق. . . حسناً ولكنني (باريس) وأمامي الإلهات الثلاث وأنا أعطي التفاحة لأكثرهن جمالًا!

اليوم هو أول أيار وغمر الربيع الأرض كأنه محيط من الحياة. الزبد الأبيض في أماكن انبجاس الأزهار التي تظل معلّقة بالأشجار، وهنالك أبهّة واسعة حارة بخارية تنتشر في كل مكان، في المدينة، فتجعل نوافذ البيوت تبرق في مرح، وجوائم الطير تعيد بناء أعشاشها تحت السقوف، والناس يغدون ويروحون في الشوارع، ويعجبون أن يبلغ الهواء مثل هذا الصفاء، وأن يكونوا هم أنفسهم في مثل هذه الملاءمة النفسية الغريبة، والفلاحات المبرقشات يحملن باقات الزنابق، والأطفال اللقطاء، في سترهم الزرقاء ووجوههم الصغيرة الجميلة اللاشرعية، يمرون بـ(يونغ فرنشترك) وهم يمرحون كأنهم وجدوا اليوم آباءهم، والشحاذ في جانب الجسر له وجه مبتهج كأنه كسب الجائزة الكبرى في اليانصيب، حتى السمسار المولّد الذي يجول بوجهه المتهدل هناك لونته الشمس بأشعتها المتسامحة. . . يجب أن أخرج خارج هذه الأبواب.

إنه أول أيار وأنا أفكر فيك يا جميلتي (إلس) أو [(أجنيس) لأن هذا الاسم أكثر حظوة لديك] وأنا أفكر فيكِ وأريد أن أرى مرة أخرى كيف تهبطين في نور لامع وبهاء مشع، ذلك الجبل، وأريد أن أكون على الخصوص في أسفل ذلك الوادي وأن أستقبلك بين ذراعي. يا له من يوم جميل، في كل مكان أرى اللون الأخضر، لون الأمل. في كل مكان، مثل عجائب ضاحكة تتفتح الأزهار ويريد قلبي أن يتفتح معها في آنٍ واحد. هذا القلب هو أيضاً زهرة، زهرة فريدة. إنه ليس بنفسجة متواضعة، ولا وردة ضاحكة ولا زنبقة صافية، ولا زهرة من الزهرات التي تسرّ بلطفها قلب الصبايا وتترك نفسها ملقاة في رضاً على صدورهن. ولكن هذا القلب يشبه على الأكثر تلك الزهرة الكبيرة الأسطورية في غابات (البرازيل) التي لا تزهر، كما يقول التراث، إلّا مرة واحدة في كل مائة سنة. أتذكر أني رأيت في طفولتي مثل هذه الزهرة. سمعنا في الليل ما يشبه طلقة مسدس وفي الصباح قصّ عليّ الأطفال في الجوار أن ذلك كان زهرتهم (مَقْرَهم) الذي تفتحت فجأة في مثل ذلك الانفجار، ومضوا بي إلى حديقتهم ورأيت، ويا لغرابة ما رأيت، تلك النبتة الواطئة الصلبة وأوراقها العريضة إلى حد كبير، والمسننة والحادة التي يمكن أن تجرح بها يدك في سهولة، وقد اندفعت إلى علو

بعيد وهي تحمل في نهاية ساقها، زهرة رائعة كأنها تاج من الذهب. نحن الأطفال لم نستطع أن نرى جيداً في مثل هذا الارتفاع، والشيخ الطيب (كريستان) الذي يحبنا صنع لنا حول النبتة سلمًا من خشب كنا نتسلق عليها مثل القطط ونتأمل في فضول داخل كأس الزهرة المفتوح حيث كانت الأوراق الصفراء والعطور الغريبة إلى حد وحشي تتصاعد منها في فخامة تثير القلق.

كلا يا (أجنيس) هذا القلب لا يزدهر مراراً ولا في سهولة. أنا لا أتذكر أنه أزدهر إلاّ مرة واحدة، ومنذ أمد بعيد، منذ قرن ولا شك. يا للفخامة التي تفتحت فيه زهرته يوم ذاك، وأعتقد مع ذلك أنها تحمّلت في قسوة النقص في الشمس والحرارة لولا أن دمرتها زوبعة الشتاء. وهي اليوم تتحرك من جديد، وينبت برعمها في صدري وعندما تسمعين الانفجار فلا تخافي أيتها الصبية. فأنا لم أحرق دماغي ولكن قلبي هو الذي يفجّر برعمه وينطلق في أغنيات باهرة وقصائد مدح خالدة، وانسجامات باسمة.

ولكن هذا الحب إذا كان قد سما وعلا من أجلك، يا حبيبة فلا تزعجي نفسك وانطلقي على سجيتك واصعدي السلم الخشبية لتري كأس قلبي المتفتح المزدهر.

ما نزال في وقت الصباح. لقد اجتازت الشمس نصف سيرتها تقريباً، وروائح قلبي عاطرة نشيطة حتى إنها تصعد إلى رأسي في أبخرة مثيرة. ولست أدري أين يقف المزاح وأين تبدأ السماء. عمرت الهواء بزفراتي، وأريد أن أذوب في ذرات ناعمة، وأضيع في ذات الخلود والألوهية... ولكن ماذا يحدث عندما يأتي المساء وتظهر النجوم في السماء، النجوم الشقية التي يمكن أن تقول لك...

إنه أول أيار، إن أكثر صبيان الدكاكين شقاء له اليوم حق في أن يكون عاطفياً وأنتِ تسلبين الشاعر هذا الحق.

جزيرة (نوردرني)

كتبت عام ١٨٢٦

أهالي البلد هم في الغالب جد فقراء ويعيشون على الصيد الذي يبدأ في شهر تشرين الأول في الأيام العاصفة. وكثيرون من سكان هذه الجزيرة يعملون ملاحين على المراكب التجارية الأجنبية، ويظلون بعيدين عن ديارهم سنين طويلة، وتنقطع أخبارهم عن أسرهم وأهلهم، وكثيراً ما لقوا الموت بين الأمواج. لقيت في الجزيرة بعض النساء الفقيرات اللواتي مات كل أقاربهم الذكور هذا الموت. ومثل هذه المصيبة تحدث غالباً حتى إن رب الأسرة يفضّل أن يركب هو وأولاده وأبناء أخيه وأخته وأحفاد أخيه وأخته مركباً واحداً.

إن الإبحار يسحر هؤلاء الرجال ومع ذلك فأنا أعتقد أنهم يشعرون بالطمأنينة في بيوتهم أكثر مما يشعرون بها في البحر. وعندما يمضون على مراكبهم إلى البلاد الجنوبية حيث تلمع الشمس لمعاناً أكثر مرحاً وحيثما يبزغ القمر في أشعة أكثر سحراً، فإن كل أزهار هذه المناطق السعيدة لا يمكن أن تشفي أوجاع قلوبهم وتنسيهم هذا الوطن المعطّر في الربيع فهم أسارى رغبات مؤلمة تحملهم إلى جزيرتهم الرملية وأكواخهم الصغيرة، نحو المنزل تتوهج فيه أعضاء أسرتهم يجلسون القرفصاء جنباً إلى جنب، ويتلفعون في أردية لا تساوي شروى نقير، ويشربون شاياً لا يختلف عن ماء البحر إلاّ بالاسم، ويتحدثون في رصانة لا يدركون معها كيف يمكن أن يتفاهموا بها.

إن الفتنة التي تربط بين هؤلاء الناس مثل هذا الرباط الوثيق في حياتهم الزاهدة المتواضعة هي رابطة العادة والحاجة الطبيعية إلى أن يعيش البعض مثل حياة الآخرين في نوع من التواصل الأخوي في الفكر والعاطفة أكثر من الميل الذاتي

والصوفي إلى الحب. هذا السمو المتساوي، أو على الأصح هذه التفاهة في الروح الاجتماعية، يهب لهم الحاجات نفسها ويعرض عليهم الغاية نفسها، التجربة والآراء المتماثلة تفرض عليهم تفاهماً سهلاً جداً فهم يعيشون في اتفاق كامل. يجلسون قرب النار ويقربون مقاعدهم منها عندما يشتد البرد. ومهما كان الحوار بينهم أخرس فهو ليس أقل حرارة: كل واحد منهم يقرأ في عيون الآخر، وعندما يتكلمون يعرفون أن كل واحد منهم يريد أن يقول قبل أن تفارق الكلمات شفتيه. كل العلاقات المشتركة في الحياة تمثل في ذاكرتهم وفي جرس صوتي واحد وفي تعبير واحد في الوجه وفي حركة خرساء واحدة. كثير من الضحكات والدموع توحِّد بينهم وكثير من الفرح أو التماسك لا نستطيع نحن أن نحدثه في نفوس أمثالنا إلاّ بعد عروض طويلة وبيانات وشروحات، لأننا نعيش لنأخذ كل شيء، متفردين عقلياً، وكل واحد منا نتيجة لتربية خاصة وقراءات خاصة وأزمنة جاء أكثرها مصادفة وقد تلقى توجيهاً مختلفاً، وكل واحد منا وقد لبس أخلاقيا ثياب التنكر والتزوير يفكر ويشعر ويعمل غير ما يفكر به ويشعر به ويعمله الآخرون، وهكذا تزداد مواقع عدم التفاهم بيننا، حتى إن الحياة المشتركة في أوسع البيوت أصبحت صعبة ونحن فيها نعيش في ضيق، ويجهل كل منا صاحبه كأننا انتقلنا إلى أرض غريبة أجنبية.

طالما عاشت شعوب كاملة عصوراً كاملة في حالة مشاركة في الأفكار والمشاعر كما نشهد ذلك عند بحارتنا الفقراء في جزيرة (نوردرني). إنها حالة مشابهة من المساواة والوحدة في الفكر أرادت الكنيسة المسيحية والرومانية في القرون الوسطى أن تفرضها على المؤسسات والتجمعات السكانية في كل أوروبا، ولهذا وضعت تحت رعايتها كل العلاقات الاجتماعية وكل قوى الحياة ومظاهرها، كل الإنسان في اختصار وكذلك كل الإنسان الأخلاقي والجسدي معاً. ولسنا نستطيع أن نضع موضع الشك أن كثيراً من السعادة الهادئة لم تقم على أساس بهذه الوسيلة وأن الوجود الإنساني في ذلك العصر لم يأخذ تطوراً أكثر حماسة وأكثر وثوقاً، وأن الفنون في الوقت ذاته، وهي تشبه أزهاراً متفتحة في صمت قد تفتحت ونشرت تلك الفخامة التي لا تزال تُعجَب بها حتى اليوم والتي لا يستطيع علمنا القلق العجول أن يقلدها. ولكن للعقل حقوقه الخالدة، إنه لا يدع نفسه تلفه المذاهب ولا أن ينام على قرع الأجراس، ولذلك فقد كسر تلك القماطات الطفولية ومزق الشرائط الحديدية التي تقوده بها مرضعته، الكنيسة الرومانية، وهو في نشوة خلاصه وكبريائه ضرب في كل أرجاء الأرض وتسلّق أكثر قمم الجبال ارتفاعاً وأطلق صرخات البهجة والنصر وعادت إلى ذاكرته كثير من الرغبات والشكوك الموروثة منذ أجيال،

وجعل يتأمل عجائب النهار ويعد نجوم الليل. نحن لا نعرف حتى الآن عدد هذه النجوم التي تلمع في قبة السماء، ونحن لم نتعمق حتى الآن الأسرار الخفية في البر والبحر: ومع ذلك فإن بعض الأسرار العتيقة قد تم حلها. ولكن هل تكمن في أرواحنا الآن سعادة أكثر من السعادة الغابرة؟ نحن نعلن في صراحة أننا لو راعينا الكثرة فلا نستطيع أبداً أن نجيب على هذا السؤال بالايجاب، ولكن علينا أن نعترف بأن السعادة التي تعود إلى الشخص ليست سعادة حقيقية وأن الانسان في اللحظات المعدودة التي يشعر فيها بحالة فكرية أكثر حرية وأكثر خلوداً، يتمتع بامتلاك كرامته العقلية، وهو يستطيع عندئذٍ أن يستمتع بحظ كبير من السعادة لا يستطيع أن يشعر بها في سنوات طويلة قضاها وهو يعيش خاملاً في إيمان الفَحّام الساذج الغافل.

وعلى كل حال فقد كانت سيطرة الكنيسة هذه عبودية من أسوأ العبوديات. ومَنْ الذي يضمن لنا إخلاصها في نيتها الحسنة، كما ذكرت آنفاً؟ مَنْ الذي يمكن أن يبرهن لنا أن هذا الإخلاص لم تشبه من حين إلى حين نية مشبوهة؟ روما أرادت السيطرة دائماً وعندما انهارت جيوشها بعثت بالعقائد إلى المقاطعات بديلاً عن الجيوش. إن روما مثل عنكبوت ضخم ظلت قائمة راسخة في وسط العالم اللاتيني وظلّت تغطي العالم بنسيجها الذي لا نهاية له. وقد عبرت أجيال من الشعوب تحت ظل هذا النسيج حياة ساذجة وطمأنينة تقية، وهي تعتقد أن قبة السماء هو ذلك الذي لم يكن إلّا نسيجاً رومانياً. ولكن العقول الأكثر نفاذاً وبصيرة وموهبة والراغبة بتطور أكثر حرية شعرت أنها مضطهدة بائسة تحت ذلك النسيج الخادع، وعندما أرادت أن تمزقه وأن تتخلّص منه استطاعت العنكبوت الكبيرة الماكرة أن تصطادها في سهولة وأن تمتص أكثر ما في دم قلبها جرأة وبسالة. والحق أن السعادة الخيالية الساذجة في التعدد ثمّ شراؤها بثمن غال، بثمن دماء كثيرة نبيلة؟ ونحمد الله أن أيام العبودية الفكرية قد ذهبت وانقضت. لقد أتعبت السن الطويلة العنكبوت الكبيرة حاملة الصليب وهي ما تزال -قائمة كما كانت في الماضي تحتمي في الأركان الخربة المتهدمة في خرائب (كوليزيه)؛ إنها تنسج خيوطها دائماً، في الواقع، نسيجها القديم، ولكنه لم يبق نسيجاً نذلاً سريع العطب، وهي لا تمسك به إلّا الفراشات والخفافيش، ولكنها لا تمسك كما كانت تفعل من قبل، نسور الشمال.

هذه العادة ما أشد ما هي مضحكة. في الوقت الذي أنصرف فيه في حماسة

كاملة إلى فضح نوايا الكنيسة الرومانية أشعر فجأة بتلك الرغبة في القتال التي يضمرها بروتستانتي يجهد في أن يتهمها دائماً بأشنع الاتهامات والدوافع. هذا الاختلاف في الآراء في نفسي يوضح لي مقدار التفاوت العميق الخطير الذي يسود طريقة التفكير في عصرنا. إن ما أعجبنا به أمس نكرهه اليوم، وربما سخرنا منه غداً ولم نكترث به.

وهناك وجهة نظر أخرى، كل شيء متساوٍ في الكبر وكل شيء متساوٍ في الصغر، وأنا أتذكر التحولات الواسعة التي جاء بها الزمان إلى أوروبا، عندما أتأمل الوضع الضيق الذي يعيش فيه سكان الجزر الملاحون الفقراء، كان هؤلاء يجدون أنفسهم في دورهم مهملين على أعتاب زمن جديد وقد هدد وحدتهم وبساطتهم القديمتين تهديداً واضحاً ازدهار الحمامات البحرية في هذه الجزيرة، لأنهم يلاحظون في ضيوفهم الغرباء شيئاً جديداً كل يوم لا يعرفون كيف يتمثلونه في طريقة عيشهم القديمة. وعندما يجلسون مساءً أمام النوافذ المضاءة في قاعة اجتماع فندق الحمامات ويتأملون التجارة بين السادة والسيدات وذلك التبادل في النظرات المبين والغمزات ذات الرغبات السرية والرقص الفاجر وجشع المقامرين والغداءات المترفة الخ. . . الخ. . . فليس غريباً أن يلهب مثل هذا المشهد في أولئك الرجال غرائز مشئومة وأن يقود إلى نتائج مزعجة. وهذه النتائج لا تعوِّض عنها قط المنافع المالية التي تعود بها عليهم وجود الحمامات الصحية، لأن المال الذي يربحونه لا يكفي لإرضاء الحاجات الجديدة التي تتسرّب إلى بيوتهم. وهكذا يحدث في كيانهم اضطراب عميق وإثارة ضارة وألم عنيف. عندما كنت غلاماً صغيراً كنت أشعر دائماً برغبات محرقة عندما أرى الطباخين يمرون أمامي وهم يحملون في صحاف مكشوفة الأطعمة الشهية اللذيذة وليس لي فيها نصيب. وبعد ذلك ظلّ هذا الشعور يخزني بإبرة عندما أرى أمامي النساء الساحرات يمررن كاشفات عن نحورهن ويتنزهن مثل آلهات (الأولمب). وأنا الآن أشعر أن سكان الجزيرة هؤلاء الذين ما يزالون يعيشون عيشة الطفولة يشعرون غالباً بمثل هذه المشاعر حتى إن من المستحسن أن يغطي مالكو الأطعمة الفاخرة والنساء الجميلات تغطية أكثر عناية عندما يعرضونها على أنظار هذه المجموعة البريئة من الناس. ما أكثر الفواكه والحلويات التي لا يستطيع الفقراء من الناس إلّا النظر إليها بعيونهم، رغم أنها تثير شهوتهم وعندما تشعر نساء البحارة الطيبات بكل أنواع الرغبات اللذيذة في خلال حملهن ثم يضعن أطفالاً يشبهون شبهاً خاصاً المستحمين في الموسم، فلا يجوز أن تعجب من مثل هذه

الحوادث. لست أريد على الاطلاق هنا أن أشير إلى إمكان وجود علاقات لا أخلاقية. كلا، إن فضيلة نساء البحارة تضمنها سلفاً بشاعتهن ورائحة الأسماك عليهن على الخصوص، وهي رائحة كانت بالنسبة لي على الأقل لا تُحتَمل. وإذا رأينا أطفالهن أحياناً يأتون وهم يحملون وجوهاً مثل وجوه المستحمين، فأنا أرى في ذلك حادثة نفسية. وأقرّ ذلك بقوانين مادية وروحانية شرحها (غوته) شرحاً وافياً في كتابه (الأنساب المختارة).

إنه لأمر ملاحظ: ما أشد ما تستطيع الحوادث الغامضة في الطبيعة أن تفسّر نفسها بالاستناد إلى القوانين التي تحدثت عنها. في السنة الماضية عندما ألقتني العاصفة على جزيرة أخرى في (فريز) الشرقية لاحظت في كوخ أحد أصحاب المراكب لوحة خبيثة معلّقة على الحائط عنوانها «غواية العجوز»، كانت تمثل إنساناً طيباً أبيض الشعر أزعجه في دراسته ظهور امرأة تخرج من غيمة عارية الأوراك، ويا لغرابة الظروف، رأيت ابنة صاحب المركب ذات وجه شهواني مثل وجه المرأة صاحبة الصورة. سأذكر مثالاً آخر من النوع نفسه: في منزل مصرفي، كانت فيه زوجة المدير تمسك الحسابات بنفسها وتنظر في دقة كاملة إلى نقوش العملة وجدت أن الأطفال يشابهون مشابهة عجيبة أكابر ملوك أوروبا، وعندما كانوا يجتمعون ويتخاصمون اعتقدت أني أرى مؤتمراً صغيراً.

وهكذا لم يكن نقش العملات مسألة لا معنى لها عند رجال الدولة. ذلك أن الناس يحنون إلى المال حنيناً خاصاً ويتأملونه في عطف خاص، والأطفال يأخذون غالباً ملامح الملك الذي تُضرَب صورته على الطرغاء. ويا للأمير المسكين حين يوضع موضع الشبهة في أنه والد أحد أتباعه ورعاياه. وقد كان ملوك أسرة (بوربون) على حق عندما أمروا بصهر عملة (نابوليون) فقد أرادوا ألّا يروا بين الفرنسيين رؤوساً نابوليونية. إن بروسيا هي أكثر الدول تقدماً في سياسة صك العملات، فقد صنعوها، بوضع خلط مصيب للنحاس، في شكل يتيح لخدود الملك في العملات الجديدة أن تصبح فوراً حمراء، وهذا السبب هو الذي جعل الأطفال منذ زمن، في بروسيا يبدون في صحة وهيئة حسنة أكثر من ذي قبل، حتى إنك لتشعر بفرح حقيقي حين ترى وجوههم الصغيرة ناضرة زاهية.

وأنا حين أذكر التفسخ الأخلاقي الذي يهدد سكان هذه الجزيرة لزمت الصمت ولم اتحدث عن السيد الروحي الذي يمتلكونه ضد الشر يعني لم أذكر كنيستهم. ما هو مظهرها؟ لست أستطيع ذكر ذلك في دقة لأني حتى الآن لم أطأها

بقدمي. يشهد الله أني مسيحي طيب، وأني طالما كنت على أهبة زيارة بيته، ثم أرى نفسي مجبراً على التخلي عن هذا العزم. يوجد في طريقي إليها بعض الثرثارين الذين يوقفونني، وعندما أصل مرة إلى باب المعبد تحدث لي شقاوتي تماماً هناك بعض الأفكار المسلية، وتعصف في رأسي بعض الاضاحيك الكبيرة، وفي مثل هذا الوضع الفكري أرى شيئاً غير مناسب، إنْ لم يكن إثمًا أن أدخل إلى الكنيسة. يوم الأحد الماضي تذكرت دون أن أعرف لذلك سبباً بعض المقاطع الواردة في (فوست) لـ(غوته)، ذلك المقطع الذي يمر به (فوست) مع (ميفيستوفيل) أمام صليب فيسأله:

«ميفيستوهل أنت مستعجل
لماذا تغضّ عينيك أمام الصليب؟»
ويجيبه ميفستوفيل:
«أعرف أن هذا الرأي لا برهان عليه
ولكنه شيء أقوى مني، أشمئز منه».

إن هذه الأبيات لم تُطبَع ـ فيما أعلم ـ في أية طبعة لفوست ولا يعرفها إلاّ المرحوم مستشار بلاط (موريتز) الذي قرأها في مخطوطة (غوته) والذي نقلها إلى رواية (فيليب ريزر) وهذه الرواية التي أصابها النسيان تماماً تضم تاريخ المؤلف، أو على الصحيح تاريخ بضع مئات من(التاليرات) التي ليس يملكها والتي سبب فقدانه لها أن أصبحت حياته كلها سلسلة من الحرمان والشظف. ومع ذلك فقد كانت مطامح هذا الإنسان الشقي أكثر من متواضعة فقد أراد، وهو ما يزال شاباً أن يذهب إلى (فيمار) وأن يكون خادماً لمؤلف (فرتر) مهما كانت الشروط في سبيل غاية واحدة هو أن يعيش في جوار ذلك الرجل الذي كان من بين الناس جميعاً في الأرض، هو الذي أثّر في روحه أكبر الأثر وأعظم الانطباع.

شيء غريب، حتى في ذلك العصر أثار (غوته) مثل هذه الحماسة. ومع ذلك فليس إلاّ الجيل الثالث الذي وجد نفسه في وضع يفهم فيه عظمة (غوته) الحقيقية. ولكن هذا الجيل أنتج في الوقت نفسه رجالاً ذوي قلوب لا ينبثق منها غير الماء العفن، والذين، نتيجة لذلك يريدون أيضاً أن يسدوا ويجففوا في قلوب الناس كل الينابيع الدافقة بدم جديد فتي، إنهم أناس ذوو مشاعر وأفراح خامدة يفترون على الحياة ويشوهونها ويبحثون عن إثارة اشمئزاز الناس الآخرين من كل ما في هذا العالم من فخامة وعظمة. وهم لذلك يرسمون الأفراح الأرضية وكأنها

صحاف نضدتها روح الشر لتغوينا مثل ربة بيت تعرض خلال غيابها علبة السكر مع بعض قطع السكر المحسوبة عدداً تماماً لكي تتحقق من أمانة الخادمة . . . . . .

. . . .

الآن هجر كل المستحمين الجزيرة. هدير البحر يملأ أذني دون هوادة، وتهب ريح شمالية شرقية شديدة. والساحرات يدبرن دون شك مقالب خبيثة. ويقصّ الناس هنا أساطير غريبة عن الساحرات اللواتي يعرفن إثارة العاصفة، وتسود كثير من الخرافات هذه المناطق من بحر الشمال. يزعم البحارة أن كثيراً من الجزر تقع تحت سيطرة الساحرات السرية. وإلى خبثهن تُنسَب كثير من الكوارث والنكبات التي تحلّ بالمراكب المبحرة في هذه الشواطىء. وفي السنة الماضية عندما كنت في البحر بعض الوقت قصّ عليّ ربان سفينتنا أن الساحرات ذوات قوة وسيطرة على جزيرة (وايت) على الخصوص، وأنهن إذا أراد أحد المراكب اجتياز الجزيرة في النهار يحاولن الإمساك به حتى المساء لكي يغرق على السدود أو ليرمين به على الأرصفة في ظلام الليل وعندئذٍ، وخلال الليل يسمع الناس الساحرات وهن يجتزن الهواء في ضجة ويزعقن زعقات حول المركب الذي يتوقف ويتجمد في شكل مخيف، حتى إن مركب (خابوترمان) نفسه لم يستطع إلاّ في عناء كبير مقاومة حيلة العصابة المنفلتة. وعندما سألت «ما هو (خلابوترمان) قصّ عليّ محدثي في لهجة جدية جداً «إنه سيد المراكب الطيب الذي لا يرى، والذي يصون البحارة الشرفاء الرزناء من الوقوع في الكوارث. وهو ينظر بعينيه في كل مكان إذا كانت الأمور تجري على ما يرام، وهو يهتم بتأمين عبور سعيد للمراكب». والبحار الذي أدين له بهذه المعلومات أضاف في صوت سرّي «يمكن أن تسمعه أنت تماماً في جوف المركب فهو هناك يهتم بوسق البضائع ورصّها، وهذا ما يسبب قلقلة البراميل والطرود، وعندما يكون البحر هائجاً فهو الذي يحدث الضجة الصماء التي تصدرها الألواح وعوارض غاطس السفينة، وقد يضرب (خلابوترمان) ضربات بالمطرقة خارج السفينة، وذلك لتنبيه البحار ليمضي دون إبطاء فيصلح بعض الألواح المتضررة، ولكنه يجب على الخصوص أن يجثم على صاري السفينة لكي يدلّ البحارة على أن ريحاً ملائمة تهبّ أو سوف تهبّ عن قريب». وعندما سألته هل تمكن رؤية (خلابو ترمان) هذا أجاب البحار: «كلا إنه لا يُرَى وما من أحد يريد رؤيته لأنه لا يبدو إلاّ في اللحظة التي لا يكون فيها وسيلة واحدة للنجاة». واعترف الرجل الباسل، أنه في الحق، لم يقع في مثل هذه الحالة، ولكنه ادّعى أنه يعرف من أفواه بعض زملائه أنهم سمعوا (خلابو

ترمان) وهو يتكلم من أعلى الصارية، إلى ملائكة المياه الذين يخضعون له، وأنه في اللحظة التي تصبح فيها العاصفة شديدة جداً، ويصبح الغرق أمراً لا مناص منه، يقف على عريشة دفة المركب وعندئذٍ فقط يظهر لعيون الركاب، ثم يختفي وهو يكسرها ألف شظية، وأضاف البحار أن الذين يرونه في هذه اللحظة الرهيبة لا بدّ أن يلاقوا الموت فوراً في عباب الأمواج.

ربان السفينة الذي سمع هذه الأخبار بدأ يبتسم في خبث وفي شكل أكثر نعومة مما كنت أظنه قادراً عليه إذا حسبنا حساب وجهه القاسي الذي لوّحته الشمس والبحر، وقد أكّد لي أن الاعتقاد بوجود (خلابو ترمان) كان شديداً جداً منذ خمسين سنة في البحر وأنهم كانوا يضعون له على المائدة صحوناً خاصة عندما يحين وقت الطعام. بل إنهم ربما قاموا بحركات لتقديم بعض الأطعمة المفضلة، بل إنهم في بعض المراكب ما يزالون يمارسون هذه الأعمال حتى اليوم.

أتنزه غالباً هنا على شاطىء البحر وأفكر في هذه الحكايات العجيبة التي يتناقلها البحارة من جيل إلى جيل. أكثر هذه الحكايات رعباً هي دون شك قصة «الهولندي الطائر» الذي رأوه أثناء العاصفة يهاجم كل الأشرعة ويضع من حين إلى حين زورق نجاة في الماء لكي يحمِّل المراكب التي يصادفها بكل أنواع الرسائل التي لا يدري أصحاب المركب كيف يوصلونها إلى أيدي أصحابها لأنها مرسلة إلى أشخاص أموات منذ زمن بعيد. وكنت أفكر كذلك أحياناً في أسطورة الصياد الشاب وهي أسطورة قديمة ساحرة. كان هذا الصياد يترقب على شاطىء البحر الرقصة المسائية التي ترقصها الحوريات، ثم طاف العالم بعد ذلك يحمل كمانه، ويثير أعصاب الرجال في كل مكان وهو يعزف لهم نشيد (فالس) الحوريات الرائع.

والذي يروعك روعة خاصة هي أن تدور حول الجزيرة. ولكن يجب أن يكون الطقس جميلاً وأن تكون الغيوم وهي تجري تأخذ أشكالاً خيالية، وأن تكون أنت مستلقياً على ظهر المركب لتتأمل السماء كما تهوى، ويجب أيضاً إذا كان ذلك ممكناً أن تضم في قلبك قطعة من السماء. عندئذ تتمتم الأمواج في آذاننا كل ألوان الأغاني الغريبة وكل أنواع الكلمات العجيبة التي تبعث الذكريات العزيزة من مكامنها، وكل أشكال الأسماء التي ترن في أرواحنا أنين المشاعر والنبوءات العذبة ــ«ايفيلينا»ــ ثم تجتاز بنا المراكب ويسلم المسافرون بعضهم على بعض في صداقة كأن عليهم أن يلتقوا كل يوم. ولكن هناك شيء من القلق عندما تصادف في البحر وفي الليل مراكب أجنبية. تتصور آنذاك أنك ترى هنالك أحسن أصدقائك

يمرون صامتين. لقد فارقتهم من أمد بعيد ولكنك الآن يخيل إليك أنك تضيعهم إلى الأبد.

أحب البحر كما أحب روحي.

يخَيّل إليّ غالباً أن البحر هو حقاً روحي. الواقع أن فيها، مثلما في البحر نباتاتٌ مائية مختبئة تطفو على السطح عندما تتفتح وتزدهر، وتختفي من جديد عندما تذبل وتغيض هكذا تبدو أحياناً من أعماق روحي صور عجيبة للأزهار، أزهار ذات عيون زرقاء وشفاه قرمزية، زنبقة طهر ووردة جمال، تنثر عطورها ثم تختفي من جديد.

ايفيلينا

يقولون، إنه كان في الزمن الماضي غير بعيد عن الجزيرة، حيث لا يوجد شيء اليوم غير الماء، أجمل المدن والقرى، ولكن الماء أغرقها كلها فجأة، وأن أصحاب المراكب ما يزالون يرون الآن في الأوقات الهادئة الصافية السهام اللامعة في الكنائس الغارقة في الأمواج وأكثر من واحد ادّعى أنه يسمع في صباح الآحاد قرع الأجراس التقي. الأسطورة صحيحة، ذلك لأن البحر روحي، وأستطيع أن أردد ما قاله صديقي (موللر):

هناك يغرق عالم ساحر
ظلّت الأطلال قائمة في الأعماق
وهي تظهر غالباً في مرآة أحلامي
كأنها شرارات ذهب عجيبة.

وأحياناً أسمع وأنا أستيقظ قرعات جرس بعيدة وأغاني مقدسة واسم «ايفيلينا».

عندما تتنزه على الشاطىء فإن المراكب التي تمر تمثل منظراً ساحراً، إنها، بأشرعتها البيض المشرعة تعطي صورة بجعات ضخمة سابحة في الماء وهذا المنظر أكثر روعة عندما تغرب الشمس وراء المركب المبحر فيبدو المركب وكأنه هالة في السماء.

إن الصيد على طول الشاطىء متعة كبيرة كما يقولون، ولست مع ذلك ممن

يقدرونه حق قدره. إن الإنسان يمكن أن يكتسب الشعور بالنبل وبالجميل وبالخير ولكن تذوق الصيد صفة وراثية كامنة في الدم. إذا كان أجداد أسرة من الأسر جذبتهم من أزمنة بعيدة الرغبة في صيد الظباء والأيائل وغيرهما من الحيوانات المسكينة فإن حفيدهم يجد اللذة في هذه المهمة النبيلة. وبما أن أجدادي لم يكونوا في عداد هؤلاء الصيادين فإن دمي يفور ويغلي عندما يجب عليّ أن أرمي زملاء أجدادي وآبائي، وأنا أعرف بتجربتي التي كسبتها على الأرض أنني، عند اللزوم، يكلفني كلفة يسيرة أن أرمي صياداً قادراً على الأسف على الأزمنة التي كان فيها الناس أنفسهم جزءاً من التسليات للطبقات الرفيعة. لقد مضت هذه الأزمنة والحمد لله. وإذا كان بعض أمثال هؤلاء الوصوليين تأخذهم الرغبة في اصطياد إنسان، فهم مضطرون إلى دفع ثمنه، كما كان عليهم أن يفعلوا ذلك بالنسبة إلى المتشرد الذي رأيته في (غوتينغ) منذ سنتين. لقد كان هذا الشيطان الخبيث تعباً من كثرة ما مشى في الحرارة الخانقة في يوم أحد عندما مرّ بعض الشباب المهذبين من هانوفر يدرسون العلوم الإنسانية في جامعة (غوتينغ) وقدّموا له بعض الدريهمات ليدعوه إلى قطع الطريق، التي قطعها من قبل، مرة أخرى. كان الشرط قاسياً، ولكن الرجل كان فقيراً. وركض الرجل. كان أصفر مثل الموت، يلبس سترة حمراء وكان الشباب النبلاء يجرون وراءه في عاصفة من الغبار، وكانوا يتمتعون بغذاء جيد، ويشعّون رضاً وهم يمتطون خيولاً باهرة. تصل حوافرها أحياناً إلى ذلك الرجل المطارد اللاهث. ولقد كان إنساناً.

على سبيل التجربة لأن من واجبي أن أدرِّب على الحرب دمي العامي البارد ذهبت أمس إلى الصيد. أطلقت النار على بعض النوارس التي كانت تطير قربي في كثير من الثقة والطمأنينة لأن هذه الحمقاوات لا يمكن أن تعرف معرفة موضوعية أني صياد سيء. لم أكن أريد إصابتها، كنت أريد فقط أن يكنّ مرة أخرى أكثر حذراً من الرجال المسلحين بالبنادق، ولكن طلقتي خيبت ظني وهكذا وقعت في مصيبة قتل نورس فتي. ويا لسعادتي لأنه لم يكن عجوزاً فماذا يحدث بالنوارس الصغيرة المسكينة، العريانة، الضعيفة التي لم تزل ترقد في أعشاشها الرملية على السد الكبير، والتي تموت من الجوع إذا فقدت أمها. وأحسست سلفاً بأنني سأصاب بمصيبة في الصيد، فقد اجتاز بي أرنب وقطع طريقي.

شعرت على الخصوص بعواطف غريبة عندما كنت أتنزه وحدي في غسق المساء على طول الشاطىء ووراثي الشاطىء الذي تقطعه السدود، وأمامي البحر

المزبد الواسع وفوق رأسي السماء وكأنها قبة ضخمة من البلور. وبدوت عندئذ لنفسي صغيراً مثل نملة، ومع ذلك فقد امتدت روحي وأصبحت واسعة كالعالم. إن البساطة الرفيعة في الطبيعة، كما كانت تحيط بي هنا تملكتني وسمت بي في آنٍ واحد في شكل قوي جداً لم أشعر بمثله في كل محيط عظيم. أبداً لم تكن كاتدرائية ولا كنيسة في مثل هذه السعة عندي، إن روحي بصلاة (تيتان) القديمة اندفعت في الفضاء.

اكوّم الصخور في قمة جبل (روستراب) التي تحيط بي في جماعات جديدة فرضت عليّ إجلالها من أول وهلة نظرت فيها إليها، ولكن هذا الانطباع لم يستمر أمداً طويلاً فقد كانت روحي أكثر شعوراً بالمفاجأة بدل أن يستولي عليها هذا المنظر. وبدأت هذه الأكوام الهائلة من الصخور تنكمش إلى حد بعيد تحت عيني حتى إنها بدت لي أخيراً وكأنها خرائب قصر عتيق لو أن روحي سكنته يوماً لوجدت نفسها في شدة وضيق.

عندما كنت أتجول ليلاً على شاطىء البحر أصغي إلى نشيد الأمواج الذي يوقظ في نفسي كل أنواع الذكريات والمشاعر، يخُيّل إليّ أني كنت فيها مضى قائماً على مرتفع سماوي، تحيط فيه روحي بكل ما في الماضي من معارف، وأني اصبت بالدوار والرعب فسقطت على الأرض. أعتقد أنني أتذكر أيضاً أني في مثل هذه الأوقات تصبح عيناي ثاقبتين جداً ونافذتين جداً حتى أني أستطيع أن أرى النجوم تسير في عظمة طبيعية على مدى قبة السماء، وأني أحياناً يبهرني هذا الضياء المنير الذي يدور. وعندئذٍ تنبثق في فكري، كأنما هي قادمة من أعماق القرون كل أنواع الأفكار، أفكار الحكمة البدائية الكاشفة للغيب، ولكنها أفكار سديمية مختلطة لا أستطيع أن أعرف ما تريد أن تقوله لي. ولكني أعرف فقط أن كل علمنا الانساني وكل طموحاتنا وجهودنا تبدو في عيون الفكر الأسمى جد صغيرة وجد تافهة مثل ذلك العنكبوت الذي طالما راقبته في مكتبة (غوتينغ). في مخطوطة للتاريخ العالمي كان العنكبوت يعشش وهو ينسج بيته في دقة، وينظر إلى ما حوله في اطمئنان فلسفي، في كل وقار أساتذة الجامعة الوراثي، كما كان فخوراً بمعلوماته الرياضية وأعماله العلمية وإخفاقاته الفردية. ومع ذلك فهو لا يعرف شيئاً عن العجائب المختزنة في الكتاب الذي ولد فوقه، والذي قضى عليه حياته كلها والذي سوف يموت فوقه لولا أن العجوز (شتيفل). خازن الكتب جاءه يوماً في خطوات حذرة لخطى الذئب ثم هاجمه وأمسك به فجأة وطرده من مملكته.

أحد العلماء الكبار في الآثار الجرمانية وكان موجوداً في حمامات (نوردرني) زعم أنهم مارسوا في هذه المنطقة دين (هرتا) أو على الصحيح (فورسيت) الذي تحدث عنه (تاسيت) في نحو غامض. شريطة ألا يكون المراسلون القدماء للصحف الرومانية الذين أخذ عنهم (تاسيت) هذه القصة لم يخْدَعوا عندما حسبوا مصادفة أن عجلة أحد المستحمين هي عجلة «الإلهة» المقدسة!

إن عجلات مؤسسة الحمامات، هذه العربات في بحر الشمال، لا تمضي هنا إلّا إلى شاطىء المياه، وتتكون غالباً من أربعة أوتاد من الخشب مغطاة بقماش مشمع، وهي اليوم، في فصل الشتاء، توضع في القاعات وتتحدث دون شك فيما بينها أحاديث جافة متأنقة، مثل أحاديث العالم الجميل الذي كان يقولها وما يزال في هذه القاعات.

وعندما قلت العالم الجميل فأنا لا أعني مطلقاً بهذا الاسم البرجوازيين الطيبين في (فريز) الشرقية، هذا الشعب الذي هو نثري مثل الأرض التي يسكنها ولا يعرف لا الغناء ولا الزقزقة، والذي يمتلك مع ذلك موهبة سامية في كل أوزان الشعر، وهي موهبة تشرِّف الإنسان وترفعه فوق مستوى الناس العاديين والمتطرفين الذين يتصورون أنهم وحدهم نبلاء، أريد أن أقول موهبة الحرية: إن سكان (فريز) كانوا دائماً أحراراً إذا استثنينا العهد الذي ساد فيه الرؤساء الوراثيون. ولم تستطع الأرستقراطية السيطرة على (فريز) وفي كل الأزمنة سكن عدد قليل من الأسر النبيلة هذه البلاد وكان تأثير الطبقة النبيلة من (هانوفر) وهي الطبقة التي انتشرت عقلياً هنالك بفضل الوظائف العسكرية والإدارية التي وضعت بين أيديها، كان هذا التأثير يحزن أكثر من قلب حر في (فريز).

إن الشكاوى العامة التي ارتفعت في معارضة الكبرياء النبيلة في أرستقراطية (هانوفر) تتعلّق على الخصوص ببعض الشباب الظرفاء في بعض الأسر التي تحكم بلاد (هانوفر) أو التي تعتقد على أقل تقدير أنها تحكمها في شكل غير مباشر. ولكن هؤلاء الشباب النبلاء سرعان ما أصلحوا ما في عرقهم من نقائص عندما تمتعوا بتربية أكثر صلاحاً وتعلموا قليلاً ما يجري في الشعوب الأخرى. كانوا يرسلونهم إلى (غوتينغ) ولكنهم كانوا يحبسون أنفسهم في دائرتهم الأرستقراطية ولا يتحدثون إلّا عن كلابهم وخيولهم وأسلافهم وكانوا قلما يحضرون دروس التاريخ الحديث وعندما يحضرونها كانت عقولهم ذاهلة مأخوذة بمنظر «مائدة الكونتات» هذه المائدة الموضوعة جانباً والمخصصة فقط للطلاب ذوي الأصل الرفيع. مائدة الكونتات هذه

تجسّد تماماً الفكر العبري في جامعة (غوتينغ). نعم إن تربية حسنة لشباب (هانوفر) كان يمكن أن تقلّم براثنهم. ولكن الشباب أصبحوا كالشيوخ: الصلف نفسه، والجنون نفسه، الرغبة في تغطية عدم الكفاءة الشخصية بكفاءة الأجداد، الذين كانوا يدينون برفعتهم على الخصوص في بلاد (هانوفر) إلى انحطاط الخطايا عندهم ودعارة زوجاتهم النبيلات، وهنّ حظايا فاجرات مثل (شولا نبورغ) و(كيلمنسيج) و(بلاتان) وزمرهن. عدد قليل من هؤلاء الشبان الذين يفخرون بأشجار نسبهم ليسوا في حالة تمكنهم من تحديد ما فعله أسلافهم من خير وشرف، ويكتفون بالاشارة إلى أن أسماءهم مكتوبة في كتاب المسابقات لـ(روكسنر). لو أن لنا بدلاً من الألياذة قائمة بأسماء الأبطال الذين عسكروا أمام (طروادة) ولو أن واحداً أو أكثر من هذه الأسماء ما يزال موجوداً حتى اليوم، فما أكثر ما تنتفخ الغطرسة النبيلة في سادة (تيرسيت). أمّا مسألة صفاء الدم فلا أريد أن أتحدث عنها مطلقاً، فالفلاسفة وسائسو الخيول لهم في هذا الموضوع طرائف وأفكار مضحكة.

في تلك السنة كان هناك أيضاً أشخاص من الأمراء، ولكن من واجبي أن أعترف أن أصحاب السمو هؤلاء كانوا في دعاواهم أكثر تواضعاً من الطبقة النبيلة التي هي أدنى من طبقتهم. أمّا أن أقرر ما إذا كان هذا التواضع قائماً في قلوب هؤلاء الأمراء أو أنه نتيجة لإخفاقهم وسوء أوضاعهم الحالية فذلك ما لا أستطيع أن أجزم فيه برأيي. وأنا لا أقول هذا إلاّ بالنسبة إلى الأمراء الألمان الأوساط، لقد أسيء في الأوقات الأخيرة إلى هؤلاء التعساء إساءة بالغة عندما جرّدوهم من سلطة لهم الحق فيها مثل الأمراء الآخرين الذين هم أكثر منهم سيطرة، إلاّ إذا كنا لا نريد أن نقبل من السلطة إلاّ ما يستطيع كل فرد أن يتمسك به منها بقوته الخاصة.

ولكن من الخير في ألمانيا المقسمة هذا التقسيم العنيف أن نرى عدداً كبيراً من هؤلاء الطغاة الصغار وقد أجبروا على التخلي عن تيجانهم الصغيرة. إن عدد الأمراء الحكام الذين بقوا لنا فيه الكفاية بل ما يزال كبيراً، ولست أفهم كيف يستطيع أهلي من الألمان الفقراء أن يطعموا كل هذه الطغمة من الأمراء. وآمل أن تخلصنا أميركا ذات يوم، على الأقل من جزء من هذا العبء الثقيل. لأن رؤساء الدول الحرة هناك سيتحولون دون شك عاجلاً أو آجلاً إلى حكام أو ملوك وعندئذ سينقص هؤلاء السادة زوجات يلبسن مقدماً ألبسة مصبوغة بصباغ شرعي، وسيكونون مسرورين إذا تخلّينا لهم عن عدد من أميراتنا. ونحن أبعد ما نكون عن معارضة هذا التدبير، بل نحن مستعدون لإعطائهم أميرة سابعة مجاناً لقاء كل ست

أميرات يدفعون أثمانهن، ثم إن أمراءنا الصغار يستطيعون أن يجدوا لهم وظيفة عند بنات هؤلاء الملوك في امريكا، ولهذا السبب كان رد فعل أمراء ألمانيا الأوساط جد حذر، وهم يحتفظون لهم على الأقل بحق المساواة في الدرجة بالنسبة إلى الولادة وفي نطاق النظام الاجتماعي للأسر المالكة في أوروبا إذا لم يتحقق ذلك في النظام السياسي للسيادة الفعلية وهم في ذلك أكفاء الأمراء الحكام. نعم لقد احتفظوا لأنفسهم بهذه الميزة لأنهم يعرفون أن ألمانيا كانت دائمًا أكبر حارس للأمراء، ولكن قدرها الآن أن تزوّد كل البيوت الحاكمة التي تجاورها. بالعدد اللازم من الخيول والمهاميز من أحسن طراز.

في كل مكان من الحمامات ذات المياه المعدنية يحق عادة للسياح الباقين أن ينتقدوا في لباقة السياح الذين سافروا، وبما أني كنت آخر مِنْ بقي هنا فلهذا أرجو السماح لي بممارسة هذا الحق في أقصى مداه . . . .

ولكن الجزيرة أصبحت الآن خالية مقفرة حتى خيل إلّي أني وحيد، مثل نابوليون في جزيرة (سانت هيلانة) ومع ذلك فقد وجدت هنا موضوعاً للتسلية لم يظفر به نابوليون في وحدته. لأن ما شغلني هي الأقاصيص التي تُروَى عن الأمبراطور الكبير نفسه. أعطاني شاب انكليزي كتاب الرائد (ميتلاند) الذي نُشِر حديثاً. هذا البحار يقصّ في تفصيل كيف لجأ نابوليون إليه وكيف تصرّف على ظهر السفينة (بيلرفون) حتى اليوم الذي أمرت فيه الوزارة الانكليزية بنقله إلى ظهر السفينة (نورتومبرلاند). ونستنتج من هذا الكتاب استنتاجاً واضحاً مثل الشمس أن الأمبراطور بثقته الرومانطيقية بكرم بريطانيا العظمى قد أحيته الرغبة أخيراً في أن يهب الراحة للعالم فاستسلم للأنكليز ضيفاً أكثر مما استسلم لهم أسيراً. إنها غلطة لا يمكن أن يقع فيها أحد ولا سيما إذا كان في الانكليز مثل الفيلد ــ مارشال (ولانغتون)، ولكن التاريخ ذكر أن هذه الغلطة كانت جميلة جداً ورائعة جداً ورفيعة جداً ولكي يقع فيها نابوليون كان عليه أن يكون متمتعاً بعظمة روحية لا نستطيع نحن الوصول إليها في حادثة من حوادثنا العظيمة.

إن سبب نشر الرائد (ميتلاند) لكتابه اليوم لا يبدو إلاّ في حاجته إلى غسل نفسه أخلاقياً وهي حاجة يشعر به كل رجل شريف يقوده حظه العاثر إلى الوقوع في مثل هذه القضية. إن الكتاب ــ في حد ذاته ــ وثيقة ثمينة عن قصة أسر

نابوليون ونفيه، وهي قصة كانت آخر فصل في حياته، فصل يفسِّر تفسيراً رائعاً كل ما في الفصول السابقة من ألغاز وأسرار، وهي كما ينبغي أن تفعل كل كارثة ترقق الروح وتطهِّرها وتصلحها.

إن الفروق في الطبع بين الكتاب الأربعة الذين ينقلون إليه مرحلة هذا النفي، ولا سيما هذه الفروق التي تظهر في الأسلوب وفي الحكم على الوقائع وتقديرها تبدو في المقارنة بينها.

(ميتلاند) البحار الانكليزي البارد الأعصاب يدوِّن الوقائع دون تزيد وفي دقة كأنما يدوِّن وقائع الطقس فوق كتاب (لوش) في مركبه. (لاس كاس) الحاجب المتحمس يضع نفسه في كل حرف يكتبه على أقدام الامبراطور ليس مثل (موجيك) روسي ولكن مثل فرنسي حر يضطره إعجابه بالعظمة البطولية وإجلاله لمجد عاثر إلى ثني ركبتيه دون إرادة. (أوميرا) الطبيب الأرلندي المولد، الأنكليزي تماماً في أعماقه، وهو في ذلك عدو قديم لنابوليون، ولكنه يعترف بالحقوق الواجبة في الشقاء يكتب في صدق، دون فن، في قوة الواقع وحدها، في أسلوب يكاد يكون موجزاً مقتضباً. وعلى عكس ذلك كانت الطريقة الحادة الواخذة التي وصف فيها الطبيب الفرنسي (آنطو مارش) هذا المنفى، وهو طبيب ولد في ايطاليا وأُشرِب روح الغضب والشعر في مسقط رأسه. لم يكن هذا أسلوباً ولكنه كان خنجراً، مسبر جرّاح.

إن الشعبين الفرنسي والانكليزي قدّما، كل واحد من جانبه، رجلين ذوي عقل عادي ولكنه عقل لم تفسِّخه السلطة الحاكمة، وهذان المحلفان حكما على الأمبراطور، وكان حكمهما أنه «خالد، يستحق الإعجاب إلى الأبد، والأسف إلى الأبد».

لقد مرّ كثير من الرجال العظام على هذه الأرض، ونحن نرى هنا وهناك آثار أقدامهم اللامعة وفي الساعات العصيبة يظهرون في روحنا كأنهم صور ضبابية؛ ولكن الرجل العظيم يرى في وضوح أكبر أسلافه العظماء. وهو في الشرارات التي بقيت من خطواتهم المنيرة يدرك أكثر أعمالهم سراً وكتماناً: وكلمة واحدة من تراثهم تكشف له كل ثنايا قلوبهم. هكذا يعيش الرجال العظماء في كل العصور في صداقة حميمة سرية، إنهم يحيي بعضهم بعضاً فوق العصور ويتبادلون نظرات ذات مغزى وتتلاقى عيونهم على قبور الأجيال الذين يتزاحمون ويتعجلون خلال الأزمان التي تفصلهم عنهم، وهم يتفاهمون ويتحابون. أمّا نحن الصغار الذين لا نستطيع

رؤية العلاقات الحميمة بين عظماء الرجال في الماضي، ولا نرى منهم إلّا نادراً رؤى وأشكالاً ضبابية فمما لا يُقدَّر بثمن أن نتعلم من أحد هؤلاء العمالقة ما يكفي من الأمور لكي يكون من السهل علينا أن ندركه ونفهمه بكل ما في عظمته في أعماق روحنا وعندئذ تتسع روحنا بهذا الفهم. ونابوليون بونابرت هو بالنسبة إلينا أحد هؤلاء الرجال. نعرف عنه وعن حياته وعن أعماله أكثر مما نعرفه عن سواه من عظماء الرجال فوق الأرض، ونحن نعرف كل يوم عنه أكثر مما كنا نعرفه. لقد رأينا بأعيننا كيف يُنبَش في بطء هذا التمثال الخالد المدفون، وفي كل ضربة رفش تجرف التراب الأرضي عنه وتنقذه تزداد دهشتنا الفرحة في أبعاد وعظمة الصفات النبيلة التي تتكشّف، وصواعق أعدائه الذين يريدون أن يشوِّهوا هذا الوجه العظيم ولكنهم يزيدونه لألاء وإشراقاً يوماً بعد يوم. وهذا ما حدث للسيدة (ستايل) التي لم تقل في كل نزقها وحدتها شيئاً آخر اللهمّ إلّا أن الامبراطور لم يكن إلّا إنساناً مثل سائر الناس وأن فكره لا يمكن أن يُكتنَه ويُسبَر في أي مقياس من المقاييس العادية.

عن مثل هذا الفكر أراد (كانت) أن يتحدث عندما ذكر أننا لا نستطيع أن نتصور ذكاء ليس مثل ذكائنا، ذكاء ذا طبيعة استدلالية منطقية، ولكنها جد حَدْسية، تنتقل من مرحلة التعميم التركيبي، من تأمل الكلي إلى تحليل الجزئي. إذنْ فإن ما لا ندركه إلّا بتحليلات التفكير الطويلة وبعد سلسلة كاملة من النتائج، هذا الفكر واجهه واستطاع الإحاطة به تماماً في اللحظة نفسها. ومن هنا تلك الموهبة التي كانت له في فهم عصره في مداعبة فكره، في أن يمتنع عن تجريحه كثيراً أو في أن يضعه رهن خدمته دائمًا.

وبما أن فكر هذا العصر لم يكن ثورياً فحسب، بل كان مكوّناً من تسابق فكرين اثنين متعارضين، فكر الثورة، وفكر الثورة المضادة فإن نابوليون بونابرت لم يتصرّف تماماً كثوري كامل، ولا كمضادٍ للثورة كامل، ولكنه كان دائمًا في مجرى الفكرين معاً، المبدأين معاً، النزعتين معاً، وقد كانت كلها مجتمعة فيه. إن عمله كان دائمًا بسيطاً وعظيمًا لم يكن قط يتصرّف في قسوة متشنجة، ولكن في هدوء مثل هدوء الطبيعة. وكذلك لم يكن يمكر أبداً في تفصيلات، ولكن ضرباته كانت دائمًا تُدار في فن فهم الجماهير وقيادتها. إن العقول الصغيرة التحليلية هي التي تنزع إلى المكائد المختلطة البطيئة، أمّا العقول التركيبية والحَدْسية فتعرف في شكل هائل كيف تنسق الوسائل التي قدمها لها الحاضر في طريقة تستطيع بها أن تستفيد منها فوراً في

سبيل غايتها. أصحاب العقول الأولى يخفقون غالباً لأن أي حذرٍ إنساني لا يمكن أن يتنبأ بكل مصادفات الحياة ولأن الظروف ليس لها ثبات طويل واستمـرار. الرجال الحَذِسيون البدهيون على عكس ذلك ينجحون في مشروعاتهم في سهولة لأنهم ليسوا في حاجة إلاّ إلى حساب الحاضر حساباً صحيحاً، ويعملون في سرعة لا يمكن أن تقدرها اللحظة، في مثل حركة أمواج الحياة، لا يقع فيها اختلاف مفاجىء غير متوقع.

إنها لثروة كبيرة لنا أن يعيش نابوليون في عهـد يتمتع بنبوءة خاصـة في التاريخ، وفي البحث عن الوثائق، إنه عن طريق مذكرات المعاصرين لا يبقى لنا إلاّ قليل جداً لكي نعرف نابوليون، وفي كل يوم يزداد عدد الكتابات التاريخية التي تُخصص لتمثيله مهما كانت ذات علاقة بالعالم إنْ قليلاً أو كثيراً. إن الإعلان عن مثل الكتاب الذي خطه قلم (والترسكوت) يثير في النتيجة فضولاً فارغ الصبر.

إن كل المعجبين بـ(سكوت) يضطربون خوفاً عليه، لأن مثل هذا الكتاب يمكن أن يصبح حملة روسيا في ذلك المجد الذي ناله بعد جهد جهيد بفضل سلسلة من الروايات التاريخية التي هزّت كل القلوب في أوروبا بموضوعها أكثر مما هزّته بقوتها الشعرية. إن هذا الموضوع ليس فقط أنّه رثاء على الفخامة الوطنية لايكوسيا التي تتخلّص من أخلاقها رويداً رويداً، عن طريق السيطرة والأفكار الأجنبية، ولكنه الألم الكبير الذي يسببه ضياع الخصائص القوميـة التي تختفي في وحدة الحضارة الحديثة وهو ألم ترتجف له كل شعوب أوروبا، لأن للذكريات القومية في صدور الناس جذوراً أكثر عمقاً مما يظن الظانون على العموم. لنجرب مثلاً نبش التماثيل القديمة وعندئذٍ لا يلبث أن يتفتح الحب القديم بكل ما له من أزهار في ليلة واحدة. إنه ليس وجهاً لغوياً ولكنه واقع حقيقي. عندما نبش (بولوك) منذ عدة سنين وثناً قديماً في (ميكسيكو) رأى في اليوم الثاني أن هذا التمثال الحجري قد كُلِّل بالأزهار خلال الليل. ومع ذلك فقد دمرت (اسبانيا) بالحديد والنار العقائد القديمة في قلوب المكسيكيين، وقامت منذ ثلاثة قرون بتحويل الأرواح وتربيتها وبذرها بالعقائد المسيحية. إن مثل هذه الأزهار تتفتح في كتابات (والتر سكوت). وهذه الكتابات هي التي توقظ العواطف القديمة، وقد حدث في الماضي في غرناطة أن خرج الرجال والنساء من بيوتهم يطلقون صرخات وزعقات يائسة عندما رنّت في الشوارع أغنية دخول الملك المغربي حتى إنه أصبح ممنوعاً، تحت طائلة الحكم بالموت، ترديد هذه الأغنية وكذلك فإن النغمة التي تسود كتابات (سكوت) هزّت

وحيّرت كل العالم في ألم ومرارة. إن هذه النغمة ترنّ في قلوب طبقتنا النبيلة التي تشهد انهيار قصورها وشعاراتها. إنها ترنّ في قلب البرجوازي التي تكتسح حياته الحميمة الضيقة حداثة مدنية غامضة طائشة غير لائقة بـه، إنها تدوّي في الكاتدرائيات الكاثوليكية التي هرب منها الإيمان ومعابد الربانيين اليهود التي يهجرها المؤمنون، إنها ترنّ وتتردد أصداؤها في الأرض جميعاً حتى تصل إلى الغابات ذات الأخشاب العطرة في هندوستان حيث ينعي (البرهمي) وهو يتنهد، احتضار الآلهة وخراب تراثهم ومملكتهم المقدسة ويندب انتصار الانكليز الكامل.

ولكن هذه النغمة، على أنها أقوى النغمات، هذه النغمة التي يضيفها الملتحي الايكوسي إلى قيثارته العظيمة، ليست النغمة التي تلائم أغنية نابوليون الأمبراطورية، الرجل الجديد، رجل الأزمنة الحديثة، الرجل الذي فكر بواسطته الزمن الجديد في كثير من الاشراق، حتى كاد يبهر عيوننا وحتى نسينا طائعين الماضي العاثر وأنواره الخامدة. ربما كان (سكوت) وهو المخلص لما يفضل ويؤثر، أمسك في حرص بالعنصر الراسخ في طبع نابوليون، بالجانب الثوري ــ المضاد في فكره، بينما لم يميز ولم يختر غيره من الكتاب إلاّ المبدأ الثوري فيه.

ولكننا يمكن أن نرسم سلفاً طريقي العبقرية الحقيقية: إنهما خارجان عن كل حساب نقدي. ويمكن أن يُنظَر إلى إصدار حكمي المسبق وكأنه لعبة عقل بريئة، أو على الأصح تنبؤاً اعتباطياً على تاريخ الامبراطور الذي أصدره (والتر سكوت) ولا يمكن لنا أن نقول سلفاً في يقين إلاّ شيئاً واحداً: سيكون الكتاب مقروءاً في انكلترا كما هو مقروء في فرنسا. ونحن الألمان لن نحرم أنفسنا من ترجمته.

لقد ترجمنا أيضاً كتاب (سيجور) أليس هذا الكتاب قصيدة ملحمية غنائية جميلة؟ ونحن الألمان نكتب أيضاً قصائد ملحمية غنائية، ولكن أبطالها ليسوا موجودين إلاّ في خيالنا. أمّا أبطال الملاحم الفرنسية فهم على عكس ذلك أبطال حقيقيون، قاموا بأعمال عظيمة جداً، وقاسوا آلاماً أكثر عنفاً مما نتصوره نحن في الحلم ونحن قابعون في سقائفنا الأدبية. ومع ذلك فنحن نملك كثيراً من الخيال ولا يملك الفرنسيون منه شيئاً. ولعل الله ــ عزّ وجل ــ من أجل ذلك خصّ الفرنسيين بتعويض من غير هذا النوع. يكفي أن يقصوا في صدق ما رأوه وفعلوه خلال السنوات الثلاثين الأخيرة ليكون لهم أدب شخصي لم ينتج مثله عصر من العصور، ولا شعب من الشعوب، إن مذكرات رجال الدولة والجنود والنساء النبيلات، التي تُنشَر كل يوم في فرنسا تكوِّن حلقة من التراث الذي يغني ويزهر بما فيه الكفاية

ويكفي للتفكير والغناء ويشع إشعاعاته حول الامبراطور العظيم، وهي حياة تسمو في مركز حيوات الناس كما يرتفع عمود هائل. تاريخ معركة روسيا في كتاب (سيجور) أغنية، أغنية وطنية فرنسية تنتسب إلى هذه الحلقة من التراثيات التي تشبه بنغمتها وموضوعها الأغاني الملحمية في كل الأزمنة. إن عرقاً بطولياً انبثق من أرض فرنسا على المعادلة السحرية: الحرية الحرية، وهو وكأنه في مسيرة ظافرة، ينتشي بالمجد، ويقوده رب المجد نفسه، يطوف في العالم، هذا العالم الذي أخافته وأثارته وقائعه السامية، وأخيراً قام برقصته الصاخبة على حقول الشمال الثلجية التي تتكسّر تحت قدميه ومات أبناء النار والحرية من البرد وبأيدي الأقنان البرابرة.

مثل هذا الوصف للانهيار أو للخراب الذي طالما تنبأ به المتنبئون لعالم بطولي كان موضوع الملاحم في كل الشعوب. على صخور (ايلور)-وفي المغارات المقدسة نُـقِـشَـتْ مثل هذه الكوارث الملحمية باللغة الهيروغليفية الكبيرة التي وجدنا مفتاحها في الـ(مهابهاراتا). وكان للشمال في لغته التي لم تكن أقل صقلاً في (ايدا) قصة سقوط الآلهة. إن أغنية (نيبيلنجن) تمجّد هذه الكارثة نفسها، ونهايتها تقدم مشابهة دقيقة لوصف حريق (موسكو) عند (سيجور). أغنية رولان في (رونسوفو) التي خمدت كلماتها في معمعان العصور، والتي ما يزال تراثها يعيش، نتذكرها الآن ونعيدها للحياة في التضرعات السحرية التي كتبها أحد كبار الشعراء في الوطن الألماني، هو (كارل ايمرمان). إن هذه الأغنية تبقى قصة الكارثة نفسها. وأغنية (ايليون) ما أكثر ما يبدو هذا النص القديم مثيراً ورائعاً ومع ذلك فليس أكثر رفعة ولا أشد وجعاً من الأغنية الوطنية الفرنسية التي يرثي فيها (سيجور) خراب الجيش الكبير. نعم إنها لملحمة حقيقية، كان شباب فرنسا البطوليون أبطالها يموتون قبل أوانهم. هذه الكارثة وهذه الخيبة رأيناهما في موت (بالدور) و(سيجفريد) و(رولان) و(آخيل) الذين ماتوا ضحايا للقدر وللخيانة، وأولئك الأبطال الذين أعجبنا بهم في الألياذة نجدهم مرة أخرى في قصيدة (سيجور) نجدهم يتشاورون ويتنازعون ويتقاتلون كما فعلوا مرة أخرى أمام أبواب (سكي) ومهما كانت خوذة ملك (نابولي) مرقشة مزخرفة فإن شجاعته في المعارف وإقدامه وثباته كان عظيمًا كما كان الأمر عند ابن (بيليه)؛ والأمير أوجين الحاجب النبيل يبدو لنا وكأنه هكتور في اللطف وفي البسالة و(ني) قاتل مثل (أجاكس) و(برتييه) مثل (نسطور) ما عدا حكمته، وأحيا لنا (دافوست) و(داروا) و(كولينكور) ذكرى (مينيلاس) و(أوليس) و(ديوميد). أمّا الأمبراطور وحده فلم يكن له نظير. في رأسه (أولمب) القصيدة. وإذا كنت أقارنه

كرثيس أعلى بـ(آغاممنون) فما ذلك إلّا لأن القدر المأساوي كان ينتظره عند عودته كما انتظر أكثر رفاقه العظماء في المجد.

إن ملحمة (سيجور) مثل مؤلفات (سكوت) لها نغمة تغمر قلوبنا، ولكن هذه النغمة لا توقظ فينا حب مآثر الماضي، إنها نغمة لا يهب فيها لنا الحاضر إلّا الوفاق والانسجام. نغمة تلهبنا في الوقت الحاضر.

أمّا نحن الألمان المساكين فلسنا إلّا (بييرشلاميهل): لقد رأينا في الأزمنة الأخيرة كثيراً وتألمنا كثيراً، ولنضرب على ذلك مثلاً الثكنات العسكرية وكبرياء الطبقة النبيلة، ولقد بذلنا أكثر ما في دمائنا صفاء، لأنكلترا مثلاً التي ما تزال حتى الآن تدفع ثمن أذرعة وسيقان ألمانية إلى مالكيها السابقين وتدفع تعويضات طوال العمر. ولقد فعلنا بالتفصيل كثيراً من الأشياء العظيمة لأنهم لو جمعوا أعمالنا الصغيرة لكانت مجموعة كبيرة من الأعمال العظيمة، كما فعلنا مثلاً في (تيرول)، لقد أضعنا مثلاً ظلنا، واسم الامبراطورية الرومانية المقدسة العزيز علينا، ومع ذلك، ومع كل تلك الخسائر، فإن هذه التضحيات وتلك الحرمانات وهذه الأعمال العظيمة فإن أدبنا لم يقتبس ولم يدوِّن واحدة من مآثر المجد هذه كما فعل أولئك الذين في جوارنا والذين تظهر فيهم تلك المآثر وكأنها أسلاب لهم خالدة. إن معارضنا الأدبية في (لايبزيغ) قلما استفادت من معركة (لايبزيغ).

ملحق

كُتِبت الصفحات السابقة في عام ١٨٢٦، وفي السنة التالية نُشِرت في الجزء الثاني من النسخة الألمانية لـ(ريسبليدر). وفي عام ١٨٢٨ ظهر كتاب (تاريخ نابوليون بونابرت) لـ(والتر سكوت) ولقد رأيت وأسفاه أن حَدْسي حول هذا الكتاب قد تحقق. لقد كان خيبة أمل كبيرة، ومنذ ذلك الحادث المؤسف أنكسف النجم الأدبي للمجهول الكبير. إن الجهد في العمل الذي فرضه على نفسه في مواجهة مطالب دائنيهِ قد أرهق صحة (والتر سكوت) إلّا إذا غامر في كتابة بعض الروايات المملة ـ التافهة تقريباً، ومات بعد ذلك بقليل. في الوقت الذي شهد ظهور كتابه حول نابوليون، وهو سباب استغرق إثني عشر مجلداً، كنت مقيّماً في (ميونيخ) ونشرت فيها مجلة شهرية سميتها (الوقائع السياسية) ولهذه المجلة كتبت المقالة أو النزوة التالية التي ظهرت عام ١٨٣٠ في (رايسبيلدر). في الطبعة القديمة لهذا الكتاب بالفرنسية كانت هـذه القطعة جزءاً من المقطوعات التي عنوانها (انكلترة)، وأنا اليوم أدمجها في الموضع الذي تشغله في الطبعة الألمانية.

يا (والتر سكوت) يا لك من مسكين. لو كنت غنياً لم تكتب ذلك الكتاب ولم تصبح (والتر سكوت) المسكين. ولكن الأوصياء على إعلان إفلاس (كونستابل) اجتمعوا وحسبوا ثم أعادوا الحساب وبعد كثير من المجادلات والانقسامات هزوا رؤوسهم... ولم يبق على المسكين (والتر سكوت) إلاّ الأكاليل والديون. وعندئذ حدث ما لم يكن في الحسبان، مدّاح الأعمال المجيدة أراد أن يجرّب نفسه مرة أخرى في ميدان البطولة، وقرر القيام بمغامرة كبرى، وضع إكليل المجهول الكبير في المزاد لدفع الديون الكبيرة المعروفة. وهكذا ولد في مسابقة الجياع إلهام من أوراق البنكنوت إسمه (حياة نابوليون) الكتاب الذي كان عليه أن تدفع ثمنه تماماً حاجات الجمهور الفضولي المتطلع على العموم، والوزارة الأنكليزية على الخصوص.

امدحوه... يا له من برجوازي طيب... امدحوه أنتم جميعاً يا فرنسيي الكرة الأرضية قاطبة... هيا امدحيه أنتِ يا فضيلة العطارين العزيزة التي تضحي بكل شيء لتدفع الديون المستحقة... ولكن لا تطلبوا مني أن أمدحه أنا.

شيء عجيب ما يزال الامبراطور ميتاً في قبره، وما يزال مع ذلك سوط عذاب على الانكليز، وبه أضاع أكبر شعراء بريطانيا العظمى إكليل غاره.

إنه أكبر شاعر في بريطانيا العظمى ـ كما يزعمون ـ وليعترضْ مَنْ شاء. الحق أن نقاد رواياته ناقشوا مسألة عظمته وجرّحوها واتهموها بأنها استطالت أكثر مما ينبغي، وبأنه يضيع في التفصيلات وأنه لم يؤلّف وجوهاً كبيرة إلاّ بجمع عدد لا يحصى من الملامح الصغيرة وأنه بحاجة إلى لفيفة من اللواحق والعدد لانتاج وقائع ضخمة... ولكي نقول الحق، فهو يشبه صاحب ملايين، كل ثروته قائمة على قطع نقدية صغيرة وهو مضطر إلى أن تلحق به ثلاث أو أربع عجلات تحمل الدوانيق والدراهم والقروش عندما يكون عليه أن يدفع مبالغ كبيرة. ومع ذلك فإن هؤلاء الذين يريدون أن يشتكوا من هذه الطريقة المزعجة ومن الملل من التقاط وعدّ كل هذه القطع الصغيرة، يمكن أن يجيبهم بقوله: إنه، بعد كل شيء، يدفع لهم المبلغ المطلوب منه تماماً وأنه في آخر الأمر مليء وغني مثل أي رجل آخر يملك سبائك ذهبية صافية، بل إنه يزيد فضله عليه بسهولة التبادلات المالية لأن ذلك الثري لا يدري ما يفعل بسبائكه في سوق الخضرة فهم هنالك لا يجدون وسيلة لتصريفها، بينما يأخذ باعة الفواكه أمواله بكلتا يديهم عندما يقدم لهم الدراهم والقروش. ولكن غنى الشاعر الشعبي الانكليزي قد انتهى اليوم، وأصبح اليوم وهو الذي كانت عملته رائجة عند الدوقة وعند مرقع الثياب على السواء،

أصبح الآن (والتر سكوت) المسكين. وقدره يشبه أساطير الجنيات في جبالنـا، محسنات في خبث يعطون الناس ألواناً تبقى براقة وصالحة ما داموا لا يستعملونها، ولكنها لا تلبث أن تتحول في أيديهم إلى تراب تافه عندما يريدون استعمالها استعمالاً غير لائق. نحن نفتح كيساً بعد كيس البضاعة الجديدة عند (والتر سكوت) وانظروا بدلاً من القطع النقدية الصغيرة اللامعة المرحة لا نجد إلاّ التراب ودائماً التراب. لقد عاقبته حوريات (البارناس) وآلهات الشعر، لأنهن مثل سائر النساء ذوات القلوب النبيلة نابوليانيات متحمسات، وقد أثارهن مرتين إفساد هذه الكنوز العقلية التي وهبتها ذات مرة للشاعر الكبير.

مزية كتاب (سكوت) ونزعته قدّرتها كل صحف أوروبا. ولم يكن الفرنسيون وحدهم هم الذين غضبوا، بل غضب معهم كل المواطنين المنكرين للمؤلف الذين أصدروا حكم الإدانة. وكان على الألمان أيضاً أن ينضموا إلى هذا الاستنكار. جريدة (ليتيراتور بلات) في شتوتجارت تحدثت في نار من الغضب اللاهب و(حوليات النقد العلمي) في (برلين) أعلنت رأيها في هدوء بارد والنقد الذي يجري فيه هذا الهدوء كلّف ـ كما يبدو ـ بطل الكتاب كثيراً، وهذا النقد يصنّف الكتاب في هذا المقطع الرائع:

«ليس في هذه القصة عمق ولا لون ولا نظام ولا حيوية. هذا الموضوع القوي ضائع في غموض وارتباك لا عمق فيهما ولكنهما سطحيان، وهو يسحب نفسه في رخاوة غير واثقة، مترددة دون معالم في الطبع الذي هو من خصائصه. لم يظهر حادث من الحوادث في هيئته المشخصة، ولا تجد في أية صفحة منه نقطة من النقاط البارزة، أو واقعة واضحة، ولا مسوّغاً لضرورته، والرابطة فيه رابطة خارجية ولا نكاد نلمح مداه ومعناه. إن مثل هذه الطريقة تطفىء كل نور في التاريخ وتدور هي على نفسها لتكوّن قصة غير عجيبة، بل قصة عامية. والتأملات والنظرات التي تختلط بالقصة في مستواها وعلى غرارها. إن عالم قرائنا منذ زمن بعيد لا يتحمل مثل هذا الإعداد الفلسفي الهش. والنسب الهزيلة في الأخلاق التي تتشبث بوقائع منفصلة لا تسمن ولا تغني من جوع...»

هذه النقائص وغيرها أيضاً مما يزيد عليها سوءاً التي يُقدّمها في وضوح تام الناقد البرليني (فارنهاجن) من (إنس) أغتفرها من كل قلبي لِـ(والتر سكوت) فكلنا فانون وخيرنا يمكن، بالمصادفة، أن يكتب كتاباً. ويُقال عندئذٍ أن هذا الكتاب دون مستوى النقد وأنه قضية منتهية . ولكن الشيء الملاحظ أن هذا المؤلف الجديد لانجد فيه جمال اسلوب (سكوت) . عبثاً أن نرى خلال هذه القصة الثلاثية

الباهتة من وقت إلى وقت كلمات حمراء أو خضراء أو زرقاء. عبثاً تحاول المزق اللامعة عند الشعراء أن تغطي عرياً نثرياً، عبثاً أن تكون سفينة نوح نهباً لتقدّم مقارنات حيوانية، عبثاً أن تورد كلمات الله لحماية أفكار حمقاء. ومن الملاحظ أيضاً أن (والتر سكوت) لم ينجح مرة واحدة في الاستفادة من موهبته كرسام صوّر شخصية ليمسك على أقل تقدير بمظهر (نابوليون) الخارجي. لم يتعلّم (والتر سكوت) شيئاً من تلك اللوحات الجميلة التي تمثل الامبراطور محاطاً بقادته ورجال دولته، ولو رآهم أي إنسان، دون حكم سابق، لهاله هذا السكون المأساوي، والتواضع العتيق في ملامح هذا الوجه الذي يناقض في شكل رفيع وإلهي، الوجوه الحديثة التي تحرّكها الأهواء العادية اليومية. ولكن إذا كان الشاعر الايكوسي لم يستطع فهم وجه الامبراطور فهو أقل فهماً لطبعه وأنا أغتفر له أن يمسخ إلهاً لا يعرفه. ويجب أن أغفر له أن يجعل من صاحبه (ولينفتون) إلهاً، وأن تصبه في هذا التأليه نوبة من العبادة لا يستطيع مهما كان لبقاً في مسخ الحيوانات أن يعرف بأي حيوان يمكن أن يقارنه.

ولكني متسامح مع (والتر سكوت) إذا عفوت عن الفراغ والأخطاء والافتراءات والحماقات التي يحشو بها كتابه، وحتى الملل الذي سببه لي، ولست أستطيع الموافقة على العفو عن ميوله، هذه الميول البادية في تسويغ الوزارة الانكليزية جريمتها في (سانت هيلين). في هذه الدعوى القضائية بين الوزارة الإنكليزية والرأي العام، كما يقول ناقد برلين، قام (والتر سكوت) مقام المحامي. وخلط بين مماحكة المهنة وموهبته الشعرية لكي يشوّه الوقائع والتاريخ، وزبائنه، الذين هم في الوقت نفسه سادته، كان عليهم، علاوة على أتعابه، أن يدسوا في يده رشوة صغيرة، فنجان قهوة.

إن الانكليز لم يفعلوا غير قتل نابوليون، ولكن (والتر سكوت) باعه. إنه لمقلب ايكوسي حقيقي. مقلب من الطبع القومي الصافي ونحن نرى فيه الجشع الايكوسي، الذي لم يتغير منذ يوم (نازيبي) عندما باع (الايكوسيون) لقاء أربعمائة ألف ليرة استرلينية ملكهم الخاص لجلاديه، وهو الذي كان يثق بحمايتهم له. إن هذا الملك هو (شارل ستوارت) نفسه الذي يتغنى به اليوم شعراء (كاليدونيا). الانكليزي يقتل ولكن الايكوسي يبيع ويمدح.

لقد فتحت الوزارة الانكليزية في سبيل هذا الهدف وثائق وزارة الخارجية

لمحاميها، وقد استفاد منها في وجدان واستعملها. في الجزء التاسع من مؤلفه أورد الحوادث التي يمكن أن تلقي ضوءاً على تحيزه وتلقي ظلاً غير مناسب على خصوم زبائنه، والجزء التاسع كذلك الذي لا يتخلى عنه للأجزاء الأخرى السابقة يكتسب مع ذلك، في المستوى الفني، بعض الأهمية فنستمع فيه إلى قطع قيمة، لا نجدها في غيره، وهو دليل أنّ ليس فيه مَنْ يتحدث في مصلحة الوزارة الانكليزية، وهذا المضمون السلبي للكتاب ذو نتيجة هامة.

إن كل الأكوام التي تقدمها الوثائق الانكليزية تنحصر في بعض المراسلات التي لا نثق بها كثيراً للسيد الكلي الاحترام السير (هدسون لوو) وأصحابه. ولست أريد أن أفحص أعماق هذه التقارير فيمكن أن تكون صحيحة لأن البارون (ستورمر) أحد الممثلين الثلاثة في المأساة الكبرى قد أقرّها، ولكني لا أرى حتى في مثل هذه الحالة ما يمكن أن يبرهنوا عليه لو كان السير (هدسون لوو) هذا الوغد الوحيد في جزيرة (سانت هيلانة). بمثل هذا النوع من المصادر ومن الايماءات الداعية للرثاء يعالج (والتر سكوت) تاريخ اعتقال نابوليون ونفيه وهو يجهد نفسه ليقنعنا أن الأمبراطور السابق ـ كما يسميه الشاعر السابق ـ لا يمكن أن يفعل ما هو أكثر تعقلاً وصواباً من استسلامه إلى الانكليز رغم أنه يتنبأ بنفيه إلى جزيرة (القديسة هيلانة)، وأنه بالتالي عومل بطريقة جد رائعة، لأنه كان يأكل ويشرب كما يشاء ولأنه مات مرتاحاً نضراً وكمسيحي طيب بسرطان في المعدة.

بل إن (والتر سكوت) يجعل الامبراطور يتنبأ إلى أي حد سيمتد كرم الانكليز، حتى (القديسة هيلانة) ويبرئه من الحكم العامي بأنه ترك نفسه يُثار برفعة كارثته الرفيعة، وأنه نظر إلى الانكليز المتحضرين نظره إلى برابرة فرس، ومطابخ (اللحم المقلي) لـ(سان جيمس) بمنزل ملك كبير. وهو بذلك يرتكب حماقة بطولية. و(والتر سكوت) يجعل من الامبراطور في الوقت نفسه أكبر شاعر ظهر في الوجود عندما يقرر في جد كبير أن كل الكتابات المأثورة التي تنقل آلامه في (القديسة هيلانة) كانت جميعاً دون استثناء، أمالي أملاها بنفسه.

لست أستطيع أن أمنع نفسي من ملاحظة أبديها هنا هي أن هذا القسم من الكتاب، مثل كل الكتابات التي يتحدث عنها، وخاصة مذكرات (أوميرا) وقصة الرائد (ميتلاند) تذكرني أحياناً بأكثر قصص العالم سخفاً ولغواً، حتى ان أشد ألوان غيظ روحي وجعاً يهم أن يتحول فجأة إلى ضحكة جنونية. هذه القصة ليست شيئاً آخر غير (مغامرات لومويل جوليفر) الكتاب الذي أضحكني عندما كنت غلاماً

والذي يمكن أن نقرأه في سخرية مثل ما يمكن أن يفعله (ليليبوت) الصغار بأسيرهم الكبير وكيف كانوا يتسلقون ألوفاً على جسده، وكيف كانوا يربطونه ربطاً وثيقاً بكبّة من الحبال الغليظة كأنها شعرات، وكم بذلوا من جهود كبيرة لكي يبنوا له خصوصاً بيتاً كبيراً، وما أكثر ما كانوا يشكون من الكمية الضخمة من المؤن التي كان عليهم أن يقدموها له كل يوم، وما أكثر ما استمروا في تسويده في مجلس الدولة، وأن يعلنوا أنه يكلّف البلاد كلفة باهظة، وأن من الخير لهم أن يقتلوه، ولكنهم، وهم الذين يخافونه بعد موته، لأن جثته يمكن أن تنقل الوباء، وكيف قرروا أخيراً مدفوعين بكرم لا نظير له، أن يتركوا له حياته فاكتفوا بالرغبة في سمل عينيه. الخ... الخ... الحق أن ليلبيوت) موجود في كل مكان يمكن أن يقع فيه إنسان عظيم في أيدي رجال صغار لا يكفّون عن العبث به في طريقة مسكينة، وهو يشكّل بالنسبة إليهم سبباً للعذابات والآلام، ولكن العميد (سويفت) لو كان كتب كتابه في زمننا هذا لم نجد في جعبته، المدهونة جيداً إلّا قصة أسر الامبراطور وإذنْ لعرفنا حتى لون ثيابه ولون وجوه الأقزام الذين عذبوه.

وليست تختلف إلّا نهاية قصة (القديسة هيلانة): مات الامبراطور بسرطان في المعدة، ويؤكّد لنا (والتر سكوت) أن هذا هو السبب الوحيد في موته. ولا أريد أن أعارضه في هذا الموضوع، فليس الأمر مستحيلاً. يمكن أن يموت إنسان ألقوه على منصة التعذيب أن يموت بالسكتة الدماغية. ولكن الألسنة الخبيثة تقول إن الجلادين هم الذين قتلوه. واعلم أن الألسنة الخبيثة كانت تضع في الرؤوس شيئاً آخر غير ما قررهُ (والتر سكوت) الطيب، فهذا الإنسان الباسل، الذي هو خبير جداً في شؤون الكتاب المقدس، عندما يختار الاستشهاد بالإنجيل لا يرى في ثورة الفيلة في تلك العاطفة التي هبت عند موت نابوليون إلّا حادثاً حدث أيضاً عند موت (كرومويل) والناس لهم، في هذا الموضوع أفكار خاصة. لقد رأى في موت نابوليون مأتماً مثيراً. إن انفجار ألمنا ؛صبح عبادة. عبثاً يحاول (والتر سكوت) أن يصبح محامي الشيطان. لقد أعلنت كل القلوب النبيلة قدسية الامبراطور الميت، كل القلوب الطيبة وبلادنا العزيزة تحتقر جلاديه الصغار، والشاعر الكبير في كتابه يصبح شريكاً لهؤلاء الجلادين، ولكن حوريات الوحي يوحين إلى خير الشعراء ما يمجدون به بطلهم المختار، وإذا سكت الناس يوماً من الأيام فإن الحجارة تنطق وصخرة شهيد القديسة هيلانة ستنتصب مرعبة في وسط البحار ثم تروي للعصور اسطورة الامبراطور.

طبل «لوكراند»
أفكار

كتبت عام ١٨٢٦

(١)

كانت جديرة بالحب وكان يحبها، أما هو فلم يكن جديراً بالحب ولم تكن تحبه.

مسرحية قديمة

يا سيدتي. هل تعرفين تلك المسرحية القديمة، إنها مسرحية متميزة حقاً، ولكنها جد حزينة. لقد مثلت مرة الدور الرئيسي فيها، فبكت النساء جميعاً. واحدة منهن لم تبك، لم تذرف دمعة واحدة. هنا تقع تماماً عقدة المسرحية، مأساتها الحقيقية.

أوه يا لهذه الدمعة الوحيدة طالما عذبتني، وكانت محور أفكاري جميعاً. الشيطان عندما أراد أن يصنع روحي وشوش في أذني أغنية خبيثة حول تلك الدمعة التي لم تسل، أغنية مشؤومة في عزف أكثر شؤماً. آه، إننا حتى في جهنم لم نسمع مثل هذه الأغنية . . . .

. . . .

يمكن أن تتصوري كيف يعيش الناس في السماء، يا سيدتي، ولا سيما وأنك متزوجة. هناك يتسلى الناس في شكل بالغ حقاً، يملكون كل أنواع التسليات الممكنة، يقضون أيامهم في الفرح والمسرات، تماماً مثل الرب في فرنسا. يأكلون من الصباح إلى المساء، الطيور الداجنة المشوية تطير هنا وهناك والمرق في مناقيرها، وهي تشعر أنها مكرّمة محظوظة جداً إذا أرادوا أن يأخذوها ويأكلوها، والمعجنات

بالسمن في لون الذهب تنبت في استقامة كأنها عباد الشمس، وفي كل مكان من الحساء ومن الخمر والشمبانيا، وفي كل مكان أشجار ترفرف فيها المناديل، يأكلون ثم يمسحون أفواههم، ويأكلون من جديد دون أن تتعب معدتهم. يغنون أناشيد، أو يلعبون أو يغازلون الملائكة الصغيرات الرقيقات، أو يمضون للنزهة إلى مرج (البلوليا) الأخضر والثياب الجميلة البيض المرفرفة تكسوهم وتزينهم كأعجوبة ولا شيء يمكن أن يكدّر عليهم صفاءهم. لا ألم ولا كدر، حتى حين يمشي الناس على أصابع قدميك وتقولين في بسمة ورضاً جواباً على قوله لك: عفواً: أنت لم تزعجني قط يا أخي، بل على عكس ذلك لقد شعر جسدي بأحلى وأرق لذة سماوية.

أمّا الجحيم فأنتِ لا تعرفيـــن عنه شيئاً يا سيدتي. من كل الشياطين أنت لا تعرفين إلاّ أصغرهم، إلاّ مدير الجحيم الرقيق. أنتِ لا تعرفين جهنم إلاّ من أوبرا (دون جوان)، وأنت لا ترين فيها من النار ما يكفي هذا الرجل الخدّاع للنساء، الذي يعطي أسوأ مثال، رغم أن السادة المحترمين مديري المسارح يستعملون من أجل ذلك كثيراً من أنواع اللهب الأزرق والمطر الناري والبارود والمفرقعات التي يمكن أن يشتهيها مسيحي طيب للجحيم.

ومع ذلك فإن الأمور في الجحيم تجري أكثر سوءاً مما يتصور مديرو المسرح. ففيها حرارة طاغية، وفي الأيام القائظة التي زرتها فيها لم تكن الحراراة مما يحتمل، أنتِ لا تستطيعين أن تدركي حقيقة جهنم، يا سيدتي، فنحن لا نتلقى منها أخباراً رسمية ــ أمّا أن الأرواح المسكينة التي فيها تضطر إلى قراءة كل المواعظ التي يطبعها الناس هنا فوق سطح الأرض، فليس إلاّ افتراء وكذباً. إن حياة اللعين المعذب ليست قاسية جداً إلى درجة ما نتصور. فالشيطان لا يبدع ألواناً من العذاب في مثل هذه الدقة. وعلى عكس ذلك فقد كان وصف دانتي معتدلاً جداً في مجموعه، وهو شاعري جداً. أمّا أنا فقد بدت لي الجحيم مثل مطبخ برجوازي كبير، ذي مدفأة واسعة فوقها ثلاثة صفوف من قدور الحديد، وفي هذه القدور يثوي مَنْ حلّت عليهم اللعنة يطبخون فيها طبخاً.

في الصف الأول يجثم المذنبون من المسيحيين، وعددهم، صدقيني، ليس قليلاً، والشياطين يوقدون النار تحتهم في نشاط خاص. وفي الصف الآخر اليهود الذين يصرخون دون انقطاع والذين يسخر منهم الشياطين من حين إلى حين، وقد حدث أن أحد الدائنين بالرهن كادت تُقْطَع أنفاسه، وكان يشكون من تلك الحرارة الخانقة فصبّ عليه الشيطان الصغير بضعة سطول من الماء المثلج لكي يعرف أن

المعمودية خير يرطِّب الجسد. وفي الصف الثالث يقوم الوثنيون الذين هم، مثل اليهود، لم يستطيعوا الإسهام في الأمان الخالد، والذين ينبغي أن يحترقوا إلى الأبد. سمعت واحداً من هؤلاء كان أحد الشياطين وهو ذو أربعة براثن، يضع له أكوام فحم جديدة يصرخ من أعماق قدره: ارحمني. أنا سقراط أحكم الفانين. لقد علّمت الفضيلة والعدل؛ وضحيت بحياتي في سبيل الفضيلة. ولكن الشيطان الفظ لم يعبأ بهذه الرسالة ودمدم: آه. ينبغي أن يُحرَق كل الوثنيين. ولا نستطيع أن نستثني منهم رجلاً واحداً. أؤكد لك يا سيدي. إن تلك الحرارة مخيفة وأن تلك الصرخات والآهات والأنات والتشنجات والصرير والزعقات تهز هزاً... وخلال كل هذه الضجات المرعبة تسمع في وضوح تلك الألحان المشئومة للأغنية التي تدور حول الدمعة التي لم تسل.

(٢)

يا سيدتي، المسرحية القديمة التي ذكرتها آنفاً ليست إلا مأساة رغم أن بطلها لم يُذبَح هو ولم يذبح أحداً فيها. عيون البطلة جميلة، جميلة جداً... يا سيدتي ألم تشمي عطر البنفسج.. إن عينيها في مثل جمالها وفي مثل حدتها، تتغلغل في قلبي كأنها خناجر وتنفذ من خلال الظهر، تنظر ما خلفه. ولكني لا أموت من طعنات هذه العيون القاتلة. صوت البطلة كذلك جد جميل. يا سيدتي، ألم تسمعي أغاني العندليب؟ صوت جميل، صوت حريري، ينسج من النغمات الساحرة يغلِّف روحي فتختنق وتتعذب. وأنا (وكونت «كانج» هو الذي يتحدث الآن، والقصة تجري في البندقية) وأنا نفسي فكرت عندئذ بأن أضع نهاية المسرحية منذ الفصل الأول وأن أفجر قبعة المجنون مع رأسه. وذهبت من أجل ذلك إلى مخزن للممنوعات يقوم في شارع (بورستا)، فوجدت فيه زوجاً من المسدسات معروضاً في الواجهة، وما أزال أتذكر جيداً أنه كان معروضاً إلى جانب ألعاب ضاحكة من الصدف والذهب، وهناك قلوب من الحديد مغلفة بسلاسل من الذهب، وفناجين من البلور في أحجام رقيقة ولوحات ذات رسوم جميلة، منها مثلاً قصة (سوزان) الخالدة، و(ليدا) والبجعة، وخطف (سابين) و(لوكريس) الفضيلة السمينة، صدرها عار وتغمد في صدرها خنجراً، وبعد الضربة تأتي (فيرونيير) الجميلة، وأخيراً كل الوجوه المغرية، ومع ذلك فلم أشتر المسدسين فحسب، بعد كثير من المساومة، بل اشتريت كذلك بارود السيد (زامبيتو) وحملت بعض المحار وكأساً كبيرة من نبيذ (الرين).

لم أستطع الأكل ولم أستطع الشرب. سقطت دموع محرقة في الكأس ورأيت في هذه الكأس وطني العزيز، ونهر (الغانج) المقدس ذا المياه الزرقاء، وجبال الهملايا الأبدية الإشراق، وغابات الموز الرحبة حيث تمر الفيلة الحذرة والحجاج البيض، والأزهار الغريبة كأنها من نتاج الأحلام، كانت تنظر إليّ في حنان سري، والطيور العجيبة ذات الأجنحة المذهبة تعلن فرحها، وأشعة الشمس والقردة اليقظة تلعب حولي، ومن المعابد البعيدة تأتي الأنغام التقية للصلوات الكهنوتية، وعبر هذه الألوان من الضجة يسود الصوت الشاكي الوجيع لسلطانة دلهي. وعلى سجّاد حرمها كانت تجري كأنها مجنونة تمزق ستائر الفضة وتتعثر بالعبد الأسود الذي يمسك بمروحة الطاووس، تبكي وتزمجر وتزعق ولكني لم أستطع فهمها. إن كهف السيد (زامبيتو) يبعد عن حريم (دلهي) ثلاثة آلاف ميل. ثم إن السلطانة الجميلة ماتت منذ ثلاثة آلاف سنة... وشربت دفعة وراء دفعة، شربت تلك الخمر المشرقة المنيرة، ومع ذلك فقد كانت روحي تزداد قتاماً وأصبحت أكثر حزناً...
لقد حكم علي بالموت ....

....

عندما صعدت سلم الكهف سمعت قرع جرس المعذبين، أمواج الجمهور تتدفق على الشارع ولكني وقفت في زاوية شارع (القديس جيوفاني) وقرأت المناجاة التالية:

في الأقاصيص القديمة تقوم قصور من ذهب
ترن فيها القيثارات وترقص الصبايا
وتلمع فيها الثياب الفخمة، والياسمين
والريحان والورد تفوح جميعاً بالشذى...
ومع ذلك فإن كلمة واحدة من الحنق
في لحظة واحدة تحول كل هذه الفخامة إلى رماد
فلا تبقى منها إلاّ الأطلال والخرائب
عصافير ليلية ومستنقعات.
هكذا أنا، بكلمة واحدة
فككت سحر كل الطبيعة المزهرة
فهي الآن ممددة على الأرض، لا حياة فيها، باردة، داكنة
كأنها جثة ملك مزينة.

تداعت كل عظام خديها
ومع ذلك فهي تمسك بيدها صولجاناً
ولكن الشفتين صفراوان ذابلتان
لأنهم نسوا أن يصبغوها بالحمرة
والحاجبان يطرفان حول الفم الملكي
ويشتمان في سفاهة الصولجان الكبير.

يقبل الناس عادة يا سيدتي أن ينشد المنتحر نشيداً قبل أن يلهب دماغُه. وأكثر الناس يستفيدون في هذه المناسبة من نشيد (هاملت): أكون أو لا أكون. إنه مقطع طيب. كان يمكن أن أستشهد به هنا، ولكن كل إنسان يؤثر نفسه، وعندما يكتب الناس مثلي، مآسي فيها مثل هذه الخطابات الوداعية مثل مسرحيتي الخالدة (المنصور) فمن الطبيعي جداً أن يفضلوا أشعارهم الخاصة حتى على أشياء (شكسبير). وعلى كل حال فإن هذه الأنواع من الخطابات تُستعمَل استعمالاً مشكوراً. يكسبون على الأقل بعض الزمن منها. وهكذا وقفت قليلاً في زاوية شارع (القديس جيوفاني) وعندما كنت هناك مثل مجرم محكوم عليه بالموت، رأيتها فجأة تأتي. إنها هي!

كانت ترتدي ثوباً في زرقة السماء، وقبعتها وردية، وعيناها تنظران إليّ في عذوبة فائقة، وطردت عني نظرتها شبح الموت، ووهبت لي الحياة.. يا سيدتي لقد قرأت في التاريخ الروماني أن الكاهنات عندما يرون في روما القديمة في طريقهم مجرماً يُسَاق إلى العذاب فإن لهن الحق في العفو عنه، ويحتفظ المسكين التعيس بحياته. بنظرة واحدة أنقذتني من الموت، وها أنذا أمامها يفعمني وجود جديد، وكأنما بهرني بريق جمالها... مرّت وتركتني أعيش.

(٣)

مرت وتركتني أعيش.

تركتني أعيش، وها أنذا أعيش. وهذا هو المهم.

ليفرح غيري بفكرة زيارة حبيبته له في قبره. لتزين هذا القبر بروض من الأزهار، ولتسقيه بفيض من الدموع.

أيتها النساء. ابغضنني، واهزأن بي، واضحكن مني، ولكن خلينني أعيش. إن الحياة حلوة حلاوة جنونية، وإن العالم جميل جمالاً رائعاً، جميل بكل ما فيه من تقلب، جميل حتى حين ينقلب رأساً على عقب.

العالم حلم إله سكران، هجر عرشه دون استئذان مجلس الوزراء الإلهي، ومضى إلى نجمة وحيدة فريدة فنام على صدرها، وجعل يحلم، وهو يجهل أنه يخلق ما يحلم به. أمّا صور أحلامه فكانت حيناً مشوهة تشويهاً عجيباً، وكانت حيناً منسجمة انسجاماً معقولاً، فالإلياذة وأفلاطون ومعركة ماراتون، وفينوس ميدتشي، وماستر ستراسبورغ، والثورة الفرنسية وهيغل والسفن التجارية... كل أولئك أفكار طيبة انفصلت عن أحلام الإله... ولكن هذا لن يدوم إلى الأبد... فسيستيقظ الإله، وسيفرك أجفانه الناعسة، وسيبتسم، وعند ذلك يهوي عالمنا في ظلمات العدم.. فكأنه لم يكن...

وما يعنيني من هذا ما دمت أعيش أو ماذا يضيرني أن أكون ظلاً لشيء، أو صورة لحلم. إن هذا خير لي وأبقى من الظلمة الباردة في القبر ومن العدم الفارغ في الموت.

الحياة أطيب النعم والموت أخبث الشرور.

وليضحك من ذلك حرس برلين وليقولوا: إن أمير (همبورغ) كان نذلاً لأنه تراجع أمام قبره المفتوح... ولقد كان (هنري كلايست) شجاعاً مثل زملائه الصناديد، ومع ذلك فقد جرب ذلك وذاق طعمه. إن كل أصحاب العقول الجبارة يحبون الحياة، و(ايغمون) عند الشاعر (غوته) لم يرض أن ينفصل طوعاً عن عادات الوجود المحبوبة، وكذلك فإن (أدوين) عند الكاتب (ايمرمان) كان يتمسك بالحياة تمسك الطفل الرضيع بثدي أمه، ولقد كان يرى أن الحياة في ظل رحمة الآخرين وشفقتهم وإحسانهم حياة قاسية مرة، ومع ذلك فقد عاش هذه الحياة المرة القاسية وقبل بها وقال:

أنْ أحيا وأنْ أتنفس أطيب الخيرات وأسماها.

رأى (أوليس) في جهنم بطل اليونان (أخيل) يتزعم عصبة الأبطال الموتى فحدثه في كبرياء عن شهرته بين الأحياء، وعن مجده بين الأموات، فقال له أخيل:

لا تحدثني عن الموت فما فيه عزائي
ليتني كنت أجيراً بائساً في الأجواء
أفلح الأرض وأحيا في كهوف الفقراء
ذاك خير لي من الأمجاد في دار الفناء

الحمد لك يا رب أني ما أزال أعيش، وما يزال يغلي في عروقي سائل الحياة الأحمر، وما تزال الأرض تهتز تحت قدمي، وما أزال أعانق الأشجار وأقبل تماثيل الحجارة مفعمًا بحرارة الحب فتختلج وتحيا تحت قلبي.

كل امرأة عندي هبة عالم كامل، أسبح في أنغام ملامحها الساحرة. وأمتلكها كلها بنظرة واحدة امتلاكاً يعيي غيري ولو بذل في سبيلها كل ما في يده من قوة وكل ما له من عمر.

كل لحظة من لحظات حياتي خلود، وأنا لا أقيس الزمان بساعة برابان الحجرية الكبيرة، ولا بساعة (همبورغ) الصغيرة، ولست في حاجة إلى كاهن يزين لي حياة أخرى قادمة ألهو فيها وألعب، فلي في هذه الحياة ما يكفي للعبي ولهوي، فإذا أردت الخلود وجدته في حياة أسلافي الماضية.

أنا أعيش، وشريان الطبيعة يجعل صدري خفّاقاً، وأتنفس فرحاً فتجيبني آلاف الأصوات والأصداء، وأسمع أناشيد ألف عندليب. إنها رسل الربيع، جاءت لتوقظ الأرض من نومها الطويل، والأرض تميس وتهتز فرحاً وتتبختر سروراً وتبعث أزهاراً وألحاناً موقعة في أذن الشمس، حية نشيطة، والشمس تتحرك في بطء، وأنا أهم أن أضرب بالسوط أفراسها النارية لنسير سيراً أكثر نشاطاً واندفاعاً.

وستغطس عمّا قليل في البحر، فينهض الليل القوي، تتلألأ عيونه بالشهوات والرغبات فتملأ قلبي سعادة فياضة عاصفة وتعبث بقلبي أنسام المساء فينبض كما تنبض الفتاة اللعوب الحسناء، وتدعوني النجوم إلى ضيافتها، فألبيها وأرتفع رويداً رويداً فوق هذه الأرض الصغيرة وفوق أفكار ناسها الصغار.

(٤)

ولكن سيأتي عليّ يوم، وستنطفىء النار المشتعلة في عروقي، وسيسكن الشتاء البارد في قلبي، وستتطاير قطع من الثلج حول رأسي فتغطي غيومها عيني، وأصدقائي، أصدقائي سوف يستريحون في القبور التي يغطيها الطحلب، وسأبقى أنا وحيداً مثل سنبلة فريدة نسيها الحصاد في الحقل، وعند ذلك سينبت جيل جديد، له آمال جديدة وأفكار جديدة، وأسمع، متعجباً متسائلاً، دوي أسماء جديدة وترنم أغانٍ جديدة، وأمّا الأسماء العتيقة فقد نسيها الناس، وأمّا أنا نفسي فقد نسيني

الناس إلاّ فئة قليلة ظلّت تذكرني وتمجدني، وسأكون موضعاً لسخرية الساخرين، ولن أكون موضعاً لحب أحد...

وعند ذلك يهرع الأطفال ذوو الخدود الموردة إليّ، ويضعون في يدي المضطربتين قيثارتي العتيقة ويقولون لي ضاحكين لاعبين: أيها الكسول الأسمر، إنّا لنراك صامتاً أخرس منذ زمن طويل، تعال غننا بعض أحلامك في صباك...

وعند ذلك أمسك بقيثارتي، وعند ذلك تستيقظ في نفسي الأفراح العتيقة والآلام العتيقة، وعند ذلك تنجاب الغيوم عن عيني وعند ذلك تعود الدموع فتزدهر على جفني، وعند ذلك يحيا الربيع في صدري، وعند ذلك ترن ألحان الكآبة العذبة على أوتار قيثارتي، فأرى النهر الأزرق، والقصور الرخامية ووجوه النساء والصبايا الحسان، وعند ذلك أغني أزهار (برانتا).

وسيكون هذا النشيد آخر أناشيدي، والنجوم ترمقني كما كانت ترمقني في ليالي شبابي الراحل، والقمر الحبيب يطبع قبلات الوداع على خدي، وأرواح العنادل الميتة تنتحب هنالك بعيداً عني، وعيناي تغمضان رويداً رويداً في نشوة، وروحي تنطلق كأنما هي نغمة من أنغام قيثارتي، وأتنشق عبير أزهار (برانتا).

أمّا أحجار قبري فستستظل بظل شجرة، ولطالما وددت أن تكون هذه الشجرة نخلة باسقة، ولكن النخيل لا ينبت في بلاد الشمال، وإذنْ فلتكن هذه الشجرة زيزفونة، يجتمع تحتها العشاق في ليالي الصيف فيتحدثون ويتناجون، والطير الذي سيأوي إلى هذه الشجرة مائساً على أغصانها، مصغياً إلى نجوى المحبين في ظلالها، لن يكون واشياً ولا نماماً، بل سيكون حكيماً عاقلاً كاتماً للأسرار، وستهمس زيزفونتي همساً رقيقاً في آذان العشاق السعداء، ولكنهم لن يسمعوها لأنهم في شغل شاغل عنها، وهم أيضاً قد بلغت بهم سعادتهم حداً لا يترك لهم وقتاً كافياً لقراءة ما هو مكتوب على شاهدة قبري الأبيض.

ولكن... حين يفقد الحبيب حبيبته، سيعود وحيداً إلى زيزفونته فيتوجع ويبكي وسيرى منذ ذلك الحين حجر القبر في كثير من الأحيان وسيقرأ عند ذلك على شاهدة القبر هذه الكلمات:

«كان يحب أزهار (برانتا)».

(٥)

يا سيدتي، لقد خدعتك كثيراً، فلست أنا كونت (الغانج)، لم أر في حياتي هذا النهر المقدس ولا أزهار اللوتس تتراءى على أمواجه التقية. لم أحلم قط، وأنا مستلق تحت ظلال نخيل (الهند)، ولم أنحن قط في صلاتي أمام إله (جاجيرنو) ذي اللآلىء المحترمة جداً. لقد كنت أيضاً قليلاً ضئيلاً في الهند مثل (الكاري) الذي أكلته أمس. ولكني مع ذلك من أهل (هندوستان)، ولذلك فأنا أحس وكأني في بيتي عندما أكون في غابات (فاليكي) ذات الأنغام؛ تحرّك قلبي آلام الخالد (رامو) البطولية كأنها آلام أعرفها، وفي أغاني (كاليداسا) تتفتح أمامي أحلى الذكريات، ومنذ سنين عندما ظهرت سيدة ممتازة في برلين، تحمل الصور الساحرة التي جاءت بها من الهند، بدت لي تلك الوجوه المرسومة في رقة والهادئة في قداسة وكأنني أعرفها معرفة جيدة وكأني أقدر سلسلة من الصور في عائلتي نفسها.

(فرانز بوب) وقد قرأت دون شك كتابه (نالوس) وطريقته في تصريف اللغة السنسكريتية) أعطاني كثيراً من المعلومات حول أسلافي، وأنا أعلم الآن في شكل موضوعي أني خرجت من رأس (براهما) لا من ثفنات قدميه؛ وأفترض أيضاً أن (المهابهاراتا) كلها، بأبياتها البالغة مائتي ألف بيت لم تكن إلاّ رسالة رمزية غرامية كتبها جدي الألفي إلى جدتي الألفية.

أوه كانا يعشقان أحدهما الآخر جداً، وكانت أرواحهما تتبادل القبلات. وكان يغطي أحدهما الآخر بقبل من عينيه، لم يكن بينهما إلاّ قبلة واحدة مشتركة...

هنالك بلبل مسحور يتدلىّ على شجرة حمراء من الفلفل الهندي في قلب المحيط الصامت ويغني أغنية تدور حول حب أجدادي، اللآلىء تنظر من أعماق أصدافها، الأزهار البحرية العجيبة تهتز عطفاً وحناناً، الحلزونات الحذرة بأبراجها الصغيرة البلورية على ظهرها تهرع قافزة، النجوم البحرية الصفراء والرخويات المبرقشة تتحرك وتتمدد، كل هذا كان مثل بيت النحل يتحرك ويتلوّى ويصغي...

ومع ذلك فإن أغنية هذا العندليب، يا سيدتي طويلة جداً لا سبيل إلى إيرادها هنا ثم إنها أكثر امتداداً من العالم نفسه، بل إن إهداءها إلى (أناغاس) إله الحب، أكثر طولاً من كل روايات (والتر سكوت) مجتمعة. وإلى هذا يشير هذا المقطع لـ(أريستوفان) الذي ترجمته في الألمانية:

تيوتيو، تيوتيو، تيو تانكس
توتو توتو، توتو توتو، توتو تانكس

ترجمة (فوس)

كلا! أنا لم أولد في الهند. رأيت النور على ضفاف هذا النهر الجميل الذي ينبت الجنون في جباله الخضراء والذي يُقطف في واديه العنب ثم يُعصَر ثم يُنقَل إلى الكهوف في براميل ثم يُرسَل إلى البلاد الأجنبية. والحق أني سمعت أمس وأنا على المائدة واحداً يقول حادثة جنون كانت في عام ١٨١١ في عنقود عنب رأيته بنفسي ينبت على أرض (جوهسنبرغ). ولكنهم يستهلكون كثيراً من حوادث الجنون في المنطقة نفسها، والناس هم فيها مثل الناس في كل مكان، يولدون ويأكلون ويشربون ويضحكون ويبكون ويفترون، وهم منهكون جداً في إنتاج الجنس، يحاولون أن يظهروا على غير حقيقتهم التي هم عليها، وعلى عمل ما لا يستطيعون عمله، ويحلقون ذقونهم قبل أن تكون لهم لحى، وطالما نبتت لهم لحى قبل أن تكون لهم القدرة على المحاكمة، وعندما يملكون المحاكمة يهزهم الجنون الأبيض والأحمر.

يا رب لو أن لديّ ما يكفي من الايمان لنقل الجبال لكان جبل (جوهنسبرغ) هو الجبل الذي ألحقه ضمن أتباعي وأقوده في حاشيتي. ولكن إيماني ليس قوياً كما ينبغي، فيجب أن يهبّ خيالي إلى مساعدتي وأن ينقلني هو إلى ضفاف نهر (الرين).

يا لها من بلاد جميلة، مفعمة بالرقة تدفئها شمس ساطعة. والجبال تتراءى في مرآة الأمواج الزرقاء اللامعة، مع خرائب قصورها العتيقة، وغاباتها ومدنها الغوطية. هناك يقف البرجوازيون الطيبون على عتبات أبوابهم عندما يتصرّم نهار الصيف، ويشربون من جرارهم ويتحدثون فيما بينهم في صداقة عن الخمر التي ستكون طيبة، وعن المحاكم التي يجب أن تبقى جلساتها عامة وعن قطع رأس (ماري انطوانيت)وعن غلاء التبغ وعن مطامع حصر الدخان، ويقولون إن الناس متساوون وأن جوريس صديق مشهور.

لم أشغل بالي قط بمثل هذه الأحاديث. كنت أكثر حباً لأتبوأ مكاني تحت قوس الشباك قرب الصبايا أضحك لضحكهن، وألقي بأزهارهن على وجوههن، وأمثل دور الغاضب حتى يبحن لي بأسرارهن وبحكايات أخرى هامة. ما أكثر فرح الجميلة (جرترود) إذا جئت فجلست قربها. إنها فتاة تشبه وردة متفتحة وعندما

تلقي بنفسها على عنقي يوماً ما أعتقد أنها تكاد تشتعل ثم تتبخر بين ذراعي.
أمّا الجميلة (كاترين) فهي التي أحس في عذوبتها بانسجام الألحان عندما تحدثني، والتي أرى في عينيها زرقة صافية حميمة، زرقة لم أجد مثلها في الناس ولا في الحيوان، وقلما وجدت مثلها في الأزهار. يمكنك إذا رأيت عينيها أن تحكم بكثير من الأشياء الرقيقة! ولكن الجميلة (هيدويك) تحبني، لأنها عندما اقترب منها تحني رأسها إلى الأرض ويسقط شعرها الأسود على وجهها، فيحمر، ولا أكاد أرى إلاّ عينيها المتألقتين مثل نجوم سابحة في سماء قاتمة، وأنا أيضاً لا أستطيع أن أقول لها شيئاً. أسعل فترتجف. وتنقل إليّ أحياناً عن طريق أخواتها وصيتها في أن لا أتسلق الصخور في سرعة وفي ألاّ أستحم في نهر (الرين) إذا كان الجو حاراً أو إذا كنت شربت خمراً. سمعت مرة صلاتها التقية أمام صورة العذراء الصغيرة المزخرفة بشذرات الذهب والتي يُضيئها قنديل يحترق في قفص فوق الباب. سمعتها في وضوح تتوسل إلى السيدة أم الآله أن يمنعه... من تسلق الصخور ومن السباحة ومن شرب الخمر. كنت واثقاً أني سأصبح عاشقاً لهذه الفتاة الجميلة لو أنها كانت غير مبالية بي، ولكني غير مبالٍ بها لأنها تحبني... يا سيدتي عندما تريد امرأة أن تجعلني محباً لها فيجب أن تعاملني مثل كلب.

(جوهانا) الحسناء هي ابنة عم الأخوات الثلاث وجئت أجلس قربها مسروراً. إنها تعرف أجمل الأساطير، وعندما تشير بيدها البيضاء من النافذة إلى الجبال التي دارت فيها كل الحوادث التي ترويها، أبقى مسحوراً: الفرسان القدماء يخرجون في وضوح من بين خرائب قصورهم، وثيابهم من الحديد ترن تحت الضربات التي يكيلونها، وجنية نهر الرين، الحسناء (لوريلي) تبدو على قمة الجبل وتغني أغنيتها العذبة الخطرة والمخيفة، وترنو إليّ الحسناء (جوهانا) في شكل خاص، وهي كثيرة الود كثيرة الغرابة وكأنها تنتمي هي نفسها إلى عالم السحر والوهم الذي تنقل إليّ أعاجيبه. إنها فتاة شاحبة رشيقة مرضت مرضاً قتالاً، تحلم دائماً، وعيناها صافيتان كأنهما الحقيقة مجسمة، وشفتاها مكوزتان في ورع، وفي ملامح وجهها تقرأ تاريخاً طويلاً، ولكنه تاريخ قدسي. يا لها من أسطورة حب! أية أسطورة؟ لست أدري، ولست أجرؤ على سؤالها عنها. عندما أتأملها طويلاً أصبح صافياً هادئاً، إنها مثل يوم أحد مريح في قلبي.

في مثل هذه اللحظات كنت أقصّ عليها أخبار طفولتي، فتصغي إليّ دائماً في جد، وشيء غريب كانت إذا

عجزت عن تذكر الأسماء تذكرني هي بها. وعندما كنت أسألها في دهشة: أنىّ لها أن تعرف هذه الأسماء. تجيبني باسمة أنها عرفتها من العصافير التي تنقر زجاج نافذتها، وأرادت أن تجعلني أعتقد هي العصافير نفسها التي اشتريتها في طفولتي بما وفرت من مال من الفلاحين الصغار القساة الذين كانوا يسرقون هذه العصافير من أعشاشها والتي كنت أطلق سراحها وأعيد لها حريتها. ولكني كنت أعتقد أنها تعرف كل شيء. كانت شاحبة جداً، والحق أنها لم تلبث أن ماتت. وكانت تعرف كذلك متى تموت، وأرادت أن أفارقها قبل موتها. وعندما افترقنا أعطتني كلتا يديها الرقيقتين. كانت بيضاوين ناعمتين، صافيتين كأنهما خبز القربان الأبيض... وقالت لي: أنت طيب، ولكن عندما تصبح خبيثاً تذكر (فيرونيك) الصغيرة التي ماتت.

العصافير الثرثارة أيضاً خانت اسمها. طالما كسرت رأسي في ساعات الذكرى فلم أستطع تذكر هذا الاسم العزيز الصغير.

أمّا الآن فقد وجدته. إن طفولتي الأولى تزدهر بكل ما فيها من طراوة في ذاكرتي. لقد أصبحت طفلاً، ألهو وألعب مع الأطفال في ساحة القصر في (دوسيلدورف) على ضفاف نهر الرين.

(٦)

نعم يا سيدتي، هنالك ولدت وقد لاحظت هذه الملاحظة عمداً إذا حصل أن تنازعت بعد موتي سبع مدن ــ شيلدا، كراهفينكل، وبولكفيتز، بوكوم، دولكن، غوتينغ، وشوبنتاد، شرف أن تكون واحدة منها وطني.

دو سيلدورف مدينة على ضفة الرين، يعيش فيها ستة عشر ألف نسمة، وفيها علاوة عن ذلك مئات الألوف من الموتى المدفونين فيها، ومنهم، كما تقول أمي، مَنْ كان من الخير أن يعيش. ومنهم مثلاً جدي وخالي، البارون الشيخ كولدرن، والبارون الشاب كولدرن، وكانا كلاهما من الأطباء المشهورين الذين تولّوا شفاء كثير من الناس، ومع ذلك فقد كانا أنفسهما مضطرين إلى الموت رغم أنفهما. و(اورذول) التقية التي حملتني بين ذراعيها طفلاً، ماتت ودفنت هي أيضاً ونبتت على قبرها شجرة ورد... كانت تحب رائحة الورد في حياتها كثيراً، ولم يكن قلبها إلاّ رقة وعبير وردة! والمستشار العجوز الحذر مدفون هنالك أيضاً. يا لله كم كانت سحنته قلقة عندما رأيته آخر مرة. لم يكن إلاّ روحاً وشبحاً، ومع ذلك فقد

كان يدرس ليل ــ نهار كأنه يخشى أن تخترق الديدان دماغه فتجد فيه مكاناً خالياً من الأفكار. وأنت أيها الصديق فيلهلم تستريح هنالك أيضاً وأنا السبب في ذلك. كنا رفيقي مدرسة في معهد الفرنسيسكان، نقضي وقتنا في اللعب إلى جانب المعهد حيث يمر نهر (الدوسيل) بين الجدران الحجرية وقلت لك: يا ولهيلم، اذهب وانقذ هذه القطة الصغيرة التي سقطت في النهر. ولقد وضع رجله فرحاً على اللوح الذي يقطع النهر وأخرج القطة الصغيرة من الماء، ولكنه سقط هو نفسه في النهر، وعندما التقطوه كان مبللاً وميتاً... وعاشت القطة الصغيرة بعده زمناً طويلاً.

مدينة (دوسيلدورف) جميلة جداً وعندما يفكر فيها الإنسان، وهو بعيد عنها، وعندما يكون مولوداً فيها يشعر بعاطفة غريبة. لقد ولدت فيها ويُخيّل لي أنني في حاجة إلى العودة فوراً إلى وطني. وعندما أقول الوطن فأنا أتحدث عن شارع (بولكر) وعن البيت الذي رأيت فيه النور. هذا البيت سيكون ذات يوم ذا مكانة مرموقة، ولقد جعلت المرأة العجوز التي تمتلكه تقول إنها لن تبيعه بأي ثمن، إنها لا تكسب في كل البيت ما تكسبه الخادمات من مرابح لقاء زيارة النبيلات الانكليزيات المبرقعات بالأخضر، اللواتي يأتين ليرون الغرفة التي رأيت فيها النور أول مرة والقن الذي كان يسجنني فيه أبي عندما أسرق العنب، والباب الرمادي الذي كانت تعلمني أمي كتابة الأحرف عليه بالطباشير... آه يا رب... لقد أصبحت يا سيدتي كاتباً، وما أكثر ما أرهقت أمي المسكينة بالمتاعب. ولكن شهرتي ترقد في كتلة من الرخام في (كارار). إن الإكليل الفني الذي يزين جبهتي لم ينشر حتى الآن عطوره في العالم، وعندما تأتي النبيلات الانكليزيات المبرقعات بالأخضر إلى (دوسيلدورف) يمررن دون أن يتوقفن أمام المنزل المشهور. أو يمضين مباشرة إلى ساحة السوق ليرون التمثال الأسود الضخم الذي ينتصب في وسطها. إن هذا التمثال يمثل المندوب (جان فيلهلم) يلبس دائماً درعاً سوداء وله ناصية طويلة الشعر تنوس. في طفولتي سمعت أن الفنان المكلف بصهر المعدن لهذا التمثال، لاحظ في خوف، أثناء العملية أن كمية المعدن ليست كافية فهرع عندئذ برجوازيو المدينة وحملوا معهم ملاعقهم الفضية لإتمام عملية الصهر... وطالما وقفت ساعات طويلة أمام صورة هذا الفارس وكسرت رأسي في حساب عدد الملاعق الفضية التي ألقيت في تمثاله، وعدد الشطائر بالتفاح التي يمكن أن يحصلوا عليها بثمن كل هذه الملاعق. إن الشطائر بالتفاح كانت عند ذلك في بيتي، أمّا الآن فإنه الحب والحقيقة والحرية وحساء السلحفاة... وغير بعيد من تمثال المندوب في زاوية المسرح يقوم في

العادة مضحك معجون في شكل غريب، له ساقان على هيئة السيف، وصدار أبيض ويحمل على صدره معلقة بعنقه سلة ملأى بهذه الشطائر الطيبة بالتفاح، يعرف كيف يشيد بها في صوت أجش ولهجة لا تُقاوم: ـ الشطائر طازجة، خرجت الآن من الفرن. ذوقوا الشطائر... الحق أنني في سنوات بلوغي كلما أراد الإغراء أن يستولي عليّ استعار هذا الصوت المغوي... ولو أن السنيورة (جيوليتا) لم يكن لها هذه اللهجة العذبة المعطرة لشطائر التفاح لم أقض عندها اثنتي عشرة ساعة. والحق أيضاً أن شطائر التفاح لم تكن تغريني هذا الإغراء لو أن (هيرمان) الأصدق لم يكن يغطيها بصداره الأبيض.. إنها الصدارات هي التي... ولكن الصدارات تجرني وتخرجني عن موضوعي... كنت أتحدث عن التمثال الفروسي الذي يبتلع في بطنه كل هذه الأعداد الهائلة من ملاعق الفضة، ولا حساء، والذي يمثل المندوب (جان فيلهلم).

لعله كان سيداً باسلاً يحب الفنون كثيراً، وكان هو نفسه لبقاً جداً. أسس متحف اللوحات في (دوسيلدورف) وفي المعرض يقدمون لك منظر قدح من الخشب هو الذي نحته فنياً في ساعات فراغة... وساعات فراغه لا تقل عن أربع وعشرين ساعة في اليوم الواحد.

في ذلك الزمن لم يكن الأمراء أشخاصاً معذبين، كما هم اليوم. كان التاج ينمو على رؤوسهم ويتمسك بموقعه. وكانوا في الليل يلبسون فوقه طاقية من القطن وينامون في هدوء وكانت الشعوب تنام عند أقدامهم في هدوء وعندما يستيقظ هؤلاء صباحاً يقولون: صباح الخير يا أبي، فيجيب الأمراء صباح الخير يا أولادي الأعزاء.

وفجأة تغير كل شيء. ذات صباح عندما استيقظنا في (دوسيلدورف) وأردنا أن نقول صباح الخير يا أبي، كان الأب قد طار وساد المدينة كلها ذعر أصم. كانت هيئة الناس رهيبة جنائزية وكانوا يذهبون إلى السوق في صمت ويقرأون هنالك ورقة طويلة أُلصِقت على دار البلدية. كان الطقس قاتماً ومع ذلك فقد كان الخياط الرقيق (كيليان) يلبس معطف (نانكين) الذي لم يكن يرتديه إلاّ في البيت، وكانت جواربه الصوفية تهبط على عقبيه، في شكل يتيح ظهور ساقيه العاريتين الصغيرتين في حزن، وكانت شفتاه الرقيقتان ترتجفان، وهو يقرأ الورقة الملصقة على ذلك الباب. وكان أحد المشوهين العجائز من (بالاتينات) يقرأ في صوت عال تقريباً، وعند كل كلمة كانت تسقط دمعة صافية على شاربه الأبيض الوفي. كنت قريباً منه

وكنت أبكي معه وأسأله لماذا نبكي وأجابني: إن المندوب يشكر أتباعه على تمسكهم المخلص به، ثم استمر في القراءة وعند هذه الكلمات «وهو يفيهم من إيمان الإخلاص.» زاد بكاء ونحيباً. إنه لشيء لا يمكن التعبير عنه أن ترى مثل هذا الإنسان العجوز يبكي فجأة بكاء مراً وهو يلبس بزته العتيقة ويحمل وجهاً تملؤه الجراح والندوب. وبينما كنا نقرأ رفعوا الشعار الانتخابي الذي يزين دار البلدية. لقد اكتسى كل شيء مظهراً مقلقاً مزعجاً حتى يخيل إليك أن الناس ينتظرون كسوف الشمس. السادة المستشارون البلديون كانوا يتنزهون في بطء في وجوه أزيل عنها صمغها، حتى إن مفوض الشرطة الجبار يبدو أنه لا يستطيع أن يمنع شيئاً، وينظر إلى كل ما حوله في لا مبالاة هادئة، رغم أن المجنون (آلواسيوس) كان يرقص، كعادته بساقه اليمنى وهو يغضن وجهه ويرتل أسماء القواد الفرنسيين. أمّا (غومبرتز) السكير فكان يتخبط في النهر ويغني «مالبوروج تمضي إلى الحرب» أمّا أنا فمضيت إلى البيت وجعلت أبكي وأقول: المندوب يشكرنا. وحاولت أمي في رقة تهدئتي، وأنا أعلم ما أعلم فلا أدع نفسي تقتنع، ومضيت لأنام وأنا أبكي، وفي الليل حلمت أن العالم سوف ينتهي. لقد خطفوا حدائق الزهر الجميلة والمروج الخضر من وجه الأرض ولفوها كما يلفون السجاجيد، ومفوض الشرطة صعد على سلم عالية وأنزل الشمس من فلكها كأنها مرآة معلقة على الحائط، وكان الخياط (كيليان) واقفاً هنالك قريباً يقول لنفسه: ينبغي أن أذهب إلى البيت وأن أعنى بهندامي، لأني ميت وسيأتون لدفني اليوم. وأصبحت السماء أكثر قتاماً شيئاً بعد شيء، وكانت بعض النجوم تلمع لمعاناً شحيحاً وتسقط أيضاً على الأرض مثل الأوراق الصفراء في الخريف، واختفى الناس رويداً رويداً، أمّا أنا الطفل المسكين فكنت أتشرد هنا وهنالك في قلق. ووقفت أخيراً قرب مزرعة ورأيت رجلاً يقلب التراب برفشه، وإلى جانبه امرأة قبيحة تحمل على صدارها شيئاً يشبه رأساً مقطوعاً. إنه القمر وضعته في عناية في الحفرة المفتوحة وسمعت من ورائي المشوّه العجوز ينتحب ويتهجّى هذه الكلمات «المندوب يشكر رعاياه».

عندما استيقظت ظهرت الشمس مرة أخرى كالعادة على النافذة، وسمعت في الشارع قرع الطبول، وعندما دخلت إلى غرفة والدي لأقدم له تحية الصباح وجدته يلبس معطفه الأغبر وسمعت حلاقه يقول له: اليوم يجب تأدية القسم للدوق الكبير (يواشيم) الجديد في دار البلدية، وإن هذا الدوق من أفضل الأسر وإنه تزوج أخت الأمبراطور (نابوليون) وأنه ذو مظهر لائق بخصلات شعره الأسود الجميلة، وأنه

سيدخل البلدة قريباً وسترضى عنه النساء جميعاً. وخلال ذلك كان الطبل يواصل قرعه في الشارع. خرجت إلى باب البيت ورأيت عرض جيوش فرنسية، إنها تمثل شعباً مولعاً بالمجد يخترق العالم، وهو يغني وترن موسيقاه، وجوه رماة القنابل الصارمة الهادئة، القبعات من جلد الدببة، الشعارات المثلثة الألوان، الحراب اللامعة، المشاة الذين تفعمهم الحيوية والحرص على الشرف. والطبل الكبير الواسع الأساسي وصاحبه المطرّز بالفضة الذي كان يعرف إلقاء عصاه ذات اليد المذهبة حتى تصل إلى الطابق الأول، ويلقي نظراته حتى الطابق الثاني الذي تنظر الفتيات من خصاص نوافذه إلى العرض.

لقد سرّني أن أرى جنوداً يقيمون في البيت (وذلك ما لم يسر أمي)، وهرعت إلى ساحة السوق. كان منظرها مختلفاً جداً عمّا كان. يبدو أن الوجود كله قد تزين من جديد. شعار جديد رفعت في دار البلدية، والشرفة مغطاة بنسيج مخملي مطرز، ورماة قنابل فرنسيون يقومون بالحراسة، والسادة المستشارون الشيوخ لهم وجوه مهللة، ويرتدون ملابس الأعياد والآحاد، وينظر بعضهم إلى بعض على الطريقة الفرنسية ويقول بعضهم لبعض بالفرنسية: صباح الخير! ومن كل النوافذ تنظر النسوة إلى الموكب، كان البرجوازيون الطلعة والجنود المتألقون يغطون الساحة، وكنت أنا وبعض الأطفال من أمثالي نتسلق حصان المندوب الكبير لكي نرى كما يحلو لنا كل الجمهور الصاخب في السوق.

كاد (بيير) ابن جارنا، و(كورتز) الطويل يدقان عنقهما في هذه المناسبة وكان ذلك قضية حسنة لأن أحدهما هرب من منزل والديه بعد حين، وذهب من الجنود، ثم فرّ وأُعدِم بالرصاص في (مايانس) أمّا الثاني فقد قام باكتشافات جغرافية في جيوب الآخرين وسُمي لهذا الاعتبار عضواً عاملاً نشيطاً في منزل الإصلاح، فكسر قيوده التي تربطه بهذا البيت وبالوطن، ذات يوم، وقطع البحر ومات في (لندن) بسبب ربطة عنق ضيقة، ترتبط تلقائياً وتضيق عندما يقوم موظف ملكي بسحب اللوح الذي تستند إليه القدمان.

قال لنا (كورتز) الطويل إن المدرسة اليوم في عطلة بمناسبة أداء اليمين. وكان علينا أن ننتظر طويلاً حتى تظهر هذه اليمين. وأخيراً امتلأت الشرفة بسادة أنيقين وبأعلام وبصنوج وأبواق، وقام السيد رئيس البلدية، في ثيابه الحمراء المشهورة بالقاء خطاب يطول ويمتد كأنه قبعة من قطن محبوكة ألقيت فيها حجراً... ليست هي حجر الفلاسفة. سمعت آخر كلماته قال في وضوح إنهم يريدون أن يجعلونا

سعداء، وعند هذه الكلمات قُرِعت الطبول ورفرفت الأعلام وزعقت الأبواب ودوّت الهتافات في كل مكان. وصرخت أنا نفسي: عاش وأنا أتشبث بكل قواي بشعر المندوب العجوز المستعار. وكان ذلك الحذر والاحتياط ضرورياً، لأني أصبت بدوار، وخيل إليّ أن الناس جميعاً هناك يسيرون على رؤوسهم لا على أقدامهم لأن العالم انقلب رأساً على عقب عندما قال لي المندوب العجوز في صوت خافت: تمسك جيداً بشعري المستعار العجوز. ولم أعد إلى صوابي إلاّ بدويّ المدفع في الساحة فهبطت في بطء عن صهوة الحصان المنتخب.

عندما عدت إلى البيت رأيت المجنون (الواسيوس) يرقص على ساق واحدة ويدمدم بأسماء القادة الفرنسيين ورأيت (غومبرتز) السكير يركض في الشوارع وهو يصهل لاهثاً: «ملبوروج تمضي إلى الحرب» وقلت لأمي: «يريدون أن يجعلونا سعداء ولذلك فنحن في عطلة عن المدرسة».

(٧)

في اليوم التالي عاد الناس إلى ديدنهم ونظامهم، وفتحت المدرسة أبوابها كما كانت، وعدنا إلى حفظ أسماء ملوك الرومان عن ظهر قلب، وتواريخ الأيام والحوادث و nomina en imوالأفعال الشاذة واللغة اليونانية والعبرية والجغرافية واللغة الألمانية والحساب... يا لله... زاد رأسي دواراً. كل هذا كان يجب أن نحفظه عن ظهر قلب. ومع ذلك فقد أدّت لي أكثر من مسألة من هذه المسائل خدمة طيبة فيما بعد، لأني لو لم أعرف عن ظهر قلب تاريخ ملوك روما فسيكون أمراً لا يهمني أن أعرف إذا كان (نيبوهر) قد أقرّ أو لم يقرّ أنهم لم يوجدوا أبداً، وإذا لم أعرف تاريخ الأيام والحوادث فكيف أستطيع أن أجد نفسي بعد ذلك في مدينة برلين الكبيرة حيث تتشابه البيوت تشابه قطرات الماء أو تتشابه تشابه رماة القنابل، بل أين يمكن أن نجد هذه المعارف لو لم تكن مرقومة في رؤوسنا. في كل زيارة أفكر في حادثة تاريخية يوافق تاريخها رقم البيت، وكذلك فإن كل شخص يذكرني بواقعة من التاريخ. عندما كان خياطي يلقاني أتذكر معركة (ماراتون) وإذا رأيت المصرفي (كريستان كامبل) بزيه الفخم تعود إلى ذاكرتي فوراً حادثة خراب بيت المقدس، وإذا رأيت أحد أصدقائي المثقلين بالديون تذكرت هجرة (محمد)، وإذا رأيت مفوّض الجامعة، وهو رجل مشهور باستقامته الصارمة فكرت في شنق (أمان) الخ.. الخ.. نعم إن تأريخ الأيام والحوادث كما قلنا هو أكثر العلوم فائدة. أعرف بعض الناس الذين ليس لهم في عقولهم إلاّ بعض التواريخ والذين

يستخدمونها بمهارة ليجدوا بعض المنازل في (برلين) وقد أصبحوا الآن أساتذة عاديين. أمّا أنا فإن علم الأرقام كان مصدر ارتباكي في المدرسة. والحساب الصرف كان أكثر سوءاً، كنت قليل الفهم للجمع والطرح أمّا في الرياضيات فكان أمرها خيراً من أمر الحساب: ففي هذه المسألة قاعدة أساسية «أربعة من ثلاثة أمر غير ممكن وينبغي أن نستعير عشرة...» ولكني أنصح كل واحد في هذه الحالة أن يقترض دائمًا بعض الفلوس أكثر مما ينبغي لأن أحداً لا يعرف ما يمكن أن يحدث...

أمّا اللاتينية فلا يمكن أن تكون لكِ فكرة يا سيدتي عن مدى تعقد هذا الشيء. ولو أن الرومان كانوا مضطرين إلى تعلم اللاتينية أولاً لما بقي لهم من الزمن ما يتيح لهم فتح العالم. هذا الشعب السعيد كان يعرف وهو في المهد أيّة الأسماء الموصوفة تأخذ im في حالة المفعول به، أمّا أنا فكان عليّ أن أعرف ذلك بعرق جبيني. ولكن من الخير لي دائمًا أن أعرفها لأني مثلاً وأنا أناقش، يوم ٢٠ تموز (يوليو) ١٨٢٥، في القاعة العامة الكبرى أطروحة لاتينية في (غوتينغ) (يا سيدتي ما أصعب أن يكون الإنسان معرضاً لاستماع الناس إليه) وحدث أن قلت: Sinapemبدل Sinapim، ولو كان هنالك بعض المتحذلقين الذين يستمعون إلى المناقشة فلاحظوها لكان ذلك عندي إهانة أبدية.

vis, buris, tussis, cucumis, amussis, cannabis, sinapis

تلك كلمات لها دوي هائل في العالم ويعود الفضل في معرفتها إلى أنها تُعلَّم في صف معين، ومع ذلك فهي تشكل استثناء. ولهذا فأنا احترمها جداً وأحتفظ بها دائمًا تحت يدي عندما أحتاج إليها، وتهب لي في كثير من الساعات الحزينة في حياتي هدوءاً وعزاء كبيرين.

ولكن يا سيدتي. إن الأفعال الشاذة صعبة صعوبة مرعبة، إنها تتميز عن الأفعال النظامية بأنها تسبب لنا كثيراً من الإحراجات والضربات. تحت الأقواس القائمة في دير الفرنسيسكان غير بعيد عن الصف يُعلَّق صليب كبير من الخشب ملون باللون الرمادي، إنه صورة من الأسى ما تزال تراودني أحياناً في أحلامي، تنظر إليّ في كآبة، بعينين ثابتتين داميتين، كنت كثيراً ما أقف أمام هذه الصورة وأصلي: ــ أنت يا أيها الإله المسكين المعذب. إذا كنت تستطيع فهبْ لي يا إلهي إمكانية حفظ الأفعال الشاذة في ذاكرتي!

أمّا اليونانية فلست أريد أن أتحدث عنها. إن كهنة القرون الوسطى لم يكونوا

على خطأ تام عندما زعموا أن اليونانية من اختراع الشيطان، والله يعرف الآلام التي عانيتها فيها. أمّا العبرية فكان الأمر أفضل، لأني كنت دائمًا أفضل اليهود رغم أنها صلبوا حتى هذه الساعة شهرتي، ولكني لم أكن أنسجم مع العبرية مثلما أنسجم مع ساعتي، التي كانت على صلات حميمية بأصحاب الرهون، والتي كان عليها خلال هذه الإقامات الطويلة عندهم أن تعتاد عليهم، وعلى العادات اليهودية. فهي مثلًا لا تسير يوم السبت وتعلمت اللغة المقدسة وتعلمتها نحوياً. وسمعتها بعد ذلك في دهشة خلال فترة نعاس تردد دون انقطاع: يوكات، بوكاديتي، بيكات، بيك بيك...

ومع ذلك فقد فهمت خير فهم اللغة الألمانية، إنها ليست لعبة أطفال، لأننا نحن معاشر الألمان المساكين الذين ترهقنا التنقلات العسكرية وخدمات الجندية والضرائب الخاصة والسخرة ذات الألوف المؤلفة من الأنواع، علينا أيضاً أن نحمل على عواتقنا (آديلوج) وأن نعذّب أنفسنا بالمفعول به والمضاف إليه. لقد تعلمت كثيراً من الألمانية من الموجه العجوز (شاليمير) وهو كاهن باسل اهتم بي منذ نعومة أظفاري. ولكني تعلمت بعض الدروس النافعة من الأستاذ (شرام) وهو رجل كتب كتاباً حول السلم الأبدي، والذي كان رفاقي في صفه يأكلون ويعبثون ما طاب لهم الأكل والعبث.

إنني وأنا أكتب دفعة واحدة ما كتبت وأنا أفكر بكل ما حدث في المدرسة أنقل إليك، غير عامد، كل وقائع المدرسة القديمة، وأنا أنتهز هذه الفرصة لكي أقيم لك الدليل على أنني إذا لم أتعلم إلّا قليلاً من الجغرافيا وأني إذا لم أستطع بعد ذلك أن أتوجه في بلاد العالم توجهاً صحيحاً، فليس ذلك من خطئي. في ذلك العهد غيرّ الفرنسيون كل الحدود، في كل يوم كانت البلاد تحدد لها حدود من جديد، البلاد التي كانت زرقاء تصبح فجأة خضراء، بل إن بعضها اكتسى حمرة الدم، وعدد الأرواح التي كانت الكتب المدرسية تذكرها في دقة طالما اختلطت وتبدلت حتى إن الشيطان نفسه لم يبق قادراً على حفظها. وتغيّرت كذلك منتجات البلاد. الهندباء بالقهوة والشمندر السكري ينموان حيث كنا لا نجد إلّا الأرانب والنبلاء الصغار الذين لا يلبثون أن يركضوا وراءها. وطباع الشعوب تغيرت أيضاً، ركن الألمان إلى الترف والراحة والفرنسيون لا يقومون إلّا بالاحتفالات، والانكليز لا يلقون المال من النوافذ، وسكان البندقية كفّوا عن أن يكونوا أكثر الناس مكراً ودهاء. وحدث كثير من التقدم بين الأمراء، والملوك القدماء تقبلوا أزياء جديدة.

وتُعجَن الآن ممالك جديدة تلقى من التوزيع والرواج ما تلقاه الأرغفة الصغيرة الساخنة، وكثير من السادة الطغاة على عكس ذلك طردوا خارج أبواب بلادهم، وأصبح عليهم أن يكسبوا عيشهم من مهنة أخرى، مثل أن يصنعوا مثلاً شمع الأختام... أو باختصار في مثل هذه الأيام لا يمكن لأحد أن ينمو بعيداً في الجغرافية.

وكنت في وضع أفضل نسبياً في التاريخ الطبيعي، هنا يمكن أن نصل إلى كثير من التغيرات، وهنالك كثير من اللوحات واضحة للقرود والكانغرو والحمار الوحشي المرقش والكركدن الخ... الخ... وبما أن هذه الأنواع من الصور بقيت في ذاكرتي فقد حدث لي بعد ذلك كثيراً أن كثيراً من الناس خيل إليّ، منذ النظرة الأولى إليهم، أنهم من معارفي القدماء.

وعلم الأساطير كان أيضاً ناجحاً، كان مما يسرّني أن أعرف أولئك الآلهة الحسان العراة، الذين يحكمون العالم في مرح. وما أظن أبداً أن طالباً في روما القديمة حفظ عن ظهر قلب كما حفظت الفصول الأساسية في كتابه الكهنوتي، ولا ألوان الحب التي مارستها فينوس على سبيل المثال. وأقول لكم في صراحة، ما دام علينا أن نتعلم عن ظهر قلب أسماء الآلهة القدماء فقد كان علينا أن نحتفظ بها، ولم نجد بعد ذلك منفعة كبيرة ولا جدوى في حفظ أسماء آلهتنا المحدثين، المزعجين الحزانى. يمكن أن يكون هذا العلم، علم الأساطير في أعماقه ليس عديم الأخلاق إلى الحد الذي يزعمونه. مثلاً إنها لفكرة عفيفة محتشمة من (هومير) أن يوفر زوجاً لفينوس، هذه التي لها كثير من العشاق.

وكنت أجد نفسي مرتاحاً تماماً في درس الفرنسية للأب (أولنوا) وهو مهاجر فرنسي كتب مجموعة من كتب النحو ويلبس شعراً مستعاراً أحمر، ويهتاج في شكل مضحك عندما يشرح فنه الشعري وتاريخه الألماني. إنه الوحيد في المدرسة الذي يعلّم تاريخ ألمانيا. ومع ذلك فإن للغة الفرنسية مصاعبها ولكي نتعلمها يجب لذلك كثير من الثكنات العسكرية وكثير من الطبول، ويجب قبل كل شيء ألّا تكون ألمانياً غبياً كما يقول معلمونا اللغويون ذوو الكتافيات الذهبية.

قسماً يا سيدتي. لقد أتقنت الفرنسية، لم أفهم اللهجات وحدها، بل فهمت فرنسية الطباخين والنبلاء الألمان. وأخيراً في مجتمع نبيل فهمت نصف الحوار الذي دار بين سيدتين من الكونتات الألمانيات، كل واحدة لها أربع وستون سنة ومثل

ذلك من الأجداد. نعم، وفي مقهى برلين الملوكي سمعت مرة السيد هانس ـ ميشيل مارتانس يتحدث بالفرنسية ففهمت كل كلمة رغم أنها لم تكن ذات معنى. يجب أن تفهم روح اللغة، وهذه الروح تُفهَم تماماً بمساعدة الطبل. قسمًا يا سيدي ما أكثر ما أدين للطبل الفرنسي الذي أقام طويلاً في دار أبي بأمر بإيوائه، كان في شكل شيطان، وفي طيب ملاك، وكان يجيد القرع على الخصوص.

كان وجهاً صغيراً متحركاً له شارب أسود مخيفة تبرز تحته في فخار شفتان غليظتان حمراوان، وعيناه تقدحان الجمر في كل الجهات.

أما أنا الطفل الصغير فكنت أتشبث به كالطحلب وأساعده في تلميع أزراره حتى يصبح كالمرآة وفي تبيض سترته بالطباشير، لأن السيد (لوكران) يجب أن يرضي أذواق الناس، وألحق به إلى الحرس وإلى النفير وإلى الاستعراض... ولم يكن إلاّ فرحاً وقعقعة سلاح... لقد انقضت أيام العيد.

لم يكن السيد (لوكران) يفهم إلاّ أسمالاً من اللغة الألمانية، إلاّ التعابير الأساسية: الخبز.. القبلة... الشرف، ولكنه يجيد التفاهم بصندوقه... وهكذا فعندما لا أعرف ما تعني كلمة الحرية يقرع لي نشيد المارسيليز فأفهم، وإذا جهلت معنى المساواة قرع لي نشيد: حسناً حسناً الأرستقراطيون إلى المشنقة؛ فأفهم، وإذا جهلت معنى حماقة قرع نشيد (دسّو) وهو النشيد الذي قرعناه، نحن الألمان، في (شامبانيا) فأفهم. أراد يوماً أن يفسّر لي معنى كلمة ألمانيا، فقرع لي ذلك اللحن البسيط الابتدائي الذي يعزفونه أيام المعارض أمام الكلاب الراقصة والذي يرن هكذا؛ دُم دُم دم[1] فغضبت ولكني فهمت.

كان يعلّمني بالطريقة نفسها التاريخ الحديث. ولم أفهم، والحق يُقَال، الكلمات التي قالها لي، ولكنه وقد كان يطبل دائمًا وهو يتحدث عرفت ما كان يريد أن يقول. الحق أن هذه هي أفضل الطرق في التعليم. يفهم الناس جيداً تاريخ الاستيلاء على (الباستيل) وقصر (التويلري) الخ... عندما يعرفون ما يقوله الطبل في هذه المناسبات. أمّا في ملخصاتنا المدرسية فلا يقولون إلاّ هذا:

«أصحاب العطوفة البارونات والكونتات والسيدات زوجاتهم قطعت رؤوسهم».

---

(١) دم بالألمانية تعني: غبي.

«وأصحاب الفخامة الدوقات والأمراء وصاحبات الفخامة زوجاتهم قطعت رؤوسهم.»

«صاحب الجلالة الملك وزوجته الملكة قطع رأساهما.»

ولكن عندما تسمع رنين لحن السير الدموي إلى المقصلة تفهم تماماً هذه الأمور، وتشعر بأسبابها.

إنه يا سيدتي نشيد رهيب. يجعلني أرتجف حتى نخاع العظام عندما أسمعه وأسرّ إذا نسيته. ومثل هذه الأشياء تنبسها الشيخوخة. إن للشباب أموراً كثيرة ينبغي أن يحفظوها في رؤوسهم؛ الوست، والبوسطن والبلاسون، نظام تشريفات مجلس (الدييت)، فن التمثيل، الطقوس المسيحية، وطريقة البروز على المنضدة. الحق أني أعاني كثيراً لكي أتعلّم لحناً. ولكن فكّري يا سيدتي: ذات يوم كنت أجلس على منضدة مع لفيف من الكونتات والماركيزات والأمراء والمستشارين والأمناء ومديري القصر وضباط الحرس والمحافل، كما يُسمى كل هؤلاء الخدم الممتازين، وكان خدمهم الذين تحتهم يتزاحمون وراء كراسيهم، ويقدمون لهم الصحاف الملأى. أمّا أنا فكنت لا يراني أحد، جلست دون عمل لا يشغل فكيّ شاغل، وليست لي قيمة فتسليت عن الضجر بقرع أصابعي، وفجأة ويا لدهشتي، قرعت نشيد السير الدموي إلى المقصلة وكنت قد نسيته من أمد بعيد. — وماذا حدث؟

يا سيدتي، هؤلاء الناس لم ينزعجوا في مائدتهم، لم يعرفوا أن هنالك آخرين إذا لم يجدوا ما يأكلونه فسرعان ما يقرعون الأناشيد التي ظنوا أنهم نسوها تماماً.

أترى قرع الطبل موهبة فطرية في نفسي أم أني أنا الذي طوّرتها من نعومة أظفاري؟ الحق أنه في كل جسدي، في كل أعضائي، في يدي وفي قلبي يبدو واضحاً دون إرادة مني. كنت مرة جالساً في برلين في حضرة المستشار الحميم (شمالتز) الرجل الذي أنقذ الدولة بكتابه حول خطر المعاطف السود والمعاطف الحمر... تتذكرين يا سيدتي أنك قرأت في (بوزانياس) أن مؤامرة خطيرة اكتشفت عن طريق نهيق حمار، وأنت تعرفين أيضاً في كتب (تيت ليف) أو في كراس (بيكر) أن الإوزّات أنقذت (الكابيتول) وفي رسالة (سالوست) أن حظية ثرثارة هي السيدة (فلوفيا) أجهضت تلك المؤامرة المخيفة لـ(كاتيلينا)... ومع ذلك، ولكي أعود إلى

خروفي المذكور كنت أتابع في مجلس المستشار الحميم (شمالتز) حوارات حول حق الشعوب. وذلك بعد ظهيرة صيف مملة، وكنت جالساً على مقعد وكان يخفّ ما أسمعه شيئاً فشيئاً... وكان رأسي ناعساً، عندما استيقظت فجأة على ضجة قدمي، وكانتا قد ظلّتا يقظتين، ولعلهما كانت تسمعان أنهم يدعون تماماً إلى معارضة حق الشعوب. وأنهم يسبون الأفكار الحرة، وهاتان القدمان، وقد غضبتا، هاتان القدمان المسكينتان، الخرساوان، العاجزتان عن التعبير عن آرائهما بالكلام أرادتا أن تدعوا إلى فهمهما بقرع الطبل، فقرعتاه وحتى كادتا تشفيان بي على كارثة.

الشباب الطائش، والقدمان النزقتان عبثا بي مثل هذا العبث ذات يوم في (غوتينغ) وكنت في درس الأستاذ (سالفيلد) الذي كان في حركته المفصلية يقفز في مقعده من جهته إلى جهة، ويتحمس ويهتاج لكي يستطيع في حرارة شتم الأمبراطور (نابوليون)... لا يا قدمي المسكينتين، لست أستطيع لومكما، بل لست أنكر عليكما لو أنكما عبرتما عن شعوركما تعبيراً أكثر حدة وعنفاً، لقد سمعك مَنْ في القاعة وأنت تقرعين الطبول على أرض الغرفة. أأستطيع وأنا تلميذ (لوكران) أن أسمع إهانة الامبراطور! الامبراطور، الامبراطور، الامبراطور العظيم؟!

عندما أفكر في الامبراطور العظيم تحفل ذاكرتي بصور ذهبية وخضر مثل الربيع، ويمتد فجأة أمامي معبر طويل من أشجار الزيزفون، تغني تحت أغصانه المتشابكة عنادل مرحة، ويتمتم شلال ماء، وعلى أحواض الأزهار المستديرة تنحني زهرات يانعة برؤوسها الصغيرة، وهي تفكر، ويبدو لي أن الزنابق تحييني في زهوٍ وهي تترجح، وأن السوسن يميل إليّ في كآبة، وتضحك الورود لي، ويتنهد البنفسج، وأنتقل في حديقة قاعة الدرس في (دوسيلدورف) التي طالما استلقيت على أعشابها وأنا أصغي في خشوع إلى السيد (لوكران) الذي يقصّ عليّ الوقائع البطولية للأمبراطور العظيم ويقرع على الطبل الأناشيد التي رافقت تلك الوقائع، حتى كأني أراها وأسمعها فعلاً... وهكذا أرى المسيرة عبر(سامبلون) والامبراطور يتقدم صفوف مشاته البواسل الذين يتسلّقون ويقفزون بينما تطير الطيور الجوارح مذعورة وهي تصطفق وتصيح، وتفرقع الثلوج المتراكمة على الجبال من بعيد... أرى الامبراطور والراية في يمينه على جسر (لودي). أرى الامبراطور في معطفه الرمادي في (مارانجو)... أرى الامبراطور على صهوة حصانه في معركة الإهرامات لا شيء إلّا دخان البارود، والمماليك... أرى الامبراطور في معركة (أوسترليتز)... آه ما أكثر الرصاص الذي يصفّر على السهل المتجمد، أرى وأسمع معارك (ايليو)

و(فاغرام). . كلا لا أستطيع أن أتذكرها وأحفظها إلاّ في صعوبـة. إن السيد «(لوكران) يقرع طبله في شكل يمزق صماخ أذني.

(٨)

ماذا يحدث لو رأيته هو نفسه بعيني هاتين، لو رأيته هو شخصياً بلحمه ودمـه، مرحى لـلامبـراطـور؟ إنـه يـدخـل في هـذا الممـر من حـديقـة بـلاط (دوسيلدورف). وأنا أحشر نفسي في الجمهور الذاهل، وأفكر في الوقائع والمعارك التي طالما قرعها لي السيد (لُوكران) على طبله، وقلبي يدق في عنف، ومع ذلك فأنا أفكر في الوقت نفسه بأوامر الشرطة التي تمنع المرور على صهوة الحصان في الممرات، تحت طائلة دفع غرامة تبلغ ٥ تاليرات. والامبراطور مع حاشيته يسيرون على صهوات خيولهم في وسط الممرات، والأشجار الممنوعة تنحني إلى أمام كلما تقدم، وأشعة الشمس تختال وهي تترجح وفي فضول خلال الأوراق الخضراء، وعلى السماء الزرقاء نرى في وضوح نجمًا ذهبياً يلمـع. الأمبراطـور يلبس زيّه العسكري الأخضر، وقبعته الصغيرة التاريخية. كان يركب حصاناً صغيراً أبيض والحصان يسير مختالاً وفي هدوء وفي ثقة وفي طريقة متميزة. . . ولو كنت آنذاك الأمير الملكي لبروسيا لغبطت هذا الحصان الصغير على حظه. إن الأمبراطور يميل في لامبالاة على سرجه، ودون دعم، وبيد واحدة يمسك لجامه العالي، وباليد الثانية يربت في صداقة على عنق الحصان الصغير. . . إنها يـد من الرخـام تلمع في الشمس، يد قوية، يد من هذه الأيدي التي غلّت الفوضى والغول ذا الرؤوس الألف، ونظّمت صراع الشعوب، وهو يضرب في طيبة عنق هذا الحصان. ووجهه له أيضاً هذا اللون الذي نجده في الرؤوس الرخامية للتماثيل اليونانية والرومانية، قسمات الوجه منتظمة منسجمة في نبل، مثل تلك الوجوه القديمة، ونحن نقرأ في ملامحه وقسمات وجهه: «لن يكون لكم إله غيري». وهناك بسمة توحي بالدفء وتهب السكينة ترفرف على شفتيه، ومع ذلك فيعرف الناس أنْ ليس على هاتين الشفتين إلاّ أن تصفرا، ثم لا وجود لبروسيا، ليس على هاتين الشفتين إلاّ أن تصفرا وينهدّ (الفاتيكان). ليس عليهما إلا أن تصفرا، وكل الامبراطورية الرومانية تترنح وترقص وتميد. ومع ذلك فهاتان الشفتان تبتسمان، والعينان أيضاً تبتسمان. إنهما عينان صافيتان كالسماء، تستطيعان قراءة ما في قلوب الناس، تريان في سرعة وبنظرة واحدة كل أمور العالم، بينما لا نراها نحن إلاّ أمراً بعد أمر، بل لا نرى

غالباً إلّا ظلالها الملونة. لم تكن الجبهة في مثل هذا الصفاء. هنا ترفرف عبقرية المعارك، هنا تجتمع أفكاره بهجماته إلى مدى سبعة فراسخ، التي كانت عبقرية الأمبراطور تخترق بها العالم، وأعتقد أن كل فكرة من هذه الأفكار تستطيع أن تقدم لكاتب ألماني ما يحتاجه من نسيج يكفيه للكتابة طول حياته.

كان الامبراطور يسير على صهوة حصانه في الممر في هدوء. ولم يمنعه شرطي من ولوج الممر. ووراءه تمضي حاشيته مثقلة بالذهب والرياش ممتطية خيولاً مزبدة الأشداق. قُرِعت الطبول، ونفِخت الأبواق. وإلى جانبي كان المجنون (آلواسيوس) يرقص ويدمدم باسماء قواعده، والسكير (غومبرتز) في مكان أبعد يخور بنشيد (مالبوروغ) والشعب يصرخ بألوف الأصوات: ـ عاش الأمبراطور.

(٩)

مات الامبراطور! مات في جزيرة صغيرة في بحر الهندوس وهناك يقوم قبره المتوحِّد، وهو الذي كانت الأرض كلها ضيقة جداً عليه. هناك يرقد هادئاً تحت تلّة هزيلة تلقي عليها خمس صفصافات باكيات شعرها الأخضر الطويل، ويجري فيها غدير ورع يرسل دمدمة شاكية. ليس على الشاهدة كتابة ولكن (كليو) حفر في حروف لا تُرى كلمات سوف تدوي عبر العصور مهما بعدت.

يا بريطانيا العظمى، أنت تملكين البحر، ولكن البحر ليس فيه من الماء ما يكفي لغسل العار الذي ألحقه بك هذا الدفين العظيم وهو يموت. ليس صاحبك السير (هدسون) بل أنتِ التي كنت الجلواز السيسيلي الذي كلّفه الملوك المتآمرون لكي يثأروا سراً من هذا الرجل الذي جاء من قلب الشعب من كل ما مارسته الشعوب جهراً ضد واحد منهم. ولقد كان ضيفاً عليك، كان يجلس في بيتك!

خلال أبعد العصور سوف يغني أطفال فرنسا ويرددون هذه الضيافة المخيفة التي قدّمها (بيلليروفون) وعندما تدوّي هذه الأغاني الساخرة فيها وراء القناة فسوف تحمرّ خجلاً كل خدود الانكليز الشرفاء. وسيحدث يوماً أن تُسمَع هذه الأغنية وعندئذ لن تكون انكلترا موجودة. سيرقد في الغبار هذا الشعب المتكبر، وسوف تتهدم خرائب قبور (وستمنستر) وتتناثر. والرماد الملكي الذي تضمه سوف تذروه الرياح ويصبح نسياً منسياً. و(القديسة هيلانة) ستصبح قبر «السيد المسيح» الذي تحج إليه شعوب الشرق والغرب على ظهر مراكب مزينة بالأعلام وقد شُدّت قلوبهم وزادتها صلابة ذكرى المسيح الدنيوي العظيمة، هذا المسيح الذي تعذب تحت سلطة

(هدسون لوي) كما ورد ذلك في أناجيل (لاس كان أوميرا) و(أنطو مارشي).

شيء غريب، الثلاثة الكبار من أعداء الأمبراطور عانوا جميعاً مثل هذا الحظ التعيس. (لوندونديري) قطع عنقه؛ لويس الثامن عشر تفسّخ فوق عرشه. والأستاذ (سالفيلد) لا يزال أستاذاً في (غوتينغ).

(١٠)

حدث ذلك في يوم صافٍ وبارد من أيام الخريف. شاب، يبدو في مظهر طالب، كان يتنزّه في بطء في ممرات حديقة بلاط (دوسلدورف). كان أحياناً في مرح الطفولة يقذف بقدمه الأوراق المطوية التي تغطي الأرض، وكان أحياناً يرفع عينيه في حزن نحو الأغصان اليابسة في الأشجار التي لا تزال تتمسك ببعض الأوراق الصفراء. وأذكرته هذه الرؤية كلمات (جلوكوس):

مثل الأوراق في الغابات هكذا تمضي سلالات الناس.
تلقي الريح الأوراق إلى الأرض فتيبس، وفي الربيع
تأتي أوراق أخرى وبراعم أخرى
هكذا الجنس البشري: يأتي هذا ويذهب ذاك.

خلال أيام منصرمة ظلّ الشاب يرفع أنظاره إلى هذه الشجرات وتراوده أفكار أخرى: عندما كان غلاماً صغيراً، كان يبحث عن أعشاش العصافير والجعلان التي طالما كان يُسرّ بها وهي تئز فرحة بهذه الحياة الجميلة، مسرورة بنكهة ورقة خضراء، وقطرة ندى، وشعاع شمس دافئة، ورائحة عشب ناعمة. في تلك الأيام كان قلب الطفل فرحاً مثل هذه الحشرات الخفيفة. ومنذ ذلك أصبح قلبه عجوزاً لا تتغلغل فيه الشمس، ولا يفوح فيه عبير الأزهار ولا تراوده أحلام الحب العذبة. في هذا القلب المسكين لم تبق إلّا الشجاعة والألم، ولكي أقول كل شيء، لكي أقول ما هو أكثر الأمور إيلاماً، أعلن أن هذا القلب كان قلبي.

في ذلك اليوم كنت عائداً إلى بلدتي العتيقة، مسقط رأسي، ولكني لم أرد أن أقضي فيها الليل، ودعتني رغباتي إلى (غوتينغ) لأجلس عند أقدام صديقتي، وأتحدث عن (فيرونيك) الصغيرة، جئت أزور قبوري الغالية. من كل أصدقائي، من كل أقربائي، لم أجد أحداً. لقد ماتوا أو تركوا المدينة، وكنت إذا وجدت بعض الوجوه القديمة في الشوارع لم تعرفني، وبدا لي أن المدينة نفسها تنظر إليّ بعيني غريب، كانت الوجوه الجديدة تبدو في مفارق الطرق،وحول المداخن القديمة

تطير العصافير الدورية الهرمة، كل شيء خيل إلي أنه ميت وأنه أيضاً غض مثل الأعشاب التي تنمو في مقبرة. حيث كان الناس يتكلمون بالفرنسية تسمع الكلام بالبروسية. إن بلاطاً صغيراً بروسياً عشش في هذا المكان، وحمّل الناس أتعاباً غريبة. حلاق أمي أصبح حلاق البلاط. وهناك على الخصوص خياطو البلاط، وصانعوا أحذية البلاط وأصحاب مقاصف البلاط، كأن كل المدينة مستشفى لمجانين البلاط. المندوب العجوز وحده هو الذي عرفني. إنه دائماً يقبع في مكانه القديم، خيل إلي أنه أصبح أشد هزالاً، لأنه وهو في هذه الساحة شهد كوارث العصر، ومثل هذا المشهد لا يسمن. كنت كأني في حلم، وتذكرت أساطير المدن المسحورة. وهرعت إلى باب المدينة كيلا أستيقظ سريعاً من حلمي. أكثر من شجرة خلا منها بستان البلاط، وأكثر من شجرة أصبحت متعفنة متهدلة. والنخلات الأربع الكبار، التي بدت لي آنذاك عمالقة خضراً أصبحت صغيرات كالأقزام. مرت بعض الفتيات الجميلات يتنزهن، وهن متزينات، متعطرات يشبهن زنابق رشيقات. عرفتهن، عرفت هذه الزنابق عندما كنّ بصيلات صغيرات. كنا أطفالاً متجاورين، ولعبت معهن لعبة السيدة تركب في دورها. ولكن الفتيات الجميلات اللواتي رأيتهن براعم من الورد قد أصبحن وأسفاه، وردات ذابلات، وعلى أكثر من جبهة مرتفعة كان كبرياؤها يسحر قلبي خطّ (ساتورن) بمنجله غضوناً عميقة. إن التحية الخجول لرجل عرفته غنياً متميزاً أقلقتني قلقاً عميقاً. إن الناس شأنهم في كل مكان، إذا كانوا في طريقهم إلى السقوط يخضعون لقوانين (نيوتن) وينزلقون نحو البؤس في سرعة تزداد كل حين. شخص واحد يبدو أنه تغير قليلاً. إن البارون الصغير الذي يقفز في مرح كما كان يقفز على طول حديقة البلاط وهو يرفع بيد ذيل سترته وتعبث يده الأخرى بعصاه الناعمة من الأسل. إن له دائماً الوجه الصغير القريب إلى النفس، الذي تمركزت ألوانه حول الأنف، والقبعة الصغيرة المدورة على قذاله القديم، فقط حلّت محل الشعرات السود شعرات بيض، ومهما كانت مظاهره مرحة فقد علمت أنه عاني كثيراً من العثرات والعقبات. طالما حاول وجهه إخفاءها عبثاً. إن الشعرات الصغيرات البيض على قذاله تحاول هي نفسها أن تخفي واقع الأمر وهي التي طالما ارتعشت كما تهوى.

لم أكن تعبان، ولكني شعرت بالرغبة في الجلوس مرة أخرى على المقعد الخشبي الذي حفرت عليه ذات اليوم اسم الصبية التي أحببتها، لم أكد أجد هذه الحروف، فما أكثر ما حفروا في مكانها أسماء جديدة. وأسفاه. لقد نمت ذات يوم على هذا المقعد وحلمت بالحب والسعادة «الأحلام أكاذيب» وعادت ألعاب الطفولة

القديمة كلها إلى فكري: الأساطير العتيقة الجميلة. ولكن لعبة جديدة مزوّرة، أسطورة جديدة مخيفة اختلطت بكل هذه الذكريات. إنها قصة الروحين المسكنتين اللتين خانت إحداهما الأخرى. واللتين اندفعتا في الخيانة حتى خانتا الله العظيم نفسه. يا لها من قصة مزعجة، وعندما لا يكون لك ما يشغلك فهي تبكيك. يا رب، ما أجمل الأرض آنذاك. العصافير تصدح بالثناء على آلائك الدائمة، و(فيرونيك) الصغيرة ترنو إليّ بعينٍ هادئة، ونحن نمضي لنجلس على التمثال الرخامي في ساحة القصر.. . من ها هنا يرتفع القصر القديم المهجور الذي تنبعث منه الأشباح، والذي تخرج منه في الليل سيدة لا رأس لها تتنزه فيه، وتلبس ثوباً من الحرير الأسود له ذيل طويل يرفرف، ومن ها هنالك يرتفع بناء كبير أبيض تحفل قاعاته باللوحات ذات الإطارات اللامعة ومن تحته تصطف ألوف الكتب التي كنت أفحصها مع (فيرونيك) في فضول، عندما كانت (اورزول) التقية تدفعنا على ذراعيها إلى حافة النافذة. وأخيراً وبعد أن أصبحت كبيراً صرت أتسلق السلالم العالية وأهبط بالكتب وأقرؤها مدة طويلة حتى صرت لا أخشى شيئاً، حتى النساء اللواتي لا رؤوس لهن، وأصبحت عالماً كبيراً حتى إني نسيت الألعاب الماضية والأساطير والصور و(فيرونيك) الصغيرة، بل نسيت حتى اسمها.

بينما أنا أجلس على مقعدي القديم في حديقة البلاط انكفأت على نفسي أحلم بالماضي. سمعت من ورائي أصواتاً مبهمة تندب حظ الفرنسيين المساكين الذين وقعوا في حرب روسيا، والذين اعتقلوا سنين عديدة ثم جروا أسرى إلى سيبيريا رغم عودة السلام وكان عليهم أن يعودوا إلى أوطانهم، عندما رفعت عيني رأيت في الواقع بعض أيتام المجد. إن البؤس يقطر من خلال خروق أسمال بزاتهم العسكرية الممزقة، ولكن عيونهم غائرة تجأر بالشكوى في وجوههم الكالحة، وسيرهم مترنح، وأكثرهم رغم أنهم مشوّهون أو يعرجون ما يزالون يحافظون على المشية والخطوة العسكريتيين، وشيء مضحك غريب هو أن طبلاً يحمله طبّال يجرّ نفسه على رأس هؤلاء الجنود. أول فكرة خامرتني في رعب مكتوم قصة الجنود العجيبة، هؤلاء الجنود الذين سقطوا خلال المعارك نهاراً ثم عادوا يسلكون طريق وطنهم، عندما استيقظوا في منتصف الليل في ساحات المعارك، والطبل في مقدمتهم، وتذكرت هذه الأغنية الشعبية القديمة الحزينة:

عند منتصف الليل هبّت العِظام
كل هؤلاء الموتى عادوا إلى صفوفهم

الطبل يقرع في مقدمتهم.
تران، تران تral، ترال، ترال
وعبروا بيت الصبية الجميلة.

الحق أن الطبل الفرنسي المسكين يبدو وكأنه نصف مستهلك يخرج من القبر. إنه ليس إلاّ ظلاً صغيراً يغطيه معطف رمادي، وسخ، يقطر بالدهن، وجه أصفر ميت، له شاربان كبيران يسقطان في حزن على شفتين ذابلتين، وكأن العينين جمرتان منطفئتان ما تزال فيهما بعض الشظايا والشرر، ومع ذلك فقد عرفت السيد (لوكران) بشرارة واحدة من هذه الشرارات.

عرفني هو أيضاً وجذبني إلى جانبه على العشب، ووجدنا أنفسنا مرة أخرى نجلس جلستنا الأولى عندما كان يعلمني بالطبل اللغة الفرنسية والتاريخ الحديث. إنه دائماً الصندوق المعروف العتيق. ولم أستطع أن أعجب بما فيه الكفاية: كيف استطاع أن يدافع عنه ضد الضراوة الروسية. وهو يقرع الطبل كما كان يقرعه من قبل دون أن يتكلم. وإذا ظلّت الشفتان مطبقتين في قسوة فإن العينين، اللتين تلمعان بملامح النصر عندما يقرع الأناشيد القديمة، ظلّتا أكثر فصاحة في التعبير. والنخلات قربنا تهتز وترتجف عندما يدوّي من جديد نشيد «المسيرة إلى المقصلة» الدموية. وقرع كما كان يفعل أناشيد معارك الحرية القديمة والحروب الماضيات وغزوات الامبراطور. وبدا لي أن الصندوق كائن حي، سعيد بالتعبير عن سعادته الحميمة، وسمعت مرة أخرى قصف المدافع وزمجرة الرصاص. وقرقعة السلاح، ورأيت شجاعة الحرس البطولية والأعلام المثلثة الألوان، ورأيت الامبراطور على حصانه... ولكن، ودون شعور انزلق لحن جنائزي وسط كل هذه القرعات المرحة، وانبثقت من أعماق الطبل نغمات يختلط فيها أكثر أنواع الحبور والفرح حياة بأعمق أشكال الحداد كآبة، وخيّل إليّ أن هذا النشيد نشيد نصر ونشيد جنازة في آنٍ واحد، وجحظت عينا السيد (لوكران) كأنهما عينا شبح، ورأيت حقلاً واسعاً من الجليد والثلج، أبيض اللون وحيد الشكل تغطيه جثث القتلى. كان يحارب معركة (موسكو).

ما كنت أظن أن هذا الصندوق العجوز القاسي للطبل يمكن أن يردد نغمات في مثل هذه الشكوى والضراعة اللتين يرددهما الآن السيد (لوكران)، كانت دموعاً تقرع قرعاً ويزداد رنينها عذوبة، وكأنها صدى قاتم تتردد في زفرات عميقة في صدر (لوكران). وأصبح (لوكران) رويداً رويداً أكثر ضعفاً وإرهاقاً وأخذ أكثر

فأكثر شكل شبح، وكانت يداه الناعمتان ترتجفان برداً، وخيّل إليّ أنه يحلم ولا يحرك بعضويه إلاّ الهواء. وأخيراً أرهف أذنيه كأنما يريد أن يصغي إلى أصوات نائية، ثم نظر إليّ في عين عميقة قلقة مستعطفة... فهمته... ثم سقط رأسه على الطبل.

كأن السيد (لوكران) لم يقرع طبله قط في هذه الحياة... وكأن طبله لم يردد نغمة واحدة في هذا العالم. لا يجوز أن يستخدم في جمع أعداء الحرية... لقد فهمت تماماً مغزى نظرته الأخيرة، نظرة (لوكران) المستعطفة. انتضيت حالاً السيف الذي أحمله في عكازي، وخرقت جلد الطبل.

(١١)

يا سيدتي بين الرفعة والسخرية خطوة واحدة ليس إلاّ.

ولكن الحياة جدية إلى حد جبري، لا يمكن أن تحُتَمل فيه دون هذا الترابط بين ما هو محزن وبين ما هو مضحك. شعراؤنا يعرفون ذلك. (اريستوفان) بينّ لنا أكثر صور الهذيان البشري رعباً في مرآة السخرية الضاحكة، إن يأس المفكر العظيم الذي يدرك عدميته الشخصية، لم يحاول (غوته) التعبير عنه إلاّ في الأشعار الضاحكة في لعبة من لعب الصور المتحركة (ماريونيت). وشكسبير وضع أكثر شكاياته حزناً على كوارث الانسانية في فم مجنون عندما كان يقرع جلاجله.

كلهم أخذوا نماذجهم من الشاعر الابتدائي الكبير، الذي دفع، في مأساته العالمية ذات الفصول الألف، تلك الدعابة السوداء التي لا نزال نراها كل يوم. بعد رحيل البطل يأتي دور المهرجين والمضحكين بقبعاتهم، قبعات المجانين، ويعصيهم، عصي المجانين. وبعد الفصول الدامية للجمهورية وبعد وقائع الامبراطور السامية يعود إلى الظهور سمين آل (بوربون) مع كل مهازلهم العنيفة الشرعية ومع كلماتهم الطيبة الخبيثة، وتتربع في لطف الطبقة النبيلة العتيقة تعلو شفاهها ابتسامتها الجائعة الشرهة ووراءها المنافقون الورعون يحملون الشموع والصلبان والبيارق. حتى في أسمى مآسي العالم تنزلق معالم هزلية، والجمهوري اليائس الذي يطعن قلبه بسكين مثل (بروتوس) لعله تأكد سلفاً أن نصل السكين لا يفوح برائحة السمك . على مسرح الحياة الواسع كل شيء يجري مثلما يجري على خشبات مسرحنا البائسة هنالك أيضاً أبطال سكيرون وملوك لا يعرفون أدوارهم وكواليس تبقى

فارغة، وزمّارون يزمِّرون عالياً، وألبسة تظلّ هي القضية الأساسية. وهناك عالياً في السماء، وفي الصف الأول تجلس خلال ذلك رفقة طيبة من الملائكة تحدِّق فينا نحن المهرجين، والله الكريم يبقى جالساً في جلال في مقصورته الكبيرة ولعله يخامره الملل أو أنه يحسب أن هذا المسرح لا يمكن أن يستمر طويلاً لأن بعض الممثلين يملكون كثيراً من الضمانات، وبعضهم يملكون قليلاً منها، ولأنهم جميعاً كذلك يمثلون تمثيلاً سيئاً جداً.

من السمو إلى السخرية خطوة واحدة يا سيدتي. بينما كنت أكتب نهاية الفصل السابق وأقصّ عليك كيف مات السيد (لوكران) وكيف طبّقتُ في أمانة الوصية العسكرية التي قرأتها في نظرته الأخيرة، سمعت مَنْ يقرع باب غرفتي، دخلت عجوز فقيرة وهي تسألني في لطف إذا كنت أنا طبيباً. وعندما أجبتها بالايجاب سألتني في لطف فائق أن أزورها في بيتها الثفنات (المسامير) في قدمي زوجها.

(١٢)

المراقبون الألمان ....

....

.... أغبياء ....

....

....

....

(١٣)

يا سيدتي، تحت أنصاف الكرات الحارة في (ليدا) كمنت في الماضي حرب (طروادة) كلها، ولا يمكن لك أن تفهمي دموع (بريام) الشهيرة لو لم أقص عليا سلفاً القصة المشهورة لبيضات التم. ولهذا فأنا أدعوك إلى عدم الشكوى ه استطراداتي. ليس في الفصول السابقة خط واحد لا يعود بك إلى قصتنا، أكتب شكل كثيف، أتجنب ما هو زائد، بل أحرم نفسي أحياناً مما هو ضروري، فأن مثلاً، لم أذكر في شكل لائق مرة واحدة (لا أقول الأرواح ـ الأفكار، فأنا أ على عكس ذلك أن أتحدث عن الكتاب) ومع ذلك فإن الاستشهاد بكلم الكتّاب القدامى والجدد هو اللذة المفضلة عند مؤلف ناشىء وبعض الاستشهاد

المنتقاة تزين صاحبها تماماً. لا تظني، مع ذلك، يا سيدتي أن ذلك عندي نتيجة لعدم معرفة ما يكفي من عناوين الكتب. إنني أملك ناصية رقائق الأفكار العظيمة التي تعرف تماماً كيف تستخرج حبات العنب من الحلوى، والاستشهادات في دفاتر الكلية. وعند الحاجة أستطيع أن أستدين بعض الاستشهادات من أصدقائي العلماء. إن صديقي (غانز) مثلاً هو مثل (روتشيلد) في ميدان الشواهد وهو يستطيع أن يعيرني بضعة ملايين من الشواهد بكل طيبة خاطر، وإذا لم يجدها عنده فهو يستطيع في سهولة أن يستدينها من بعض الرأسماليين المثقفين. ولكني الآن لست في حاجة إلى الاستدانة. فأنا رجل متماسك صلب عندي عشرة آلاف من الشواهد آكلها في سنة واحدة، بل إني وجدت وسيلة تمكنني من ايراد شواهد مزوّرة على أساس أنها حجج دامغة. وإذا أراد بعض العلماء الكبار الأغنياء، مثل (ميشيل بير) في برلين مثلاً أن يشتري مني هذا السر دفعته له طائعاً لقاء ١٩,٠٠٠ تالير رائج، بل إني مستعد لتخفيض المبلغ. ولمصلحة الأدب لا أريد أن أسكت عن اختراع آخر وأريد أن أعلنه مجاناً.

قلت إني أرى شيئاً نافعاً أن تورد شواهد من المؤلفين المجهولين مع رقم بيوتهم..

هؤلاء «الناس الباسلون المكرهون الموسيقيون» (هكذا كان بونس ليون ينبز الفرقة الموسيقية)، هؤلاء المؤلفون البؤساء يملكون دائماً على أقل تقدير نسخة صغيرة من كتابهم الذي نُسي منذ أمدٍ بعيد، ولكي نجد هذا الكتاب ينبغي لنا أن نعرف رقم بيوتهم. وإذا أردت مثلاً أن أورد شاهداً من كتاب الأغاني الصغير لرفاق المهنة الذي كتبه (سبيتا) فماذا تصنعين يا سيدتي لكي تعثري عليه. وإذا استشهدت بهذا الشاهد، وكتبت «كتاب الأغاني الصغير لرفاق المهنة تأليف السيد (سبيتا) لونبرغ. شارع لويز رقم ٢ إلى اليمين جانب دكان البقال»، فأنتِ يا سيدتي تستطعين إذا وجدت ذلك يستحق هذا العناء أن تدفني هذا الكتاب الصغير ولكنه لا يستحق هذا العناء.

ثم انكِ لا تدركين يا سيدتي السهولة التي أتمتع بها في إيراد الشواهد. في كل مكان أجد الفرصة المناسبة لإظهار اطلاعي الواسع على التراث. إذا تكلمت مثلاً عن الطعام لاحظت في إحدى المذكرات أن الرومان واليونان والعبرانيين قد أكلوا أيضاً كما أكلنا، وأورد عندئذٍ كل الصحاف اللذيذة التي أعدتها طباخة (لوكولوس)... يا لتعاستي حين ولدت بعد ثمانية عشر قرناً من وجوده...

وألاحظ أيضاً أن وقعات الطعام المشتركة، عند اليونان تدعى بهذا الشكل أو بذاك، وأن أهل (اسبارطة) أكلوا أنواعاً رديئة من الحساء الأسود... ومن الخير لي مع ذلك أني لم أعش في ذلك العصر... ما أظن أن هنالك فكرة أكثر رعباً من فكرة أن أكون، أنا المسكين، رجلاً من (اسبرطة) لأن الحساء هو لون طعامي المفضل. يا سيدتي أفكر في القيام قريباً بزيارة (لندن) ولكن الناس هناك لا يأكلون الحساء فعلاً ولسوف يدعوني حنيني إلى بلدي للعودة سريعاً إلى قدر اللحم المسلوق في وطني. أمّا مطبخ العبرانيين القدماء فأستطيع أن أتوسّع فيه إلى أقصى مدى ثم أعود إلى المطبخ اليهودي في العصور الحاضرة... وأستشهد، بهذه المناسبة بكل شارع اليهود... ويمكن أيضاً أن أورد ما عبّر عنه كثير من العلماء في برلين على موائد اليهود من تسامح، حتى أصل إلى المزايا والمنافع اليهودية، وإلى المخترعات التي ندين بها لهم، مثلاً صكوك الديون، والمسيحية... ولكن رويداً رويداً يجب ألاّ نغالي في موهبتهم في اختراع المسيحية، لأننا لم نمارسها حتى الآن إلاّ قليلاً... أعتقد أن اليهود أنفسهم وجدوا فيها حساباً لهم أقل مما وجدوه في صكوك الديون. ويمكن، بمناسبة اليهود أن أورد شواهد من (تاسيت) إنه يقول إن الحمير تُعبد في معابدهم، وبمناسبة ذكر الحمير فيا للساحة الواسعة التي تفتحت أمامي. ما أكثر الأشياء الرائعة التي يمكن أن تُقال حول الحمير العتيقة إذا عارضناها بالحمير الحديثة. ما أكثر عقل هذه بالنسبة إلى حماقة تلك. ما أطيب ما قاله حمار (برعام) ابن (يوعر):

Vid. pentat, Lib......

يا سيدتي، ليس الكتاب تحت يدي تماماً وقد تركت المكان فارغاً أبيض ولكن بمناسبة تفاهة طعم الحمير الحديثة يمكن أن أستشهد

Vid ....

......

لا... ولكني أريد أن أترك موضع الشاهد أبيض فارغاً وإلاّ فأنا سأكون بدوري صاحب الشاهد... ولكن بسبب القدح والذم. الحمير الحديثة حمير... الحمير القديمة التي تحظى بنصيب رفيع من الحضارة

vid Gesneri. De antiqua Hones tate Asinorum

In comment: Gœting t H p. 32 ——

سوف تعود إلى قبورها، لو أنها سمعت ما يقولون عن أحفادها. كانت كلمة حمار في الماضي عنوان شرف، وكان لها من القيمة ما لقيمة كلمة مستشار في المحكمة العليا، بارون، دكتور في الفلسفة الخ... يعقوب شبه ابنه (إيزاشار Isashar) بحمار، وكذلك شبه (هومير) بطله (آجاكس)، أمّا الآن فيشبهون بهذا الحيوان (السيد شتوهر) الذي أراد أن ينتحر يأساً من حب. يا سيدتي، بمناسبة هذه الحمير أستطيع أن أغوص جداً في الأدب وأن أورد كل الرجال العظام الذين أحبوا، مثل (أبيلاردوس) و(بيكوس ميراندولانوس) و(بوربونيوس) و(سارتيتيوس) و(أنجلوس بوليتانوس) و(رايموندوس لولوس) و(هنريكوس هينوس)... وبمناسبة الحب أستطيع أيضاً أن أورد كل الرجال العظام الذين لم يدخنوا مثل (شيشرون) و(جوستينيان) و(غوته) و(جوستيزات هوغو) وأنا، فقد وجدنا أنفسنا مصادفة نحن الخمسة مستشارين محلفين إلى حد ما. (مابيلون) لم يستطع احتمال دخان غليون أجنبي وهو يشكو في كتابه (IterGermaniCum) مايعانيه في الفنادق الألمانية: Quod molestus ipsi fuerit tabaci graveolentis foetor وعلى عكس ذلك يسند الناس إلى رجال عظام آخرين هياماً بالتبغ. (رافاييل توروس) كتب قصيدة عن التبغ (قد لا تعرفين سيدتي أن (اسحق الزيفريوس نشرها في (ليد) عام ١٦٢٨ في ص ٤) و(لودفيكوس كينشوت) قدّم لها مقدمة شعرية، وكذلك نظم (كرافيوس) قصيدة عن التبغ. و(بوكسهورنيوس) العظيم أحب التبغ و(بايل) في معجمه النقدي والتاريخي ينقل عنه أنه سمح بالقول إن (بوكسهورنيوس) العظيم كانت له، لتدخينه قبعة كبيرة لها ثقب في حافتها الأمامية كان يولج فيها غليونه كيلا تزعجه وهو يدرس ....

وهكذا ترين يا سيدتي أني لا أخلو من الصمود ومن العمق. ولكني لست مطمئناً تماماً إلى المنهجية. وأنا كألماني كان عليّ أن أبتدىء هذا الكتاب بشرح عنوانه، كما كان ذلك متبعاً في الامبراطورية الرومانية المقدسة. والحق أن (فيدياس) لم يضع مقدمة لكتابه (جوبيتر) كما لا نجد استشهاداً حول (فينوس ميديشي) التي تأملت فيها معجبًا من كل جنباتها... ولكن اليونان القدماء كانوا يونان ونحن لا نستطيع أن ننكر تماماً السجية الألمانية، وإذن فإن عليّ أن أفسّر معنى كلمة أفكار التي كتبتها في عنوان كتابي.

يا سيدتي سأتكلم إذن:

١ ــ عن الأفكار على العموم
أ ــ عن الأفكار المعقولة
ب ــ عن الأفكار اللامعقولة
(١) عن الأفكار العادية
(٢) عن الأفكار المجلدة بجلد الخنزير.

وهناك مقاطع سوف تلحق بها بـ... ولكن كل ذلك سيجيء في زمانه ومكانه.

(١٤)

يا سيدتي، قبل كل شيء، هل لك فكرة عن الفكرة؟ ما الفكرة؟ هنالك بعض الأفكار الطيبة في هذا اللباس، قال لي ذلك خياطي وهو يتأمل بنظرة جادة خبيرة المعطف الذي يعود عهده إلى أيام أناقتي في برلين. والذي يجب أن يصنعوا منه الآن ثوباً محترماً للغرفة. وغسّالتي تشكو من أن الراعي (ستراوش) وضع أفكاراً في رأس ابنتها، فأصبحت مجنونة بها لا تسمع صوت العقل. والحوذي (باتانسان) يدمدم في كل مناسبة هذه الكلمات: هذه فكرة، هذه فكرة، ولكنه أمس كان غاضباً غضباً شديداً عندما سألته ماذا يتصور عن الفكرة. وفي مزاجه السيء دمدم: «حسناً حسناً. الفكر هي الفكرة، الفكرة حماقة يدسّها الإنسان في رأسه...» وهذا المعنى هو الذي استعملت فيه هذه الكلمة عنواناً للكتاب الذي ألّفه المستشار في مجلس القضاء الأعلى السيد (هارن) في (غوتينغ).

إن الحُوذي (باتانسان) رجل يعرف في أراضي (لونبرغ) كيف يجد طريقه في الليل وفي الضباب. أمّا المستشار (هارن) فهو رجل تعرف غريزته النافذة كيف تجد الطرق القديمة التي سلكتها قوافل الشرق، والتي سلكها هو منذ نصف قرن في ثقة وصبر جميل من جمال العهود الماضية. إن من الممكن الاطمئنان إلى مثل هؤلاء الناس ويمكن أن يتبعهم الناس في ثقة تامة، ولهذا كان عنوان هذا الكتاب «أفكار».

إن عنوان الكتاب يعني إذن أقل مما يعنيه عنوان المؤلف. ولم يختره المؤلف هذا نتيجة غرور خبير علامة، ولا يجوز أبداً أن يتهم اختياره لهذا العنوان بالغرور. اطمئني يا سيدتي: لست مغروراً. هذه الملاحظة ضرورية كما سترين بعد ذلك، لست قط مغروراً، مع أن غابة من الأكاليل تنمو على رأسي، وبحر من العطور

يغمر قلبي الشاب، فلا يأخذني الغرور بكل ذلك. إن أصدقائي وغيرهم من المعاصرين لي قد حرصوا في عناية على تدمير هذه الرذيلة. أنت تعرفين يا سيدتي أن الأمهات العجائز ينكرن في العادة بعض الأفكار ويقدحن في بناتهن العزيزات، عندما يثني الناس على جمالهن، وذلك لكيلا يفسد الثناء المخلوقات الصغيرة العزيزة... وأنتِ تعرفين يا سيدتي أن المنتصر، في روما، عندما يصل إلى ساحة (مارس) وهو متوّج بالمجد، ويلبس الثياب القرمزية، يدخل ممتطياً عربة ذهبية تجرها خيول بيض، ويهيمن كأنه إله، على حاشيته الفخمة من القراء والموسيقيين، والراقصين، والكهان والعبيد، والفيلة وحملة الأكاليل، والقناصل، وأعضاء مجلس الشيوخ والجنود، وتغني العامة وراءه أغاني مبتذلة وأهاجي قذرة، وأنتِ تعلمين يا سيدتي أن في وطننا ألمانيا العزيزة عدداً كبيراً من الأمهات العجائز ومن الأوغاد.

أنتِ تفهمين جيداً يا سيدتي: أن الأفكار التي هي موضع بحثنا بعيدة عن الأفكار الأفلاطونية بعد (أثينا) عن (غوتينغ)، وأنتِ تستطيعين أن تنتظري قليلاً من الخير من هذا الكتاب مثل مؤلفه. الحق أن هذا المؤلف يمكن أن تخامره بعض الآمال ولكن ذلك لا يناسبني ولا يناسب أصدقائي. والكونتيسة (جولي) تزعم تفسير الموضوع وتؤكد أنه عندما يتأتى لهذا الكاتب أن يقول شيئاً حسناً حقاً وجديراً حقاً فليس ذلك إلّا تصنعاً يتصنعه وأنه في أعماقه أحق مثل الآخرين.

هذا خطأ؛ وأنا لا أدلس، أقول حسب طبيعة تقاربي. أكتب بكل براءة، وبكل بساطة كل ما يطرأ على فكري. وليس خطئي أن يكون لما أكتب حظه من الإدراك العام. ولقد كانت سعادتي في ميدان الأدب أكبر من حظي في يانصيب (التونا) (وأنا أريد لو كان الأمر على عكس ما هو عليه). وطالما خرجت من قلمي أكثر من أرقام متشابهة من العواطف أكثر من رباعيات من الأفكار، وذلك من صنع الله لأنه هو الذي يحرم المنشدين الأتقياء في (الوها) والشعراء المثاليين، الأفكار الطيبة والمجد الأدبي كيلا يثني عليهم المخلوق كثيراً، فينسيهم الثناء عليهم ذكر السماء التي يعدلهم فيها الملائكة منازل... وهو الذي يهبنا نحن الكتّاب الدنيويين المذنبين الخطاة الهراطقة، الذين تُغْلَق أمامهم أبواب السماء، إنه يهبنا كثيراً من الأفكار الممتازة، والمجد الأرضي، كل شيء رحمة منه خالدة، كيلا تذهب روحنا المسكينة خالية الوفاض، ولكي تتذوق فوق هذه الأرض قليلاً من النعم المحرومة منها في السماء.

Vid غوته وجماعة الكتب الطيبة.

أرأيتِ إذنْ يا سيدتي أنك تستطيعين دون خطر أن تقرئي كتاباتي التي تشهد في وضوح على رأفة الله ورحمته. إنني أكتب وأنا واثق ثقة عمياء بقدرته الكلية، وأنا في هذا الموضوع كاتب متدين تماماً ولكي أعترف لك بالحقيقة، لقد كنت عند بدء هذه الفترة لا أعرف كيف أنتهي منها. وما يجب أن أقوله وتركت ذلك لعناية الله العظيم. وكيف أستطيع أن أكتب لولا تلك الثقة التقية بالإرادة الإلهية، في غرفتي يقبع الآن أجير الطبّاع (لانجوف) الذي ينتظر المسودة، الكلام الذي لم يكد يولد، ما أشعر به في هذه اللحظة يمكن عند المساء أن يُسجّل على ورق الطباعة. من السهل عليك يا سيدتي أن تذكريني nonumque Prematur in annum لـ(هوراس). هذه القاعدة مثلها مثل قواعد كثيرة صالحة جداً من الناحية النظرية، ولكنها من الناحية العملية لا تسوى شروى نقير. عندما وضع (هوراس للمؤلف قاعدته المشهورة بترك الكتاب ينام تسع سنين في درج المكتب كان عليه أيضاً أن يعطيه وصفة طبية بأن يعيش تسع سنين دون أن يأكل شيئاً. عندما تخيل (هوراس) هذه القاعدة فربما كان جالساً على مائدة (ميسين) ويأكل الطيور المسمنة ولحم التدرج بمرق شحم الأيل، والقبرات الفارسية مع جذر (تيلتوف) وألسنة الطواويس وأعشاش العصافير الهندي وما لا يعلمه إلاّ الله. وكل ذلك مجاناً دون مقابل.

أمّا نحن التعساء الذين جئنا في الزمن الأخير فنعيش في عالم آخر، وأصحابنا (ميسين) لهم مبادىء مختلفة: إنهم يعتقدون أن الكتّاب وحب الزعرور يطيب لهم العيش إذا تركوا فترة من الزمن على القش وعلى الحصير وهم يعتقدون أيضاً أن الكلاب الأدبية لا تصلح لصيد الصور والأفكار عندما تكون سمينة، وعندما يطعمون مصادفة كلباً مسكيناً، فذلك وأسفاه أقل الكلاب استحقاقاً للطعام، الكلب ذا الوبر الطويل الذي يلعق الأيدي، أو الكلب ذا القوائم القصيرة الذي يعرف كيف يلطي في حضن سيدة المنزل العاقر، أو الكلب ذا الشعر الأجعد الذي يعرف كيف يتردد ويرقص ويقرع الطبل... في اللحظة التي اكتب فيها هـذه السطور ينتصب ورائي كلبي الصغير وينبح... اخرسْ يا صديقي، فأنا لم أرغب في الحديث عنك، لأنك تحبني ولأنك ترافق معلمك في فقره وسوء حاله والأخطار التي تحدق به، ويموت على قبره في إخلاص عدد كبير من الكلاب الألمانية المنفية على الأرض الأجنبية والتي تنام على أبواب ألمانيا وتئن وتموت. عفواً يا سيدتي لقد قمت بهذا الاستطراد لكي أصلح حال كلبي المسكين، وأعود إلى قاعدة (هوراس) وتعذر تنفيذها في القرن التاسع عشر، الذي يجب فيـه الشعراء أن يجـدوا ما

يأكلونه. . . قسماً يا سيدتي، أنا لا أستطيع أن أصبر على الجوع أربعاً وعشرين ساعة فأنّ لي أن أصبر عليه تسع سنين: إن معدتي لا يروق لها الخلود إلّا قليلاً، وإذا أنا تأملت وجوه الأمور بدا لي أني لا أريد أن أكون إلّا نصف خالد، وأن يكون لي طعام موفور، وإذا كان (فولتير) قد وافق، من أجل الهضم الجيد لغداء على التخلي عن ثلاثمائة سنة من مجده الخالد فأنا أقدم ضعف هذا المقدار من أجل الغذاء نفسه. واأسفاه ما أشهى وما ألذ أنواع الغذاء التي يمكن أن تحُضَّر في هذا العالم. الفيلسوف (بانكلوس) كان على حق: إنه أحسن عالم ممكن، ولكن يجب أن تكون جيبك عامرة بالمال في أفضل هذه العوالم، مال في الجيب لا مخطوطة في درج المكتب. إن صاحب فندق (ملك انكلترا) هو نفسه كاتب من الكتّاب ويعرف قاعدة (هوراس) ولكني لا أعتقد أنه سيعطيني ما آكله خلال تسع سنين، إذا أردت تطبيق هذه القاعدة.

ولماذا أطبق هذه القاعدة؟ عندي أشياء كثيرة طيبة أكتبها، ولست في حاجة إلى انتقائها. ما دام قلبي عامراً بالحب وما دام رأس قريبي عامراً بالحماقات فلن تنقصني المادة للكتابة، وقلبي لن يكفّ عن الحب ما دام في الأرض نساء، إذا برد من أجل هذه المرأة التهب بحب تلك، وهكذا فلن تموت الملكة في قلبي. وهذا ما يحدث بالنسبة إلى حماقة قريبي فهي لن تموت أبداً، فليس هنالك إلّا حكمة واحدة ولهذه الحكمة حدود معينة، ولكن هنالك ألوف من ألوان الجنون لا تُعد ولا تُحصى. العالم بأحوال الضمير والاعترافات (شوب) يذهب حتى إلى حد القول: «في العالم يفوق عدد الحمقى عدد الناس. . .»

Schuppit docta opera p 1121 Vid

عندما نتذكر أن (شوبيوس) العظيم عاش في (هامبورغ) فنحن لا نجده مغالياً في هذه المعطيات الاحصائية. أنا أقطن المدينة نفسها وأستطيع أن أقول إني اشعر برضا كامل عندما أفكر أن كل هؤلاء الحمقى الذين أراهم هنا يمكن أن أستفيد منهم في تآليفي، إنهم أعضاء شرف جاهزون، ذهب في سبائك. أجدني الآن في موسم الحصاد. الرب صبّ عليّ رضاه، الحمقى كانوا وافري المردود هذا العام، وأنا كاقتصادي صالح لا أستهلك إلّا قليلاً منهم في وقت واحد. أختار احسن الأنواع ثم أضعهم مؤونة واحتياطاً للمستقبل. أبدو غالباً في نزهاتي مرحاً طيب المزاج، مثل تاجر غني يفرك يديه حماسة ونشوة وهو يمّر بين صفوف الصناديق المكدسة وأطنان الطرود في مخزنه، وهكذا أنا أتنزه في قلب عالمي. أنتم جميعاً لي،

أنتم أعزاء عليّ جميعاً، وأنا أحبكم كما تحبون أنتم أموالكم. وهذا ما يعبر عن شعوري أحسن تعبير. لقد ضحكت من أعماق قلبي وأنا أسمع أخيراً أن أحد الحمقى لديّ قال في قلق، إنه لا يعرف ماذا أصنع لكي أعيش... ومع ذلك، فإنه هو نفسه أحمق أصيل أستطيع أن أعيش على نفقته وحده كأنما أعيش على رأسمال موطّد أمين. هناك أعداد كبيرة من أمثال هذا الأحمق الذين لا أعدهم مالاً جاهزاً فحسب بل الذين أعددت لاستعمال معين الأموال التي سوف يحملونها إليّ، مثلاً، إنني بثمن واحد من أصحاب الملايين سمين منتفخ أستطيع أن أشتري مقعداً محشواً من المقاعد التي يسميها الفرنسيات الكرسي المخروق. وأشتري بسيدته صاحبة الملايين حصاناً وعندما أرى السمين... (لأن يدخل الجمل في سم الخياط أسهل من دخول هذا الرجل في مملكة السموات). عندما أراه يحجل كالطاووس في النزهة أصاب بمزاج غريب، ورغم أنه لا يعرفني مطلقاً فأنا أحييه دون إرادة مني فيردّ على تحيتي في ودٍّ وفي احتفال حتى أني أظن فيه الطيبة فوراً، لولا ذلك الارتباك الذي يحدثه في نفسي كل هؤلاء الذين يمرون وهم يلبسون ألبسة أيام الأحد. يا سيدتي ليست زوجته امرأة تستحق الكراهية... إن لها عيناً واحدة، ولكنها أكثر خضرة من عينين معاً. أنفها مثل البرج الذي يطلّ على دمشق. وصدرها كبير مثل البحر، يموج بأنواع مختلفة من الشرائط كأنها رايات المراكب التي تمخر عباب هذا البحر... تشعرين بدوار البحر لمجرد رؤيتها... رقبتها سمينة مترهلة كأنها... (الصورة المشابهة سوف تأتي بعد قليل) ولكي انسج الستار القرمزي الذي يغطي هذه الصورة المشابهة فإن آلاف دود القزّ قد قضت حياتها في نسجها. أنتِ ترين يا سيدتي أي حصان يمكن أن أحظى به. عندما أصادف السيدة في النزهة فإن قلبي يخفق خفقاناً شديداً ويخيل إليّ أني أمتطي ظهرها. وأفرقع بالسوط وبالأصابع وأدعو باللسان، وأساعد نفسي بساقي... هوب! هوب. بر... بر... والمخلوقة الرائعة تنظر إليّ في روح عالية، وملامح ذكية وتصهل بعينيها، وتنفح بمنخاريها، وتغمز بردفيها، وتتلوى في مشيتها، ثم تخبّ خبباً فجأة... وأنا أنظر إليها مكتوف اليدين، أفكر هل من واجبي أن أسوقها باللجام أو بالشبكة، وهل أعطيها سرجاً أنكليزياً أو سرجاً بولونياً الخ... الخ... والناس الذين يرونني هكذا لا يفهمون السر الذي يجعل هذه المرأة تسحرني إلى هذا الحد. وهناك ألسنة نمامة واشية تريد أن تزعج السيد زوجها وتوحي إليه أني أنظر إلى رفيقته نظرة رجل ماكر. ولكن كرسي الممشى المحترم المثقوب يجيب عني، كما يزعمون، أنه يراني شاباً بريئاً خجولاً إلى حد ما، ينظر

إليها في شيء من اللطف وسلامة الطوية كإنسان يريد أن يشعر بأنه مرتاح مع نفسه فيمسك بهٰ ارتباك غير سليم. إن فرسي النبيلة تظن على عكس ذلك أن لي مظهر المطمئن والفارس، وأن لطفي الودود يفضح فقط رغبتي في أن أدعَى إلى مائدة الزوجين ولو مرة واحدة.

وهكذا ترين يا سيدتي أني أستطيع الإنتفاع بكل الناس، وأن دليل العناوين هو في الحق ميدان نشاطي. وأنا لا أستطيع قط وللسبب نفسه أن أكون صاحب مصرف لأني أبدل بأصحاب الديون عندي منابع ومصادر لمنتوجاتي. ثم إني كما قلت، أعيش على كثير من الاقتصاد والتقشف، في وضع مالي يائس. فأنا مثلاً في هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور أسكن غرفة معتمة حزينة في شارع «الظلمات» ولكني آلفها طوعاً، مع أني أستطيع إذا أردت أن أسكن أحلى بستان مثل أصدقائي وأبناء عمي: وليس عليّ إلاّ أن أحقق ممارسات الصباح، وتتألف هذه الممارسات يا سيدتي من الحلاقين المهرة ومن مخرجين ساقطين ومن أصحاب مطاعم لا يجدون هم أنفسهم ما يأكلون وكلهم أوغاد حقيقيون يعرفون في سهولة كيف يجدون بيتي، وهم يقصون عليّ لقاء جعل صغير تاريخ الفضائح في حيهم. وستعجبين يا سيدتي لماذا لم ألقِ نظرة واحدة وإلى الأبد على باب بيتي هذه الزمرة الحقيرة؟ ولكن بـمَ تفكرين يا سيدتي. إن هؤلاء الناس أزهاري. سوف أضعهم ذات يوم في كتاب جميل يتيح لي أن أشتري بستاناً جميلاً وأنا، في وجوههم الحمر والصفر والزرق المختلطة، أعتقد أني أرى أزهار هذا البستان. وماذا يهمني أن يزعم أنف غيري أن هذه الأزهار لا تفوح إلاّ برائحة العرق والتبغ والجبن والرذيلة، إن أنفي وهو مدخنة رأسي، حيث يصعد الخيال ويهبط على طريقة منظف المداخن يؤكّد عكس ذلك ولا يجد في هؤلاء الأشخاص إلا رائحة الورد والياسمين والبنفسج والزنبق والسوسن آه كم أجدني سعيداً في بستاني عند الصباح، أسمع أغاريد الطيور، وأدفىء أوصالي بالشمس الحلوة وأشم نفس الخضرة اليانعة وأتذكر عند رؤية الأزهار أصحابي الأوغاد عند الصباح.

ولكني حتى الآن ما أزال أقطن في شارع «الظلمات» المعتم، وفي غرفتي المعتمة ولكني ما أزال أقنع بتعليق هذه الكلمة التي هي أكثر كلمات البلد قتاماً ــ ولكن هل ترى الآن في وضوح أشد؟ في هذه اللحظة يا سيدتي. . . ولكن لا تنخدعي فليس الإنسان في شخصه هو الذي أشنقه ولكن مصباح البلور الذي

أستضيء به. ومع ذلك فأعتقد أن من الخير أن يغمر النور العظيم بلدنا فجأة، إذا شنقنا un naurata المعتمين.

. . . .

. . . .

يا سيدتي أحسّ برغبة مفاجئة كبيرة إلى الغداء، لأني منذ سبع ساعات أكبّ على الكتابة وبدأت أشعر بالبرودة في معدتي وفي رأسي. لم أشعر قط بسعادة تماثل سعادتي اليوم وأنا أكتب، وألاحظ أن الله العظيم يتخلّ عني... وأخشى يا سيدتي أنكِ لم تلاحظي هذه الملاحظة قبلي... نعم أشعر أن العناية الإلهية لم تدعمني مرة واحدة في هذا الصباح. يا سيدتي سوف أتغدى، وسأبدأ بعد الغداء فصلاً آخر، وستعرفين كيف عدت إلى (غودسبرغ) بعد موت (لوكران).

أشعر بجوع شديد، يخيّل إليّ أني أستطيع في غدائي أن التهم كل فيلة الهند، وأن جبن (ستراسبورغ) يمكن أن ينفعني مسواكاً. أشعر دائماً أني أجوع في الصباح أكثر مما أجوع بعد الظهر. ويأخذني عند المساء عطش عاطفي حتى أني أرتشف طوعاً كل المجرّة في السماء.

(١٥)

عندما بلغت (غودسبرغ) جلست عند أقدام صديقتي الجميلة، وأقعى إلى جانبي كلبها الكبير الأسمر، وجعلنا معاً نحدّق في عينيها.

يا رب في هاتين العينين كل ما في الأرض من نعيم وفيهما سماء كاملة. أستطيع أن أموت سعيداً وأنا أتأمل هاتين العينين، ولو أني مت الآن لطارت روحي رأساً لترفرف تحت جفنيها. كلا لا أستطيع أن أصف هذه العيون: أريد أن استقدم من المارستان شاعراً أتلف الحب رأسه، لكي يبحث لي في هاوية جنونه عن صورة أشبّه بها هذه العيون. ولنقلْ فيما بيننا أنني أنا نفسي مجنون إلى حد يكفي لكي لا أحتاج إلى مساعدة في هذه المسألة.

يا لله، عندما تنظر إليك ــ كما قال أحد الانكليز ذات يوم، في هدوء من رأسك إلى أخمص قدميك، تذيب نظراتها أزرار النحاس في ثوبك، وتذيب قلبك معاً.

يا لله، قال ضابط فرنسي: إنها عيون من الوزن الثقيل، ترميك بنظرات من

عيار ٣٦، وعندما تصيبك تفرقع، تراك! وترتمي عاشقاً، كان هناك محام من (مايانس) ذو شعر أحمر قال: عيناها لهما شكل فنجانين من القهوة السوداء. لقد ظن هذا المحامي أنه يقول شيئاً عذباً جداً لأنه يضع كمية مخيفة من السكر في قهوة...

تشبيهات غير ناجحة.

كنا، أنا والكلب الأشهب نجلس في صمت عند قدمي السيدة الجميلة، نرنو إليها ونصغي، وكانت تجلس قرب جندي عجوز وخطه الشيب، وجهه وجه فارس، جبهته المخيفة تغطيها الندوب، كانا يتحدثان كلاهما عن الجبال السبعة التي تلوِّنها الشمس الغاربة بالخضاب الأحمر، وأمامهما أمواج نهر الرين الزرقاء تمضي في جلال وسكون. ماذا يهمنا من الجبال السبعة ومن الشمس الغاربة ومن أمواج نهر الرين الزرقاء، ومن الموسيقى التي تصدح على أحد المراكب التي تمخر عبابه، ومن الطالب الراعي الذي يغني حبه على ذلك المركب... أنا والكلب الأشهب نحدِّق في عيون صديقتنا، نتأمل وجهها الذي يلمع خلال خصلات شعرها، ودبابيس الشعر السود، كالقمر حين يبدو وردياً فضياً وسط الغيوم الداكنة. إنها قسمات وجه يوناني. شفتان مكوّرتان في جرأة، تنطبع عليهما الكآبة والحنان والمرح الطفولي، وعندما تتكلم ترن الكلمات في عمق، كأنها تنهدات وزفرات، وتنفر شاردة في حيوية وفراغ صبر. وعندما تتكلم وتتساقط الكلمات من ثغرها مثل قطرات مطر من الأزهار دافىء ضاحك، عندما تفعل ذلك تلوِّن أشعة المساء الحمراء روحي، وتنبثق ذكريات الطفولة جمعاء، مصحوبة بالموسيقى، وأخيراً وعلاوة على ذلك يرن صوت (فيرونيك) الرقيقة مثل قرع جرس. أمسك بيد صديقتي الحلوة وأضمها إلى عيني حتى تصمت هذه الأوتار في روحي. ثم أنهض ضاحكاً، وينهض الكلب نابحاً وتزداد جبهة اللواء العجوز تجهّماً.

وأجلس مرة أخرى وأمسك باليد الصغيرة وألثمها وأشرع في الحديث عن (فيرونيك) الصبية.

(١٦)

يا سيدتي، تريدين مني أن أصف لك شكل الصبية (فيرونيك) ولكني لا أريد وصفها. أنت يا سيدتي لا نستطيع أن نجبرك على قراءة سطر واحد من هذا الكتاب أكثر مما تريدين قراءته، وأنا من جهتي لي الحق في ألاّ أكتب إلاّ ما

يرضيني. ويرضيني أن أصف لك في هذه اللحظة اليد الجميلة التي قبلتها في الفصل السابق.

قبل كل شيء يجب أن أعترف أني لا أستحق تقبيل تلك اليد. إنها يد جميلة، رقيقة، شفافة، نافرة عذبة، معطرة، حريرية، مخملية والحق أني أحب أن أبحث عند العطار عن نعوت أصفها بها لقاء عشرة دراهم.

في الأصبع الأوسط خاتم فيه لؤلؤة، لم أجد أبداً لؤلؤة تقوم بمثل هذا الدور البائس، وفي البنصر خاتم له حجر أزرق درست عليه علم الآثار طوال ساعات كاملة. وفي السبابة ماسة هي طلسم، ما دمت أراه فأنا سعيد لأنه يقوم في موضع الإصبع منسجمًا مع الأصابع الأربعة. طالما قرعت بأصابعها الخمسة فمي. وأعتقدت أني مؤمن بالمغناطيسية ما دمت أتلقى هذه الضربات. ولكنها لم تكن تضرب ضرباً شديداً رغم أني استحق ذلك عند لفظي لبعض الكلمات الفاجرة. وعندما تضربني تسارع إلى طلب العفو مني، تأخذ قطعة حلوى وتقسمها قسمين، وتعطيني نصفها وتعطي النصف الآخر لكلبها الأشهب وهي تقول في ابتسامة عذبة: أنتما كلاكما لا دين لكما، ولن تكون من صفوة خلق الله. فهل يجوز أن أعطيك حلوى في هذا العالم وأنت الذي لا تتمتع بمائدة لك في السماء. إنها على صواب إلى حد ما، كنت في ذلك العهد قليل الدين، أقرأ (توماس باين) وطريقة الطبيعة، ودليل وستفاليا أو(شلايرماخر) تركت لنفسي حق إنماء لحيتي وعقلي، وأحببت أن أتطوع في صفوف العقليين. ولكن عندما كانت تلك اليد الجميلة تمس جبهتي، كنت أعتقد أني أسمع غناء الأغاني والتراتيل، وأفكر في (فيرونيك) الصبية.

يا سيدتي لا تستطيعين أن تتصوري مدى جمال (فيرونيك) وهي في تابوتها الصغير. الشمعات المشتعلة التي تنتصب حولها تلقي نورها على وجهها الصغير الأصفر المبتسم وعلى الورود الحريرية الحمراء والسبائك الذهبية التي تزين رأسها الصغير وكفها الصغير. (أورسول) النقية هي التي قادتني مساء إلى تلك الغرفة الهادئة واعتقدت وأنا أرى هذا التابوت الصغير وتلك الشموع والأزهار المرصوفة على المائدة، اعتقدت أولاً أن ما أراه لم يكن إلاّ صورة قديسة جميلة مصنوعة من الشمع ولم ألبث أن عرفت هذا الوجه العزيز، وتساءلت وأنا أضحك لماذا تبدو (فيرونيك) الصبية هادئة هذا الهدوء وقالت لي (أورسول): إنه الموت الذي يفعل ذلك.

عندما قالت: إنه الموت الذي يفعل ذلك... ولكني لا أريد أن أقص الآن هذه الحكاية. فهي حكاية طويلة. يجب أن أتحدث أولاً عن هذا العقعق الأعرج الذي يقفز في ساحة القصر والذي يبلغ عمره أكثر من ثلاثمائة سنة، وكل ذلك يجعلني أكثر كآبة وحزناً.

تراودني الرغبة في أن أحكي حكاية أخرى، تهم وتلائم تماماً هذه الساحة، لأنها تماماً هي تلك القصة التي كنت أريد أن أحكيها منذ البداية.

(١٧)

ليس في صدر الفارس إلّا الظلمات والألم. سهام الوشاية أصابته في الصميم، وبينما كان يجتاز ساحة (سان ماركو) خيّل إليه أن قلبه سوف ينفث دماً ويتصدع. وترنحت ساقاه إعياء، وهبط على روحه يوم صيفي ثقيل. كان العرق يتصبب من جبهته وعندما استقل الزورق تنفس الصعداء. ظلّ جالساً كالاله في غرفة الزورق المظلمة السوداء، ينظر في ذهول إلى الأمواج الرخوة في البحيرات التي تحمله إلى مكان مشهور في (برانتا) وعندما وصل أمام القصر، الذي يعرفه تماماً، سمع وكأنما يقولون له: السيدة لورا في الحديقة.

كانت واقفة هنالك تستند إلى تمثال (لاوكون) قرب باقة من الورد الأحمر في نهاية الشرفة غير بعيد عن الصفصافات الباكيات اللواتي ينحبن في كآبة على النهر. كانت هناك ضاحكة وصورة حلوة للحب، محاطة بالورد. أمّا هو فكأنما استيقظ من حلم رهيب ثم وجد نفسه تغمره اللذات والرغبات.

قال:

ــ يا سنيورة لورا، أنا بائس يُلاحقه الحقد والبؤس والكذب. ثم تردد ودمدم:

ــ ولكني أحبك، ثم اغرورقت دمعة فرح في عينه، وصرخ وعيناه مخضلتان وشفتاه مضطربتان: كوني لي! أحبيني!

لقد سقط ستار غريب على هذه الساعة. لا مخلوق يعرف ماذا أجابت السنيورة لورا. وعندما يسألون ملاكها الحارس الطيب في السماء، يغطي رأسه، ويتنهد، ويسكت.

الفارس بقي أمداً طويلاً قرب تمثال (لاوكون). كان وجهه أبيض أشعث

مثل التمثال، قطف آلياً أوراق كل الورود، بل كسر البراعم الفتية... ولم تحمل الشجرة زهراً بعد ذلك... ومن بعيد يرسل عندليب مريض أغاني شاكية وتتحرك الصفصافات، وأمواج نهر (برانتا) السود تدمدم دمدمة خرساء، والليل يغمر السماء بقمره ونجومه، ونجمة جميلة، هي أجمل النجمات، تسقط من أعلى السماء وتختفي.

(١٨)

أتبكين يا سيدتي؟

أوه. أرجو أن تستطيع هذه العيون، التي تسكب مثل هذه الدموع الطيبة، أن تبقى أمداً طويلاً وهي تضيء العالم بأشعتها. وأن تكون يد رقيقة هي التي تغلقها ذات يوم في ساعة الموت! وسادة رقيقة ما تزال شيئاً طيباً في ساعة الموت ارجو أن لا تحرميها، وعندما ينهار رأسك الجميل التعب عليها وتنشر غدائر شعرك الأسود على خديك الشاحبين فأرجو الله إذنْ أن يثيبك أجر الدموع التي سكبتها من أجلي... ذلك أني أنا ذلك الفارس الذي بكيت عليه، أنا نفسي ذلك الفارس التائه في الحب، فارس النجمة التي سقطت.

أتبكين يا سيدتي!!

أوه، أنا أعرف هذه الدموع! ولماذا الكتمان الطويل؟ أنتِ يا سيدتي أنتِ تلك السيدة الجميلة التي زرفت الدموع في مرارة في (غودسبرغ) عندما سمعت قصة حياتي الحزينة... كانت دموعك تهطل على خديك مثل اللآلىء على الورود... الكلب الأشهب بقي ساكناً، أجراس صلاة المساء تقرع في (كونيجسفنتر)، نهر الرين يدمدم في رقة، الليل يسدل على الأرض معطفه الأسود، وأنا أجلس عند قدميك يا سيدتي أتطلّع إلى السماء المرصعة بالنجوم. تصورت مرة أن عينيك نجمتان، ولكن كيف يمكن أن نخلط مثل هاتين العينين الجميلتين بالنجوم. هذه الأنوار الباردة في السماء لا يمكن أن تبكي بؤس إنسان، إنسان بلغ من بؤسه أنه لم تبق له دموع.

وهنالك أسباب خاصة تدعوني إلى تمييز هذه العيون. إن فيها روح (فيرونيك) الصبية. قمت بالحساب يا سيدتي، حسبت أنكِ ولدت تماماً يوم ماتت (فيرونيك) الصبية. وعدتني (جوهانا أندرناخت) أن أجد (فيرونيك) الصبية في

(غودسبرغ)... وعرفتك رأساً. يا لها من فكرة سيئة، يا سيدتي، أن تموت حين تبدأ ألعابنا وتسير سيراً مرضياً. منذ قالت لي (أورسول) التقية: إنه الموت الذي يفعل ذلك ـ جعلت أجول وحيداً وقوراً في بهو معرض اللوحات، ولكن هذه الوجوه لم ترضني كما كانت ترضيني من قبل: خيل إليّ أنها أصبحت حائلة الألوان. لوحة واحدة احتفظت بألوانها ولمعانها... وأنتِ تعرفين يا سيدتي اللوحة التي أتحدث عنها.

إنها لوحة سلطان وسلطانة (دلهي).

تذكرين يا سيدتي أنّا طالما وقفنا ساعات طوالاً أمام هذه اللوحة، وأن (أورسول) التقية كانت تسخر في شكل غريب عندما يلاحظ الناس أن وجوه اللوحة تشبه إلى حد بعيد وجهينا. يا سيدتي أرى بينكما تشابهاً كبيراً ولا أدري كيف استطاع المصور أن يمسك بهذا التشابه حتى في الثوب الذي ترتدينه في دلهي. قالوا لنا: إنه كان مجنوناً، وأنه حلم بهذه الصورة. أو لعل روحه كانت تسكن في تلك الأيام روح القرد الكبير المقدس الذي يقف وراءك مثل الكلب؟ وفي هذه الحالة كان عليه أن يتذكر هذا النقاب الرمادي الذهبي الذي أراق عليه الخمر والذي لطخهُ. وأنا مسرور لأنه رفع عنكِ هذا النقاب فهو لا يليق بك. وعلى العموم فإن الزي الأوروبي يصلح لك أكثر من الزي الهندي... لا شك أن النساء الجميلات جميلات في كل أنواع الأزياء...

أنت تتذكرين يا سيدتي أن أحد البراهمة الظرفاء (وهو يشبه جانيزا، إله خرطوم الفيل الذي يمتطي فأرة) قال لك مرة هذا الثناء: مانيكا الخالدة عندما هبطت من مدينة الذهب في (اندراه) إلى الملك (ويسوا ميترا) لم تكن قط أكثر جمالاً منك يا سيدتي...

أنت لا تذكرين ذلك. لقد مرت ثلاثة آلاف سنة منذ قال لك هذا والنساء الجميلات عادة لا يمكنهن نسيان هذا الثناء العاطر في سرعة.

أمّا الرجال فيناسبهم الزي الهندي أكثر من الزي الأوروبي. يا لسراويلي في دلهي، سراويلي الموردة، المطرزة بأزهار (اللوتس)! يا ليتني ارتديتك عندما كنت أجلس عند ركبتي السنيورة (لورا) وأضرّع إليها أن تحبني، ولو أني فعلت ذلك لأنتهى الفصل الماضي غير نهايته. ولكني، واأسفاه كنت أرتدي سراويل في لون

القش نسجها أحد الصينيين الثريين في (نانكين)، ونسج فيها ضياعي. . . فكنت شقياً.

غالباً ما كان شاب يجلس إلى منضدة في مقهى ألماني صغير. كان يجرع في هدوء فنجان قهوته، وخلال ذلك كان ينمو ويزهر شقاؤه في المملكة البعيدة في الصين، وكانوا يصبغونه، ورغم وجود السور العظيم فقد شقّ هذا الثوب طريقه إلى الشاب الذي رأى فيه سروالاً من (نانكين) فارتداه في براءة وأصبح به شقياً طوال حياته. . . نعم يا سيدتي، يمكن أن يعشش شقاء كبير في قلب الإنسان الصغير ويختبىء في مهارة حتى إن الرجل المسكين لا يشعر بشيء خلال أيام كاملة ويغدو ويروح ويصفّر ويغني: ترالالا ترالالا، لالا.

(١٩)

كانت محبوبة وكان يحبها، ولكنه هو لم يكن محبوباً ولم تكن تحبه

ـ مسرحية قديمة ـ

ـ أمن أجل هذه القصة الحمقاء أردت أن تلهب دماغك؟

ـ يا سيدتي، عندما يريد رجل أن يلهب دماغه فله أسبابه المعقولة وتستطيعين تصديقه. ولكن هل يعرف هو نفسه هذه الأسباب. هنا السؤال. لعبنا، حتى الدقيقة الأخيرة مهزلتنا مع أنفسنا. غلّفنا شقاءنا، وعندما كنا نلفظ أنفاسنا من جرح في الصدر كنا نشكو ألم الأسنان.

أنا أعاني ألم الأسنان في القلب. إنه ألم مخيف، وخير دواء له الرصاص و(البودرة) السوداء التي اخترعها (بارتولد شفارتز). .

الألم، مثل الدودة، يقضم ويفترس قلبي. . . وليس ذلك ذنب الصيني المسكين. أنا الذي حملت هذا الألم إلى العالم. نما في مهدي، وعندما كانت أمي تهدهدني كان يترجّح معي، وعندما كانت تغني لأنام كان ينام معي، ويستيقظ معي عندما أفتح عيني. وعندما أصبحت أكبر سناً كبر ألمي معي، وأخيراً كسر. .

لنتحدث عن شيء آخر، عن أكاليل الأزهار عن الفتيات الصغيرات، عن حفلات الرقص التنكرية، عن الأفراح والمسرات. . . ترالالا. . . تراك. . . لا. . . لالا لا ـ لا ـ لا ـ لا ـ لا. . .

انكلتره

— ١٨٢٨ —

(١)

على ضفاف التايمز

. . . .

كان الرجل الأصفر واقفاً معي على الجسر وأنا أتطلّع إلى الشواطىء الخضراء على ضفاف (التايمز) وكانت العنادل تستيقظ في كل زوايا قلبي. وصرخت: يا أرض الحرية. عليكِ السلام، عليك السلام أيتها الحرية، يا شمس العالم المتجددة الفتية. تلك الشموس العتيقة، الحب والايمان، خمدت نبراتها وبردت فلا هي تنير ولا هي تدفىء. وغابات الآس والريحان العتيقة هُجِرت وكانت تغصّ بالناس، ولم يبق فيها إلّا بعض الحمامات الخجولات تعشش في أجمات الحنان تلك. لقد انهارت الكاتدرائيات العتيقة التي شادتها سابقاً، إلى ارتفاعات شاهقة، عروق تقية في جرأة أرادت أن تبني إيمانها حتى في السماء. وهي الآن تنهار قطعة قطعة، وآلهتها لا يؤمنون حتى بأنفسهم. لقد خارت هذه الآلهة، وليس في عصرنا ما يكفي من الخيال لخلقها من جديد. كل القوة التي ينبض بها قلب الإنسان أصبحت اليوم حباً للحرية، والحرية ربما كانت دين زماننا، وهو دين لا يؤمن به الأغنياء وحدهم بل الفقراء، وله كذلك أنبياؤه وشهداؤه والجاحدون له.

قال لي الرجل الأصفر: «أيها المتحمس الشاب، أنت لا تجد ما تبحث عنه. يمكن أن تكون على حق إذا قلت إن الحرية هي الدين الجديد الذي يعمّ كل الأرض. ولكنه مثل سائر الأديان، فإن كل شعب عندما اعتنق المسيحية حوّرها

حسب حاجاته وطبيعته، وهكذا فكل شعب لن يأخذ من الدين الجديد إلاّ ما يوافق المتطلبات المحلية وخصائص الأمة.

«الانكليز شعب داخلي، يعيشون حياة عائلية محدودة مغلقة، في سلام. الانكليزي يبحث في وسط أهله عن رضاه الروحي الذي يمنعه حذره الطبيعي، من الناحية الاجتماعية، من أن يجده خارج بيته. الانكليزي يكتفي إذنْ بهذه الحرية التي تضمن له حقوقه الشخصية، وتحمي، دون حصر، جسده وملكيته، وسريره الزوجي وعقيدته وحتى نزعاته. وعنده أن ليس هنالك أحد من الناس أكثر حرية من الانكليزي، ولكي أستخدم تعبيراً شائعاً أقول إنه ملك وحبر أعظم بين جدران بيته الأربعة، وشعاره في العادة قوله: بيتي قلعتي، شعار صحيح.

«ولكن إذا كان الانكليزي مبدئياً في حاجة إلى الحرية الشخصية فالفرنسي يمكنه في الشدائد أن يتخلّ عنها شريطة أن يتمتع بهذا الجزء من الحرية الذي يسمونه «المساواة». ليس الفرنسيون أبداً شعباً داخلياً ولكنهم شعب اجتماعي. لا يستطيعون احتمال هذه الاجتماعات الصامتة التي يسمونها «حوارات انكليزية»، يهرعون وهم يثرثرون من مقهى إلى حلقة ومن حلقة إلى قاعة. إن دمهم الخفيف من الشمبانيا ومهارتهم الفطرية في التجارة العادية يحملانهم حملاً إلى الحياة الاجتماعية التي تكون المساواة شرطها الأول والأخير وروحها أيضاً.

من تطور المجتمع في فرنسا يجب أن تُستخلَص الحاجة إلى المساواة، ومهما كانت أسباب الثورة فإن هذه الثورة تجد أعضاءها وأجهزتها بين هؤلاء العامة المرهفين الذين يعيشون في قاعات باريس على قدم المساواة الظاهرية مع الطبقة النبيلة العالية، والذين تذكرهم من وقت إلى آخر بسمة إقطاعية لا تكاد تظهر، فضلاً عن أن تكون خارجية. بتلك الفوارق الشاسعة المهينة. وعندما يرى ذلك الوغد العامي أن الحرية في قطع أعناق تلك الطبقة النبيلة العالية فربما كان ذلك ليرث أجدادهم أكثر مما أن يكون ليرث أموالهم. هذا الظمأ إلى المساواة كان عماد الثورة العظيم، وعلينا أن نؤمن به كما نؤمن بأن الفرنسيين شعروا أنهم سعداء ومسرورون تحت ظل سيطرة امبراطورهم العظيم، الذي أدرك عدم كفاية أعطياته، فاحتفظ لهم بحريتهم تحت وصايته القاسية ولم يترك لهم إلاّ الفرح بمساواة كاملة مجيدة.

«إذن فالانكليزي يتحمّل في كثير من الصبر ما يراه الفرنسي في الارستقراطية

ذات الامتيازات. إنه يتعزّى بفكرة أن الحقوق التي يمتلكها تمنع تلك الأرستقراطية من إزعاجه عن التمتع براحته الداخلية ومشاريع وجوده. وهؤلاء الارستقراطيون لا يتباهون بامتيازاتهم كما يفعل الارستقراطيون في القارة. في الشوارع وأماكن التسلية العامة لا يرى الناس أشرطة مزخرفة إلاّ على قبعات النساء، ولا شعارات الذهب والفضة إلاّ على ظهور الخدم. ثم إن هذه الملابس الجميلة من كل الألوان التي تعلن عندنا عن وجود طبقة عسكرية متميزة تميزاً واضحاً، ليست في انكلترا أكثر من إشارات إلى فروق شرفية. وكما يمسح الممثل خضابه بعد انتهاء العرض يسرع الضابط الانكليزي، فور انتهاء ساعات خدمته، إلى التجرد من ثيا الحمراء، ويصبح مرة أخرى إنساناً مهذباً في معطفه المنزلي. ولا يتمسكون بهذه الرتب والثياب إلاّ في مسرح (سان جيمس) وهي رتب وثياب ورثوها من خرق القرون الوسطى العتيقة. وهناك ترفرف الشارات الدالّة على الرتب وتلمع النجو وتصرّ سراويل الحرير، والذيول الطويلة من (الساتان) وهناك ترن مهاميز الذهب وكلمات فرنسية متخلفة، هنا ينتفخ الفارس وتزدهي الصبية النبيلة. ولكن ماذا يهم الانكليزي الحر من مهزلة بلاط (سان جيمس). إن هذا لا يزعجه بعد ذلك في شيء، ولا يمنعه إنسان من أن يمثل مثل هذه المهزلة في بيته، ومن أن يجعل خدمه يركعون أمامه، وأن يلهو بربطة ساق طباخته... والعار لَمنْ يظن في ذلك شراً.

«أمّا الألمان فإن هؤلاء ليسوا في حاجة لا إلى الحرية ولا إلى المساواة. إنهم شعب نظري مثالي، مفكر، حالم لا يعيش إلاّ في الماضي وفي المستقبل وليس له حاضر، أمّا الانكليز والفرنسيون فلهم حاضر، وكل يوم عندهم له معركته، ومقاومته وتاريخه. والألماني ليس له ما يجب أن يحارب من أجله، وعندما بدأ يظن أن هنالك أشياء يمكن أن يكون الحصول عليها مرغوباً فيه علّمه فلاسفته في حكمة أن يشك في وجود هذه الأشياء.

لا يمكن أن ننكر على الألمان أنهم لا يحبون الحرية، ولكنهم يحبونها في شكل مختلف عن حب الشعوب الأخرى لها، الانكليزي يحب الحرية حبه لامرأته الشرعية، إنه يمتلكها، ورغم أنه لا يعاملها في رقة خاصة فهو يعرف الدفاع عنها كرجل عند الحاجة، والويل للثوب الأحمر الذي يتغلغل إلى حرم غرفة نومه، سواء أكان مدنياً طريفاً أو رقيباً عسكرياً. والفرنسي يحب الحرية حبه لخطيبته التي اختارها لنفسه، يحترق من أجلها، يلتهب، يترامى على قدميها في أكثر أنواع

الاحتجاجات مبالغة، يحارب من أجلها حتى الموت ويرتكب من أجلها ألف حماقة. والألماني يحب الحرية كما يحب جدته».

الناس مخلوقات عجيبة، في الوطن، ندمدم ونتذمر. كل حماقة، كل تصرف أرعن، يثيرنا، نريد مثل الأطفال ان نتخلص من كل هذا وأن نمضي إلى أقصى العالم، نجده عريضاً جداً بالنسبة لنا، ونتنهد سراً وراء هذه الحماقات الضيقة، وهذه التصرفات الرعناء المسكينة في الوطن وتريد أيضاً أن نكون جالسين في غرفتنا العتيقة التي نعرفها جيداً، وإذا أمكن لنا أن نبني كوخاً وراء الموقد لنقبع فيه متمتعين بالدفء ونقرأ دليل الألمان العالمي فعلنا ذلك في سرور. وهذا ما حدث في انكلترا. لم تكد تغيب عن ناظري شطآن ألمانيا حتى استيقظ في نفسي حب غريب لاهب وشوق عجيب للطاقيات السود التوتونية، ولغابات الشعور المستعارة التي غادرتها وشيكاً وأنا مسرور وعندما أضاعت عيناي الوطن وجدته في قلبي.

صوتي، كانت فيه نبرة من الحنان والرقة عندما أجبت الرجل الأصفر: ـــ يا سيدي العزيز لا تذم لي الألمان، وإذا كانوا حالمين فإن منهم عدداً كبيراً يحلمون بأشياء جد جميلة أكاد لا أستبدل بها كل الحقائق اليقظة عند جيراننا. لأننا كلنا ننام ونحلم، يمكن أن نستغني عن الحرية، لأن طغاتنا وجلادينا أيضاً ينامون ويحلمون بالطغيان، إن الرومان الكاثوليك هم الذين صادروا حريتنا في أن نحلم وأن نستيقظ، وأصبحنا رجال عمل، وكنا متنصرين، ثم نمنا بعد ذلك لنحلم بنفقات جديدة. أوه يا سيدي لا تسخر من حالمينا لأنهم من وقت لآخر مثل المصابين بالسير والكلام في النوم يقولون أشياء رائعة في نومهم، وكلامهم يصبح بذوراً للحرية. ما من أحد يمكن أن يتنبأ بدوران الأحداث، يمكن للانكليزي المصاب بالسوداء، الذي ملّته زوجته أن يضع لها حبلاً في رقبتها وأن يجرّها ليبيعها في سوق (شميتفيلد)، ويمكن للفرنسي الخنيف أن يصبح خائناً لخطيبته، وأن يتركها، ويمضي مغنياً راقصاً يغازل سيدات القصر الملكي، ولكن الألماني لن يدفع إلى الباب قط جدته العجوز، يعطيها دائماً مكاناً صغيراً في البيت تستطيع فيه أن تقصّ على الأطفال الذين يصغون إليها قصص الجن والحوريات. وإذا حدث يوماً ـــ لا سمح الله ـــ أن اختفت الحرية من العالم كله فإن حالماً ألمانياً هو الذي سيجدها في أحلامه.

بينما كان المركب يصعد مجرى النهر ويصعد معه حوارنا غابت الشمس وأضاءت أشعتها الأخيرة ملجأ العجزة في (غرينويش) وهو بناء فخم يشبه القصر،

ويتألف في الواقع من جناحين، يفسح الفراغ بينهما للمارين مجال النظر إلى جبل أخضرُ غابي، يُتوجه قصر صغير جميل. وعلى الماء تتكاثف في كل لحظة أعداد المراكب، وأنا معجب بالمهارة التي يتم بها تجنب هذه المراكب الضخمة الصدام بينها. كنا نحيي مراراً في جد وصداقة وجوهاً كثيرة لم نرها قط ولعلنا لا نراها بعد ذلك أبداً. كان الناس يمرون بعضهم ببعض في كثير من القرب حتى إنهم يمكنهم أن يتصافحوا عند اللقاء والوداع في إن واحد. والقلب يهزه منظر كل هذه الأعداد من القلوع التي ينفخها الهواء، ويشعر بذهول غريب عندما تصل من الشاطىء تلك الضوضاء المتشابكة وموسيقى الرقصات البعيدة، وضجة البحارة المكتومة. ولكنه لا يلبث أن يرى اختفاء الأشياء وحدودها تحت ستار الضباب الأبيض عند المساء. ولا يبقى واضحاً إلّا تلك الغابة من السواري الرشيقة المشوقة.

الرجل الأصفر ظلّ قربي دائمًا ينظر إلى السماء مفكراً كأنه يريد أن يكتشف خلال الدخان النجوم الشاحبة. عيناه تحدقان في الجو دائمًا، وضع يده على كتفي وفي لهجة رجل تحولت أفكاره الذاتية دون إرادة إلى كلمات قال لي: الحرية والمساواة لا نجدهما هنا على الأرض، بل لا نجدهما حتى في السماء هنالك. هذه النجوم ليست متساوية، كلها بعضها كبير وبعضها صغير، بعضها أكثر لمعاناً من بعض، ليس منها نجم يسير في حرية، كلها تخضع لقوانين مكتوبة، قوانين من حديد، العبودية في السماء مثلها على الأرض.

وصاح فجأة واحد من رفاق الرحلة، وهو يشير إلى بناء مرتفع يخرج من لندن يحيطه الضباب كأنها شبح قاتم غامض:

ــ ها هو ذا البرج.

(٢)
لندن

رأيت أغرب ما يمكن أن يقدمه العالم لفكر ذاهل، رأيته ولم أزل أستغربه وأدهش منه... تنتصب دائمًا أمام فكري هذه الغابة من القرميد يخترقها هذا النهر الذي يموج بالوجوه الإنسانية الحية بعواطفها الأليفة المختلفة ونزعتها المختلجة بالحب والجوع والحقد... أتحدث عن لندن.

أرسلوا فيلسوفاً إلى لندن، ولكن كرمى الله لا ترسلوا شاعراً. أرسلوا إليها

فيلسوفاً وليضع مقعده في زاوية (شيبسيد) فسوف يتعلّم فيها أشياء أكثر مما يتعلّمها من كل الكتب التي عُرِضت في معرض (ليبزيغ) الأخير. وما دامت هذه الأمواج البشرية تدندن حوله، فسيموج بحر من الأفكار في نفسه، وسينفخ فيه الروح الخالدة التي تحوم فوقه نفحتها، وستستيقظ أكثر الأسرار خفاء في النظام الاجتماعي وتتبدّى له فجأة، وسيسمع وسيرى في وضوح، تدفقات العالم الحيوية وانتفاضاته. . . وإذا كانت لندن هي يد العالم اليمنى، وهي يد فعّالة قادرة، فإن هذا الشارع الذي يقود من سوق (البورصة) إلى (داوننغ ـ ستريت) يمكن أن يُعَدّ كأنه الشريان الأبهر.

ولكن لا ترسلوا شاعراً إلى لندن. هذا المال الصارم، الذي يترك طابعه على كل شيء هذا الزي الموحَّد الضخم، هذه الحركة الآلية الواسعة، هذه السحنة الكئيبة للسرور نفسه، لندن هذه ذات الإسهاب والمبالغة، تسحق الخيال وتمزق القلب، وإذا أردتم مصادفة أن ترسلوا إليها شاعراً ألمانياً، حالماً يقف أمام كل ظاهرة، أمام متسولة مثلاً أو أمام دكان لامعة للمجوهرات، إذنْ فسوف يُصاب بسوء عظيم، وسوف يصعق من كل الجوانب، أو لعله ينقلب رأساً على عقب في goddam الحبيب في هذه الضوضاء اللعينة. لم ألبث أن لاحظت أن هذا الشعب له ما يشغله كثيراً، يعيش على قدم وساق، ورغم أن الغذاء والكساء عنده أغلى مما عندنا فهو مع ذلك أحسن غذاء وكساء منا. ثم انه مثقل بالديون وهذا ما يلائم كل الناس ذوي المناصب، ومع ذلك فلم يمنعه ذلك من إلقاء دراهمه من النافذة في عناد، ومن أن يدفع المال للشعوب الأخرى لكي يلاكم بعضها بعضاً في رضا كامل، بل إنه يدفع إلى ملوكها واحداً بعد واحد رشاوى طيبة. وهكذا يضطر (جون بول) إلى العمل ليلاً نهاراً لكي يؤمِّن الدراهم اللازمة لمثل هذه النفقات، عليه، ليلاً ونهاراً أن يجهد دماغه ويخترع آلات جديدة. إنه يجلس ويحسب بعرق جبينه، ويركض ويسرق، دون أن يحسب حساب أحد، من المرفأ إلى سوق (البورصة) ومن (البورصة) إلى (ستراند) وعندئذ، عندما يكون شاعر ألماني مسكين يقبع في ركن (شيبسيد) ويعرقل طريقه وهو يقف فاغر الفم أمام دكان للوحات والرسوم، فمن المؤكد أن تغتفر للانكليزي أن يرميه جانباً بكلمة: goddam

اللوحة التي أراها، وأنا فاغر الفم، في زاوية (شيبسيد) تمثل عبور الفرنسيين «بيريسينا» عندما انتزعت من هذا التأمل عدت بعيني إلى الشارع الصاخب، حيث تجري كتل مبرقشة من الرجال والنساء والأطفال والغلمان، ومن عربات البريد،

ومن عربات الجنازات وكلها تدمدم وتصرخ وتئن وتقرقع، وخُيِّل إليّ أن لندن كلها ليست إلّا جسراً على «بيريسينا» يريد كل واحد فيها، في قلق يبلغ حد الهذيان، أن يشقّ له ممراً لكي يمدد البقية الباقية من حياته، ويسحق فيها الفارس المتعجرف الماشي المسكين، والتي يضيع فيها مَنْ يسقط ضياعاً أبداً، والتي يجري فيها أحسن الأصدقاء على جثث بعضهم بعضاً دون رحمة، والتي أرادت فيها الألوف المؤلفة، وهي تموت من الإرهاق وتصبغها الدماء، أن تتشبث عبثاً بألواح الجسر فتسقط في هاوية الموت المتجمدة.

ما أكثر ما تبدو بلدنا العزيز ألمانيا على عكس ذلك أكثر صفاء وأكثر قابلية للإقامة والسكن، ما أشد بطأها الحالم، وسلامها أيام الأحد، التي تتحرك فيها كل الأشياء، الحرس يصعدون في هدوء وذلك تحت شمس هادئة تلمع فيها البزات العسكرية والبيوت وحول الحمامات ترفرف العنادل، وتحت النوافذ يبتسم المستشارون القضائيون السمان، وفي الشوارع الرنانة لكل واحد من الناس فيها مكانه كما يشاء، والكلاب تشم فيها الهواء كما تشاء، والرجال يتوقفون في شكل مريح ويتناقشون حول المسرح ويحييون في عمق كبير عندما يمر بهم شخص متميز له بقية من شريط مبرقش على ثوب رثٍ أو عندما يمر بيطار في البلاط مزخرف، مذهب، يتنازل فيرد بتحية لطيفة.

خططت كثيراً لكي لا تدهشني عظمة لندن الوقور التي سمعت عنها كثيراً من الأمور. ولكني مع ذلك حدث لي ما حدث لذلك الطالب المسكين الذي قرر ألاّ يشعر بالعقوبة التي حلّت به. هناك ذلك الفرق الوحيد وهو أنه ينتظر على ظهره وقع تلك الضربات للعصا المعهودة حسب الاستعمال المعهود، ثم أوقعوا به عوضاً عن الضربات عقوبة خارقة للعادة على مكان خارق للعادة ضربات بعود صغير. أمّا أنا، فقد كنت أرى قصوراً كبيرة ولم أر إلاّ بيوتاً صغيرة، ولكن الجمهور الموحد الذي لا يُحصَى من هذه المساكن فرض عليّ بهذا نفسه، أثره في قوة أشد عنفاً.

هذه المساكن من الآجر تتلقى هواء رطباً ودخاناً من الفحم فتتكون بلون واحد له صبغة زينة غامقة. وهي كلها ذات هندسة واحدة، لها في العادة نافذتان أو ثلاث في العرض وثلاث نوافذ في الارتفاع، وعلى السطح مواقد صغيرة حمراء لها شكل أسنان مقتلعة حديثاً دامية. والشوارع مسحوبة على الحبل لها شكل شوارع مكوّنة من منازل طويلة لا نهاية لها من الجانبين، بنيت على شكل الثكنات. وسبب ذلك أن كل أسرة انكليزية تتكوّن من شخصين وتريد أن تسكن وحدها في بيت،

هو قلعتها، ولذلك فإن المحتكرين الأغنياء يبنون، لإرضاء هذه الحاجة شوارع كاملة يبيعون بيوتها بالمفرق. وفي الشوارع الرئيسية من المدينة، وهي التي تضم في لندن مقر التجارة والصناعة والتي تفصل البيوت القديمة عن البيوت الجديدة والتي تغطي واجهاتها حتى السقف أسماء طويلة ونباتات وأرقام أكثرها مذهبة نافرة، هذه الرتابة المميزة في البيوت تضرب قليلاً عين الغريب الذي يشغله دون انقطاع المنظر العجيب لكثير من الأشياء الجميلة والجديدة المنضّدة على نوافذ الحوانيت. ولهذه الأشياء في ذاتها وقع في النفوس لأن الانكليزي يجد فيها تماماً كل ما يريد اقتناءه، ولأن كل شيء ثمين، مصباح نجمي، حذاء، علبة شاي، ثوب امرأة تدعونا إليها بلمعانها وهيئتها المغرية، وفوق ذلك فإن الفن في العرض، التضاد في الألوان والأنواع يجذبنا جذباً خاصاً إلى الحوانيت الانكليزية، بل إن الأشياء المخصصة للحاجات اليومية تبدو في شكل سحري لامع، وحتى المأكولات العادية تجذبنا إليها بنوع جديد من الإضاءة، بل إن الأسماك النيئة تُعرَض في فن أخاذ يسحرنا بانعكاسات قوس قزح في حراشفها، واللحم النيىء كأنه مرسوم على صحون البلور النظيفة الوهّاجة، مع تاج ضاحك من البقدونس. والخلاصة فإن كل شيء يبدو وكأنه غمزة من غمزات فن الرسم، ويذكرنا باللوحات الوضاءة الطبيعية لـ(فرانز ميبيريس). ليس هنالك غير الناس لا يحملون مثل هذه الوجوه المرحة في اللوحات الهولندية. إنهم في أكثر الوجوه جداً ووقاراً يبيعون أكثر الدمى إضحاكاً وغرابة، ثم إن زيهم ولون ثيابهم موحدان مثل بيوتهم.

في الجانب المعارض للندن، والذي يُسمّى الضاحية الغربية: «ذي وست اند أف ذي تاون» الذي يعيش فيه الناس المتميزون، والذين هم أقل انشغالاً تسود تلك الرتابة سيادة أكبر، هنالك في الواقع شوارع كاملة عريضة وطويلة، كل المنازل فيها كبيرة كأنها قصور ومع ذلك فهي غير متميزة في خارجها، رغم أنها ليست عادية تماماً، النوافذ في الطابق الأول تزينها شرفات من الحديد، ويوجد في الباحة باب أسود من الحديد يحمي الطابق السفلي. هنا نرى ذلك الجزء من المدينة ذات الشوارع الكبيرة التي تصطف على جانبيها بيوت مشابهة للبيوت التي ذكرناها آنفاً، تكون مربعات يقوم في وسطها بستان مغلق بباب من الحديد الأسود وبعض التماثيل. في هذه الباحات لا يحرج عين الغريب منظر الأكواخ الرازحة في البؤس والشقاء. في كل مكان تنصب الثروة والتميز، هناك في الشوارع الصغيرة المنعزلة، وفي الممرات القاتمة الرطبة يتكدّس الشقاء والفقر بأسمالها ودموعها.

الغريب الذي يذرع شوارع لندن الكبرى ولا يقع على أحياء الشعب الفقير الحقيقية، لا يرى شيئاً أو يرى قليلاً من البؤس الواسع في هذه المدينة. هنالك فقط من بعيد إلى بعيد عند مدخل بعض الأزقّة القاتمة تجلس امرأة مهلهلة الثياب صامتة مع رضيع لها فوق صدرها الذابل، وتطلب الصدقة بعينيها. ربما كانت هاتان العينان عندما كانتا ما تزالان جميلتين تجتذبان عيون الناس في انتباهٍ أكبر، ويروعها الآن أن ترى كل هذا البؤس. المتسولون العاديون، أناس عجزة، أكثرهم من السود، تراهم في زوايا الشوارع، يكنسون ممراً للمشاة، وذلك نافع جداً في طين لندن، ويطلبون على تعبهم قطعة من عملة نحاسية. الفقر، مثل الرذيلة والجريمة، لا يخرج من أوكاره إلاّ قرب حلول المساء. يتجنب نور النهار وكأنه يتناقض مع النور كما يتناقض بؤسه في شكل مخيف مع هذه الرفاهية والثروة اللتين تزدهران في كل مكان. ويحدث مع ذلك أحياناً أن يدفع الجوع البؤساء إلى خارج أزقتهم القاتمة، فيقفون بعيونهم الصامتة الفصيحة ويمدون أيديهم الضارعة إلى الأغنياء من التجار الذين يمرون مشغولين وترنّ الدراهم في أيديهم أو يمدون أيديهم إلى اللورد العاطل الذي يجتاز مثل إله متخم، وهو يمتطي صهوة حصانه العالي بهذه الجموع التي هي تحته ويلقي عليها من آنٍ إلى آنٍ نظرة نبيلة غير مكترثة، كأنها نمال صغيرة أو كومة من المخلوقات الحقيرة لا علاقة لفرحها أو ألمها بعواطفه. إن الطبقة الانكليزية النبيلة تبدو وكأنها مخلوقة من طبيعة أرقى ترفّ فوق هذه الطبقة من الأوغاد والسفلة الذين يظلون لاصقين بالأرض، ولا ترى تلك الطبقة في انكلترا الصغيرة إلاّ موطئاً لأقدامها فقط، وترى في ايطاليا بيتها الريفي، وفي باريس صالة للصداقة وفي العالم كله ملكاً خاصاً لها، لا تعرف القلق ولا الحدود، هؤلاء الناس يطيرون حيث يريدون وذهبهم طلسم يحقق لهم أكثر رغباتهم حمقاً وجنوناً.

يا لهذا الفقر البائس، ما أقسى جوعك في مكان يغصّ بالكماليات الوقحة، هنالك حيث يلقي بعض الناس مصادفة وبيد غير مكترثة كسرة من الخبز لك. ما أشد مرارة الدموع التي تسقي بها هذه الكسرة، إنك تسمم نفسك بدموعك. ولك الحق كل الحق في البحث عن الرذيلة وعن الجريمة، إن المجرمين الذين دُفِعوا إلى الجريمة دفعاً يحملون غالباً في قلوبهم عواطف أكثر إنسانية من هؤلاء العطّارين والبقالين الباردين الذين لا غبار عليهم والذين خمدت فيهم كل قوة للشر وكذلك كل قوة للخير. ثم إن الرذيلة ليست دائمًا رذيلة. رأيت بعيني نساء رُسِمت الرذيلة على خدودهن بصباغ أحمر بينما يسكن في قلوبهن صفاء السماء. رأيت هؤلاء النساء... وأريد أن أراهن مرة أخرى!...

(٣)

الانكليز

لكل أمّة مكانها المقرر تحت قناطر بورصة لندن، وتقرأ على اللوحات المرفوعة أسماء: الروس، الاسبان، السويديون، الألمان، الداغركيون، المالطيون، اليهود، سكان همبورغ، الأتراك الخ... الخ... كان كل تاجر يقف تحت اللوحة التي تدل على أمته، أمّا اليوم فمن الجهد الضائع أن نبحث عنه هناك: لقد تقدم الناس. وهناك حيث كان يقف الإسبان يقف الهولنديون الآن، وأهل همبورغ حلوا محل اليهود، وهنالك حيث كان الأتراك نجد الروس، ويقف الطليان حيث كان الفرنسيون، بل إن الألمان أنفسهم تزحزحوا عن مواضعهم بضع خطوات.

ومثل بورصة لندن ظلّت اللوحات القديمة في بقية أنحاء العالم، بينما دفع الناس الذين كانوا تحتها إلى أمام، وحلّ محلهم ناس آخرون لا تناسب رؤوسهم الجديدة اللوحات القديمة، والمعالم المميزة للشعوب المختلفة، التي تمت قوالبها في الشركات وفي حانات الجعة (البيرة) لا يمكنها أن تنفع في شيء إنْ لم يكن ذلك في إيقاعنا في خطيئات مؤسفة. لقد رأينا خلال السنوات الخمسة عشرة كيف تغيرت في وضوح، وتحت أعيننا صفات جيراننا في الغرب، ونستطيع منذ رفع الحظر الضاري أن نعرف في الجانب الآخر من القنال مثل هذا التبدل والمسخ... الانكليز الصارمون الصامتون يذهبون زرافات إلى الحج في فرنسا، ليتعلّموا فيها كيف يتكلمون ويتحركون، وعند عودتهم نراهم في دهشة، وقد انقلبت ألسنتهم، وأنهم لا يكتفون بالبفتيك والنقانق، رأيت بعيني مثل هذا الإنكليزي يطلب في (تاويستوك تافرن) قليلاً من السكر يضعه على الكرنب، وهذه بدعة تناهض المطبخ الانكليزي القديم الصارم، كاد معها صاحب الفندق يقع منقلباً على الأرض لأنه يعلم أنهم في انكلترا، ومنذ الغزو الروماني لم يأكلوا الكرنب إلاّ مسلوقاً بالماء، ودون إضافة شيء من السكر إليه. وهذا الانكليزي نفسه رغم أني لم أزره من قبل يجلس إلى جانبي ويشرع في حديث فرنسي غير متوقع حتى إنني صارحته بأني مسرور جداً أن أجد أخيراً رجلاً انكليزياً ليس حذراً مع الأجانب، وأجاب في صراحة ودون أن يبتسم أنه يتحدث معي لكي يتدرّب ويقوى في اللغة الفرنسية.

إنه أمر يدعو إلى الملاحظة أن الفرنسيين يصبحون في كل يوم أكثر تفكيراً وأكثر جداً وعمقاً كلما أجهد الانكليز أنفسهم في إحراز طبع خفيف سطحي

ضاحك، وتلك ظاهرة تتجلّ في أدبهم كما تتجلّ في حياتهم، إن صحف لندن تهتم بنشر كتابات ضاحكة وروايات تجري في اطار (هاي ــ لايف) اللامع وتعيد تصوير لوحات مثل (ألماكس، وفيفيان جري وترمين، وكوارد، وفليرتاسيون). واسم هذه الرواية الأخيرة تدل أحسن دلالة على هذا النوع كله، إنها مجموعة من الأضاحيك في التصرفات وفي أنواع الحديث المبالغ فيها، ومن هذه الرقة المفضوحة، وتلك الخفة الثقيلة، والعذوبة المرة، والبلادة المرهفة، وباختصار كل تلك الحماقات الغليظة لفراشات من الخشب ترفرف في صالات عُطلة الأحد في لندن.

ولكن أي أدب تقدمه، على عكس ذلك، الصحافة الفرنسية اليوم، هذا التمثيل الحقيقي لفكر الفرنسيين وإراداتهم، وكما أن امبراطورهم العظيم، الذي اغتنم أوقات فراغه في المنفى لإملاء حياته، ولإطلاعنا على أكثر القرارات خفاء في روحه الخالدة. والذي حوّل صخور جزيرة «سانت هيلانة» إلى منبر للتاريخ يحاكم من أعلاه معاصريه وذريتهم المثقفة، فكذلك شرع الفرنسيون في استخدام أيام نكستهم، وزمن خمولهم السياسي، أشرف استخدام ممكن. إنهم هم أيضاً يكتبون وقائعهم. هذه الأيدي التي طالما امتشقت الحسام أصبحت مصدر رعب أعدائها عندما حملت القلم، كل الأمّة إذا صح القول مشغولة بطبع مذكراتها، ولو أنها اتبعت نصيحتي لطبعتها مرة أخرى طبعة خاصة ad usum Delphini مع مناظر جميلة ملونة عن سقوط الباستيل والهجوم على قصر «التويلري» ويوم ٢١ كانون الثاني... الخ.

وإذا كنت قلت إن الانكليز يحاولون اليوم أن يصبحوا خفافاً متأنقين وأن يلبسوا تلك الثياب الطائشة التي يخلعها الفرنسيون فيجب أن ألاحظ أن هذه المحاولة خاصة مقصورة على الطبقة النبيلة والأشراف، على العالم الجميل أكثر مما تشمل البرجوازية. إن الفئة الصناعية، على عكس ذلك وتجار المدن الصناعية وخاصة في إيكوسيا يحملون الطابع المميز للحركات الدينية في القرن السابع عشر، بل يمكن أن أقول طابع الحركة الطهرية (البيوريتان) حتى ان هذا القطاع الشاغر من الشعب يؤلف مع العصريين التناقض نفسه الذي كان في الماضي بين الفرسان وأصحاب الرؤوس المدورة التي وصفها في كثير من الصدق (والتر سكوت) في رواياته.

إنهم يمجدون جداً الروح الايكوسية عندما يعتقدون أنها أبدعت، بالاستناد إلى الدراسات التاريخية الظواهر والأفكار الذاتية لكلتا الفئتين. وأنها وقد تحررت

من الأحكام السابقة مثل إله شاعر، عاملت الفئتين معاً في حياد واحد وفي عطف واحد. ولكنا إذا ألقينا نظرة على الاجتماعات الدينية في (ليفربول) و(مانشستر) ثم على القاعات المغرية في أيام عطل الآحاد نرى في وضوح أن (والتر سكوت) لم يفعل غير أنه نسخ عصره وأنه كسا الوجوه في هذا العهد بأردية العهد الماضي. وإذا فكرنا بعد ذلك أنه هو نفسه من نحو كرجل ايكوسي امتص عن طريق التربية والروح القومية، عواطف البيوريتان، وأنه من جهة ثانية كرجل عضو في حزب المحافظين (ثوري) الذي جعلهم التناقض حياديين، فسّر لنا هذان الجانبـان في سهولة تجرده في وصف النبلاء، والديمقراطيين في زمن (كرمويل)، وأنه لتجرد يجعلنا نعتقد خطأ أننا ينبغي لنا أن ننتظر منه، في كتابه تاريخ نابوليون، مثل هذه الأمانة في تصوير أبطال الثورة الفرنسية.

إن الذي يُلاحظ انكلترا في انتباه يجد كل يوم مناسبة للتعرّف على هاتين النزعتين: العبث والتطير (البيوريتانية) في أكره أوجه تطورهما، وهذا ما ينطبق على نزاعهما، إن مناسبة مشابهة حدثت وخاصة في قضية السيد (وكيفيلد) الشهيرة، وهو الفارس الذي اختطف فجأة بنت السيد (تورنر) الغني وهو تاجر في (ليفربول) وتزوجها في (غرينبا غرين) أمام الحداد الشهير الذي يصنع أكثر الأغلال صلابة. كل الناس ثاروا وتعصبوا، وشعب المختار كله عند الله جأر باللعنة على مثل هذه الجريمة الشنعاء. وفي كل منابر الخطابة في (ليفربول) توسّل الناس للسماء أن تسقط غضبها على رأس (وكيفيلد) والمتآمر معه وأن على الأرض أن تبتلعه في مهاويها كما ابتلعت عصبة (كوراه) و(اتان) وابيرام ولكي يكونوا أكثر ثقة بالانتقام الإلهي ألقوا مرافعات في الوقت نفسه في محاكم لندن لتحريض أرفع أقداس الدين لإثارة غضب الملك king's bench والمستشار الأول وحتى المجلس الأعلى... وفي الوقت نفسه كان الناس في القاعات الفخمة يمزحون كثيراً أو يضحكون في تسامح من ذلك الرجل المغوي للبنات. هذا التضاد في مجموعتين من الآراء بدا لي أيضاً في شكل جد مسل: كنت ذات يوم في الأوبرا قرب سيدتين ضخمتين من مانشستر، كانتا تريان لأول مرة هذا المكان لاجتماع العالم الجميل ولم تستطيعا أن تفجّرا في شكل كاف الرعب الذي استحوذ على قلبيهما عند ابتداء العرض، وعندما بدأت الراقصات الرشيقات في ثيابهن القصيرة يبدين أوضاعهن في لذة ناعمة ويحركن سيقانهن الجميلة الفاجرة، ويهرعن فجأة ليرتمين في أذرع مراقصيهن. الموسيقى المحرقة والملابس البدائية المطرزة في لون اللحم، والقفزات الطبيعية كل هذه

مجتمعة تحالفن في صب عرق القلق على السيدتين المسكينتين، واحمر صدراهما غيظاً وصرختا Schocking! for Shame, for shame وهما تتأوهان وتئنان، لقد أصابهما الرعب بالشلل حتى ما كادتا تستطيعان زحزحة منظاريهما من عيونهما، وبقيتا كذلك حتى اللحظة الأخيرة، حتى سقوط الستار محافظتين على الوضع نفسه.

ومع ذلك فرغم الاعتراضات في إرادات الفكر والحياة العملية نجد في الشعب الانكليزي وحدة في المشاعر تقوم على ما يشعر به شعب. الرؤوس المستديرة والفرسان العصريون يمكن أن يبغض بعضهم بعضاً وأن يحتقر بعضهم بعضاً، ولكنهم يظلون انكليزاً: كما هم. إنهم يجتمعون ويتوحّدون بعضهم ببعض مثل النبتات التي تنمو في أرض واحدة وتمد جذورها فيها في شكل ضيق، ومن هنا ذلك الاتفاق السري في كل الحياة وفي كل حركة تقوم بها انكلترا التي تبدو لنا، من أول نظرة تيهاً من الفوضى والتناقضات. وفرة أسطورية غنية وبؤس، تعصب وزندقة، حرية وعبودية، قسوة ونعومة، استقامة وخداع، هذه التناقضات إذا نظرنا إليها في نهاياتها القصوى، وفوق كل ذلك تلك السماء الملبدة بالضباب الرمادي، هذه الآلات التي تدوي من كل جانب، الأرقام، أضواء الغاز، مداخن المواقد، الجرائد الضخمة، خلايا الحمل، الأفواه المغلقة، كل ذلك يجتمع في مجموعة لا تستطيع أن تتصور جزءاً منها منفصلاً عن المجموعة، وهذا إذا نظرنا إليه جانباً يثير الدهشة أو الضحك، ويبدو لنا في هذا الكل الكثيف شيئاً عادياً جداً أو جدياً جداً.

أعتقد مع ذلك أن الشيء نفسه يحدث لنا في كل مكان. وحتى في البلاد التي تبني لها أفكاراً أكثر غرابة، والتي نأمل أن يكون فيها بيت أكثر غنى بالضحكات والمفاجآت. إن حبنا للرحلات، ورغبتنا في رؤية البلاد الأجنبية، ونحن نقاسي هذه الرغبات أكثر ما نقاسي في شبابنا، تتولدان أصلاً من هذا الانتظار المقلق للتناقضات الخارقة للعادة من هذا السرور الشاذ بأقنعة الزيف التي نتصور عليها الناس والأفكار القائمة في وطننا في البلاد الأجنبية التي تخفي فيها أعز أصدقائنا تحت أزياء وعادات غريبة. إذا فكرنا مثلاً بنساء (هوتن) وهنّ نساء بلدنا، مسقط رأسنا، المصبوغات بالسواد مع إضافات خارجية يتراقصن في خيالنا، ونحن نتسلّق أجسادهن بكل ما في أفكارنا الشابة الجميلة، بكل مهارة الناس المتوحشين الذين يتسلقون أشجار النخيل. وإذا فكرنا في سكان القطب الشمالي رأينا فيهم كل الأوجه التي نعرفها ولرأينا فيهم أيضاً عمتنا وهي تهرع على الجليد في

زحافتها التي تجرها الكلاب. ورأينا السيد الأسكافي Corecteur يستلقي على جلد الدب ويتذوق في هدوء زيت الصباح، والسيدة التي تتلقى الرسوم، والسيدة المفتشة مستشارة التعقيم تقبعان معاً وتعدان الشموع، الخ... ولكننا عندما نبلغ فعلاً هذه البلاد سرعان ما نرى الناس إنساناً واحداً في عاداته وأزيائه، وأن الوجوه تتفق مع الأفكار والثياب مع الحاجات حتى النباتات والحيوانات، الناس والبلد يكونان كلاً منسجماً.

(٤)

أولد بيلي OLD - BAILEY

اسم (اولد بيلي) وحده يملأ الروح رعباً. يتصور الإنسان فوراً بناء ضخماً أسود قاتماً، قصراً للبؤس والجريمة. الجناح الأيسر الذي يكون (نوكات) الأصلي، يُستخدَم سجناً للمجرمين، ولا يرى فيه إلاّ جداراً كبيراً من الحجر المنحوت سوّدته الرطوبة، وفيه طاقات بوجهين رمزيين، علاهما السواد، وأحد الوجهين، إنْ لم تخني الذاكرة يمثل العدالة التي تمسك بيدها المكسورة كالعادة الميزان، حتى إنه لم يتبق منها إلاّ امرأة عمياء تمسك سيفاً، وقرب وسط البناء على وجه التقريب يقوم مذبح هذه الإلهة، يعني النافذة التي يربطون إليها المقصلة، والتي تُقَام فيها الجلسات كل ثلاثة أشهر، وهنالك باب ينبغي أن يلجّه الناس مثل باب جحيم (دانتي) مع هذه الكتابة:

Per me si va nella cita dolente
Per me si va nell' eterne dolore
Per me si va tra la perdutagente

عندما تمر بهذا الباب تصل إلى باحة صغيرة يجتمع فيها زبد الناس ليروا مرور المجرمين، وفيهم أصدقاؤهم وأعداؤهم، وفيهم أيضاً أقرباء وأطفال وشحاذون وحمقى وخصوصاً النساء العجائز اللواتي يعالجن حوادث اليوم وقضاياه في عمق ووعي أكثر من عمق القضاة ووعي المحلفين بما لهم من فخفخة مضحكة ومداولات مملة. رأيت أمام باب المحكمة عجوزاً، تدافع في حلقة أصحابها عن المسكين وليم الأسود خيراً من دفاع محاميه النحرير في قاعة القضاء، وعندما كانت تمسح بوزرتها الرثة دمعة عينها الحمراء الأخيرة خُيِّل إلّي أن كل جريمة وليم قد مسحت معها.

وفي القاعة نفسها، وهي ليست كبيرة إلى حد ملحوظ، وفي أسفلها، أمام ما يسمونه حرم المحكمة مكان صغير للجمهور ولكن يوجد في أعلاها، ومن الجانبين ردهتان واسعتان لهما كراسٍ عاليه، يتكدّس فيها النظارة بعضهم فوق بعض.

عندما زرت (اولد بيلي) وجدت مكاناً في إحدى الردهتين فتحتها لي البوّابة العجوز، لقاء شلن واحد. وصلت في اللحظة التي نهض فيها المحلّفون للحكم فيما إذا كان (وليم الأسود) مذنباً أو غير مذنب في الجريمة التي اتهم بها.

القضاة يجلسون هنا. مثل غيرهم في محاكم لندن، وهم يلبسون أردية سوداً وزرقاً محفوفة بالقرمزي الفاقع، وعلى رؤوسهم شعر مستعار أبيض تبدو فيه حواجبهم وعوارضهم السود في تناقض غريب مع شعرهم. ويجلسون أمام منضدة طويلة على أرائك عالية، وفي طرف القاعة الأعلى نحتوا بأحرف ذهبية على الحائط مقطعاً من الانجيل يوصيهم بألاّ يكونوا قضاة ظالمين. وفي الجانبين مقاعد للمحلفين وأماكن لوقوف المتهمين والشهود، وأمام القضاة مكان المتهمين، وهم لا يجلسون على كراسي المجرمين، كما يفعلون في فرنسا ومقاطعات الرين، ولكنهم يقفون وراء لوحة خاصة مقدودة الأعلى كأنها باب ذو قبة ضيقة، وتوضع فجأة مرآة توجه توجهاً يتيح للقاضي ملاحظة حركات وسكنات وجه المتهمين. وتوضع أمام هؤلاء أيضاً أعشاب عطرية غضّة لتقوية أعصابهم، وذلك يمكن غالباً أن ينفع هؤلاء الذين يوضع جسدهم وحياتهم موضع الاتهام. ورأيت على منضدة القضاة مثل هذه الأعشاب، بل رأيت وردة. ولا أدري كيف حدث ذلك ولكن منظر هذه الوردة هزني هزاً عميقاً إنها وردة حمراء ضاحكة. زهرة الحب والربيع على منضدة محكمة (اولد بيلي) الرهيبة. كان بخار ثقيل حار يدور في القاعة. كل شيء يحمل سيماء حزن لا يوصف، وهذيان جدي. ويظن المشاهد أنه يرى عناكب رمادية تجري على هذه الوجوه البليدة. وكانت ساعات مخيفة تصرخ في وضوح فوق رأس (وليم الأسود).

وتألفت لجنة من المحلفين في الردهة. ولاحظت امرأة سمينة تلمع عيناها كأنها ديدان مشعة في خدود منتظمة بالحمرة أن وليم الأسود غلام جميل جداً، ومع ذلك لاحظت جارتها وهي روح رقيقة مزقزقة في جسد من جلد رديء أن شعره الأسود جد طويل ومشعث، وأن عينيه متوعدتان كأنها عيون السيد خان في رواية عطيل. . . وتابعت: ما أشد الفرق بينه وبين السيد (تومبسون). إن هذا رجل آخر بشعره الأشقر الممشط في ضفائر، ثم إنه رجل ماهر جداً يعزف على القيثارة قليلاً ويرسم قليلاً ويتحدث بالفرنسية قليلاً. . . وأضافت المرأة السمينة: ويسرق قليلاً، وردت عليها جارتها الرقيقة: يسرق، ليس في السرقة من البربرية ما في ارتكاب المآثم، فالسارق مثلاً إذا سرق شاة يُنقَل إلى (بوتاني بي) أمّا الوغد الذي زوّر توقيعاً فيشنق دون رحمة ولا شفقة.

قال رجل نحيل إلى جانبي، يلبس لباساً أسود أجرد: دون رحمة ولا شفقة، يشنق، ليس لإنسان الحق في قتل إنسان، والمسيحيون أقل الناس حقاً في إصدار حكم بالموت، لأن عليهم أن يتذكروا مؤسس دينهم. إن معلمنا ومخلصنا حُكِم عليه بالموت ونفذ الحكم وهو البريء. وأجابت المرأة الرقيقة وهي تبتسم بشفتيها الرقيقتين: ماذا يحدث إذن لو لم يشنق مثل هذا المزوِّر، عندئذ لا يستطيع غني أن يطمئن إلى ثروته مثل المصرفي الكبير في (لومبارد ستريت) و(سان سويتينزلان) أو حتى صديقنا السيد (سكوت) وهو الذي قلّد توقيعه بطريقة جد دقيقة. والسيد (سكوت) كسب ماله في مشقة كبيرة وقد قال الناس أيضاً أنه لم يصبح غنياً إلاّ وهو يتلقى مالاً لقاء أخذ أمراض الآخرين، حتى إن الأطفال ما يزالون يهرعون وراءه اليوم في الشارع ويصيحون به: أعطيك قطعة من ستة بنسات وخذ مني وجع أسناني نعطيك شلناً لو أخذت حدبة جورج الصغير. وقاطعتها السيدة السمينة قائلة: هذا غريب حقاً. غريب أن وليم الأسود وتومبسون كانا من قبل من أحسن الأصدقاء. سكنا وأكلا وشربا معاً، واليوم يتهم (أداوارد تومبسون) صاحبه القديم بالتزوير. ولكن لماذا لا نجد هنا أخت (تومبسون) وهي التي كانت تجري في كل مكان وراء عزيزها وليم؟ وهنالك كانت صبية جميلة ينساب على وجهها الرقيق خمار قاتم كأنه حرير أسود فوق وردة مزدهرة، تتمتم قصة طويلة باكية فهمت منها أن صديقتها ماري الجميلة قد ضربها أخوها ضرباً مبرحاً، حتى وقعت نصف ميتة في سريرها ودمدمت السيدة السمينة: لا تقولي إذن: ماري الجميلة. إنها جد نحيفة وأقسم على ذلك إنها جد نحيفة حتى تُسمى جميلة، وماذا يحدث لو شنق صاحبها وليم... ووصل في هذه اللحظة المحلفون ودخلوا القاعة وصرّحوا أن المتهم مذنب بالتزوير وعندما نطقوا بهذا الحكم اقتيد وليم الأسود إلى خارج القاعة وألقى نظرة طويلة جد طويلة على (وليم تومبسون).

تقول إحدى الأساطير في الشرق: إن ابليس كان في الماضي ملاكاً يعيش في السماء مع الملائكة الآخرين، حتى اليوم الذي أراد فيه أن يفسّخهم، وهذا ما دعا الله إلى رميه في ليل الجحيم الأبدي. ولكنه وهو يهبط من السماء لم يكف عن النظر إلى الأعلى، إلى الملاك الذي قام باتهامه. وكان كلما غاص في الهاوية تصبح نظرته أكثر رعباً وأشد هولاً... ولقد كانت هذه النظرة مرعبة حقاً لأن الملاك الذي أصابته تلك النظرة أصبح شاحباً ولم تعد الحمرة إلى خديه، ومنذ ذلك الحين لُقِّب بلقب «ملاك الموت».

وهكذا أصبح ادوار تومبسون شاحباً مثل ملاك الموت.

(٥)

الوزارة الجديدة

في الصيف الماضي عرفت فيلسوفاً كان، في غمزات سرية وفي صوت منخفض، يشرح لي شرحاً ممتازاً هاماً مصادر الشر. كان يرى كما يرى الفلاسفة الآخرون من زملائه أن علينا في هذا الموضوع أن نقبل شيئاً من معطيات التاريخ، وقد ملت إلى هذا الرأي وفسّرت مصادر الشر بهذا الواقع وهو أن الله الطيب خلق قسطاً كبيراً من الفضة والمال.

وأجابني فيلسوفي: ـ كلام حسن. عندما خلق الله العالم كان خالي الوفاض، فاضطر من أجل ذلك إلى اقتراض المال من الشيطان، وتنازل له عن الخليقة كرهينة. وبما أن الله الطيب لا يزال مديناً له بنفقات العالم، فلم يستطع لطفاً منه وعدلاً أن يمنعه من الطواف في كل مكان ليبذر بذور الفوضى والشر. ولكن الشيطان، من جهته، كان يهمه جداً ألّا يهلك العالم كله، فيضيع عليه رهنه. ولذلك فقد تحرز من قلب العالم رأساً على عقب، والله الطيب الذي لم يكن غافلاً ويعرف أن مصلحة الشيطان ضمان مكتوم، كان يغامر أحياناً فيسلم الشيطان حكم العالم، وكلفه تشكيل وزارة. وهكذا دون جدال استلم (سامبيل) قيادة جيوش جرّارة، وأصبح (بيلزيبوث) الله، و(آستاروث) أمين الدولة واستلمت جدة الشيطان العجوز إدارة المستعمرات الخ... وهذه الزمرة أدارت العالم حسب إرادتها وعلى طريقتها، ورغم كل ما في قلبها من نوايا سيئة فقد كانت مضطرة، رغبة في الحفاظ على مصلحتها الخاصة، أن تصنع بعض الخير للعالم، وأن تعوِّض عن هذا التناقض باستخدام أكثر الطرق بشاعة للوصول إلى غايات طيبة. وفي الآونة الأخيرة قامت بحيل كثيرة من هذا النوع حتى إن الله لم يستطع أن يتحمّل مدة أطول مثل هذه الفظائع وهو في سمائه، فأمر الملائكة الصالحين بتأليف وزارة جديدة، وجمع هذا الملاك حوله كل الأرواح الطيبة، وهبّت على العالم من جديد نفحة من الدفء الفرح، ظهر النور وأغمي على الشياطين، ولكنهم لم يقبعوا بسبب ذلك مكتوفي الأذرع، فهم يعملون سراً ضد كل تحسين، ويسممون ينابيع السلامة الجديدة، ويمزقون في خبث براعم الوردة في الربيع الجديد ويخرجون بحقهم في التعديل شجرة الحياة. والفوضى تهدد بابتلاع كل شيء في غمارها، ويضطر الله الطيب أخيراً إلى أن يعيد للشيطان حكم العالم لكي تستطيع

الخليقة ولو على حساب أبغض الوسائل، وهذا، كما ترى، عاقبة الدين المزعجة.

كشف صديقي في (بي]م) يمكن أن يفسّر التبدل الأخير في الوزارة الانكليزية. لقد كان على أصدقاء (كنيغ) أن يستسلموا، وأنا أسميهم الأرواح الخيرة في انكلترا، لأن خصومهم كانوا شياطينها. هؤلاء، وعلى رأسهم الشيطان (ولنجتون) يطلقون الآن هتاف النصر، وليس لأحد أن يشتم (جورج) المسكين لأنه اضطر إلى الخضوع للظروف. ولا يمكن أن ننكر أن الأحرار، بعد موت (كنينغ) لم يكونوا في حالة تمكنهم من حفظ الهدوء والسكينة في انكلترا، لأن التدابير التي عليهم أن يتخذوها في هذا السبيل شقها المحافظون. أمّا الملك الذي يبدو عنده حفظ الهدوء، أي حفظ عرشه، أكثر الأمور قيمة فقد كان عليه نتيجة لذلك أن يكلّف المحافظين إدارة الدولة. وهم الآن يشرعون في العودة إلى الحكم تحقيقاً لمصلحة بورصتهم، وإلى قطف ثمرات عمل الشعب. وهؤلاء الحكام المحتكرون سيرفعون أسعار حبوبهم، و(جون بول) سيعاني الجوع حتى ينحغّ وينتهي إلى أن يبيع نفسه جسداً وروحاً إلى هؤلاء السادة الأقوياء لقاء كسرة من الخبز، ولسوف يربطونه إلى محراثهم ويضربونه بالسياط، ثم لا يحق له حتى الانكار، لأن دوق (ولنجتون) يهدده من جهته بسيفه، ولأن رئيس أساقفة (كانتربوري) سيضربه بالانجيل على رأسه... وبذلك يسود النظام انكلترا.

إن مصدر هذا الشر هو الدَيْن، الدَيْن القومي، أو كما يقول (غوبيت) دَيْن التاج. والواقع أن (غوبيت) يلاحظ في صواب أنه حين كان يسبق اسم الملك أسماء كل المؤسسات: الجيش الملكي، البحرية الملكية، المحاكم الملكية، السجون الملكية الخ... فالدَيْن الذي يأتي من كل هذه المؤسسات لم يُسمَّ قط الدَيْن الملكي، وهو الأمر الوحيد الذي أُعطي للشعب شرف تعميده باسمه..

إن أكبر الشرور هو الدَيْن، ومع ذلك فهو الذي يمكّن الدولة الانكليزية من البقاء والتماسك ويجعل هؤلاء الشياطين الخبثاء لا يريدون خرابها. ولكنه هو الذي أدّى إلى جعل انكلترا كلها طاحونة تُدار بالقدم، يضطر فيها الشعب إلى العمل ليل نهار لكي يكفل ديون أصحاب الدَيْن، حتى إن انكلترا تشيخ وتشحب قلقاً وتنسى كل أفراح شبابها المجنونة، وانكلترا، مثل كل الناس الذين عليهم ديون باهظة ترزح تحت أعبائها حتى أنها لا تستطيع المقاومة ولا تعرف ما تفعل. رغم أن في برج لندن مائة ألف بندقية، ومثل هذا العدد من السيوف والأسنّة.

(٦)
ولنجتون

شقاء هذا الرجل هو في أنه سعيد حيثما كان أكبر رجال العالم أشقياء، وذلك ما يثيرنا، ويدفعنا إلى كراهيته. نحن لا نرى فيه إلاّ انتصار الحماقة على العبقرية... لقد انتصر (أرثر ولنجتون) حيث أخفق (نابوليون بونابرت). ما من رجل حفته الثروة بالسعادة في شكل أكثر سخرية منه وهي ترفعه إلى منصة النصر، كأنها أرادت أن ترفعه على هاوية صفاره الأجوف. إن الثروة امرأة، وهي مثل طريقة المرأة تنطوي على كره شديد للرجل الذي يقلب صديقها الأثير القديم، حتى ولو كان هذا السقوط نتيجة لإرادتها هي. وهي اليوم، تمكّنه من النصر في قضية تحرير الكاثوليك، وهي المعركة التي أخفق فيها (جورج كنينغ) ويمكن أن يحبه الناس لو أن هذا اللندني المسكين كان هو سلفه في الوزارة ولكنه كان خلف (كينغ) النبيل، كيننغ المأسوف عليه، المعبود، كيننغ العظيم. لقد انتصر حيث ضاع (كنينغ). ولولا مثل شقاء السعادة هذا لكان (ولنجتون) أو ربما كان ممّنْ يعد رجلاً عظيمًا، وفكرنا في كراهته، ولقسناه قياساً صحيحاً، لا بالمقياس الذي نقيس به (نابوليون) أو (كنينغ) ولم نكتشف مقدار ما كان صغيراً كرجل.

إنه رجل ضئيل أو أقل من ضئيل. ولم يستطع الفرنسيون أن يقولوا في (بولبناك) شيئاً أقسى من قولهم إنه (ولنجتون) دون مجد. والواقع ماذا يبقى من (ولنجتون) لو أننا جرّدناه من ثوب مجده الفضفاض؟

لقد ذكرت هنا أحسن صفات اللورد (ولنجتون) ولن يدهش الناس إذا اعترفت في صدق أنني ذات مرة قلت ثناء مدهشاً في هذا البطل، إنها قصة رائعة، وأريد أن أسردها عليكم الآن.

كان حلاقي في لندن رجلاً راديكالياً اسمه (ميستر وايت) وهو رجل صغير ذو لباس أسود رث يعكس شعاعاً أبيض. كان نحيلاً حتى إن وجهه إذا نظرت إليه مواجهة يخيّل إليك أنه جانبي، وأنت ترى زفراته في صدره قبل أن تسمعها، ولا سيما وأنه لا يكفّ عن الزفرات حسرة على ما حلّ من شقاء انكلترا العجوز وعلى استحالة الوفاء بديونها القومية.

كان يقول عادة وهو يتنهد: واأسفاه. ماذا يضير الانكليز لو حكم فرنسا هذا أو ذاك ولو فعل الفرنسيون في بلادهم هذا الشيء أو ذاك؟ ولكن طبقة النبلاء ورجال الدين تخشى مبادىء الثورة الفرنسية، ولكي تخنق هذه المبادىء وجب على (جون بول) أن يسفك دمه وأن يبدّد أمواله ثم أن ترهقه الديون علاوة على ذلك.

لقد بلغت الحرب أهدافها الآن وخنقت الثورة، وقُصَّت في فرنسا أجنحة نسور الحرية، ويمكن لطبقة النبلاء ورجال الدين أن تكون الآن مطمئنة إلى ان ليس في إمكان أحد هذه النسور أن يعبر القنال. وعلى هذه الطبقة الآن أن تدفع الديون التي استدانتها لمصلحتها هي لا لمصلحة الشعب الفقير. آه يا للشعب الفقير! . . . ـ

عندما كان (مستر وايت) يصل إلى الحديث عن الشعب الفقير يتنهد تنهداً أكثر عمقاً، وديدنه الذي يردده أن الخبز والجعة غاليان جداً، وأن على الشعب الفقير أن يموت جوعاً ليسمن اللوردات الضخام وكلاب الصيد والكهنة وليس لهذا السمن إلاّ مصدر واحد هو الشعب. وكانت عادته عند هذه الكلمات أن يحرِّك موسى الحلاقة، وأن يردد في بطء وفي غضب وهو يغدو بها ويروح على الجلد المزيت: لوردات، وكلاب، وكهنة!

ولكن غضبه الرئيسي كان ينصبّ على دوق (ولنجتون) مزبداً عنيفاً. ويبصق السم والصفراء وهو يتحدث عنه فيغطيني عندئذ بزبد غضبه. وذات يوم استبدّ بي قلق كامل وهو يحلق عنقي ويحمل في قسوة على (ولنجتون) ويدمدم دون انقطاع: حبذا لو أمسكت به تحت موس الحلاقة هذه فوفرت عليه عناء ذبح حلقومه بنفسه، كما فعل زميله وصاحبه ومواطنه (لوندو نديري) الذي جزّ عنقه في (نوردكراي) في مقاطعة (كنت) ولعنه الله.

أحسست أن يد الرجل ترتجف وخشية أن يتصور فجأة أني دوق (ولنجتون) حاولت تهدئة غضبه وثورته وتخفيف عنفه رويداً رويداً. وأثرت كبرياءه الوطنية واستنجدت بها وذكرت له أن (ولنجتون) زاد في مجد انكلترا وأنه ليس إلاّ آلة بريئة بين الأيدي المثلثة، وأنه يحب (البفتيك) وأخيراً أضفت مدائح (لولنجتون) لا يعلمها إلاّ الله وأنا أحس بالموسى فوق حلقي . . . .

. . . .

أكثر ما كان يحزنني أن أتصور أن (أرثر ولنجتون) سيكون خالداً مثل (نابوليون بونابرت) لأن اسم (بيلاطس) ظلّ كذلك خالداً خلود اسم المسيح. إنه لحادث مضحك أن يفكر العقل البشري دفعة واحدة في (ولنجتون) و(نابوليون). وليس هناك تضاد أكبر من التضاد بين هذين الرجلين حتى في المظهر الخارجي. ولنجتون إمّعة غبي، له روح قاتمة باهتة في جسد من القماش المشمع، وضحكة من الخشب على وجه جامد. . . ولنتصور مثل هذه الصورة أمام صورة (نابوليون). هذه الصورة لن تفارق ذاكرتي. إني لأراه دائماً وهو يمتطي صهوة حصانه،

وعيناه الخالدتان في وجهه الامبراطوري المرمري، تتطلعان هادئتين مثل القدر، وحراسه يمرون تحته.. لقد ارسلهم إلى روسيا، والجنود الشيوخ رفعوا أنظارهم إليه في إخلاص قاتم، وجدية خبراء وكبرياء موتى:

أيها القيصر، الموتى يحيونك Te Cesar, morituri Salutant.

طالما شككت في أني رأيته حقاً، في أني معاصره حقاً ويخيّل إليّ عندئذٍ أن وجهه، إذا انفصل عن نطاق الحاضر الضيق، يرتدّ دائمًا أكثر كبرياء وأكثر جلالاً في صبغ الماضي، إن اسمه رنّ دائمًا في آذاننا وكأنه تراث من الأزمنة البدائية، نغمة من القدم والبطولة مثل اسماء اسكندر وقيصر. إنه الآن أصبح كلمة وصل بين الشعوب وعندما يلتقي الشرق والغرب يتفاهمان عن طريق هذا الاسم الواحد.

إن تأثير هذا الاسم القادر السحري لمستهُ في شكل ممتاز ذات يوم وأنا أركب في مرفأ لندن، وكانت فيه مراكب هندية. أحد هذه المراكب التي وصلت حديثاً من البانغال. كان مركباً كبيراً، فيه طاقم من البحارة الهنود كثير العدد. كانت الوجوه والمجموعات الضخمة، والألبسة المزخرفة غريبة، والملامح ذات الألغاز، وحركات الأجساد العجيبة، والنبرات الغريبة غرابة وحشية، والمرح والضحك، وإلى جانب ذلك الجد البادي على بعض الوجوه ذات الصفرة الحلوة والتي كانت عيونها مثل أزهار سوداء ترمقني في حزن أسطوري، كان كل هذا مجتمعاً يثير في نفسي شعوراً يشبه السحر. ووجدتني وكأنني انتقلت فجأة إلى أقاصيص شهرزاد، وفكرت عندئذ بأني سوف أرى في شكل أكيد أشجار النخيل ذات الأوراق العريضة تبدو لي، والجمال ذات الأعناق الطويلة والفيلة مجللة بالذهب وغيرها من الأشجار والحيوانات الغريبة. كان وكيل الشحن في المركب وكان يفهم أقل مما أفهم لغة هؤلاء الرجال ولا يستطيع أن يقصّ عليّ بما يكفي، بأفكاره البريطانية المحصورة، غرابة هذا الشعب وكان أكثر البحارة محمديين، جرى التقاطهم من كل أنحاء آسيا من حدود الصين إلى بحر العرب. بل إن منهم زنوجاً من أفريقيا لهم شعر من الصوف.

كنت في ذلك الحين وقد مللت قليلاً عيشة الغرب الثقيلة الرطبة، وأتعبتني أوروبا، فكانت هذه الزاوية من الشرق التي تبدو أمام عيني بصفائها ولمعانها مصدر انتعاش لذيذ لنفسي وشعر قلبي أنه قد أزال عنه ما يرهقه بهذه القطرات من هذه السماء التي طالما تنفستها بعد ذلك خلال الليالي الضبابية في شتاء (هانوفر)

و(بروسيا)، ويمكن لأولئك الرجال الغرباء أن يروا مقدار ما كانت النظرة إليهم طيبة على نفسي، ومقدار ما كان سرور عندما أقول لهم كلمة صداقة صغيرة. وكنت أستطيع التعرّف في ملامح عيونهم الحميمة أنهم هم أنفسهم يقولون لي شيئاً طيباً في رغبة صادقة، وفي ذلك ما فيه من تعاطف رغم أن كلّاً منا لا يفهم لغة الاخر. وأخيراً رغبت في أن أجد طريقة يعرفون بها، بكلمة واحدة، عواطفي الحانية نحوهم، فانحنيت في احترام ومددت يدي في تحية صداقة ونطقت باسم محمد.

وفجأة أشرقت الوجوه القاتمة في هؤلاء الغرباء، وصلّبوا أيديهم، ولكي يردّوا عليّ التحية بمثلها صرخوا: بونابرت.

(٧)
التحرر
(مقتطفات)

لو وجدت فراغاً أنصرف فيه إلى أبحاث لا طائل تحتها لبرهنت جذرياً وفي شكل ممل أن مصر وليست الهند هي التي أنتجت نظام الطبقات المتحجرة، هذا الفكر الذي استطاع منذ ألفي سنة أن يستمر تحت ثياب مختلفة في كل البلاد وأن يتكلم دائماً بلغة كل عصر ليخدع كل عصر، والذي ربما مات الآن ولكنه ما يزال يكتسي مظهر الحياة ويمشي بيننا في عيون حاسدة شريرة ويسمم بروائحه المتفسخة نداوة حياتنا اللامعة، ويمتص، وهو ثعبان القرون الوسطى، دم وحرارة قلوب الشعوب. إن طين النيل لم ينتج فقط التماسيح التي تستطيع البكاء في شكل حسن، ولكنه أنتج أيضاً تلك الطبقة ذات الامتيازات ووارثة طبقة المحاربين الذين يتجاوزون التماسيح في تعطشهم إلى القتل وقطع الرؤوس.

رجلان عميقان من ألمانيا اكتشفا الطلسمات الناجعة ضد أكثر جراحات مصر شراً. وبواسطة السحر الأسود الحقيقي (البارود والمطبعة) كسرا قوة تلك السلالة الروحية والزمنية التي تكوّنت من التحالف بين الكهنوت وطبقة المحاربين يعني بين الكنيسة الرومانية وطبقة النبلاء الاقطاعية، والتي استعبدت كل أوروبا روحياً وزمنياً. إن صحافة المطبعة سحقت بنية السدود التي كان كاهن روما الأكبر يسجن فيها الأفكار. وتنفس شمال أوروبا الصعداء في حرية، وقد تخلّص من ذلك

الكهنوت، الذي ما يزال، والحق يُقال، يستمر في التمتع بإرثه مثل القبيلة المصرية، والذي يمكن أن يبقى أكثر إخلاصاً لطريقة كهان مصر، وهو يستمر في شكل أكثر تأكيداً لا بالتوالد الطبيعي، بل بالتوالد الصناعي، بالتعاون مع الناس العزّاب غير المتزوجين وبالتجنيد على طريقة المماليك. ونحن نرى في الوقت نفسه كيف أن طبقة المحاربين تفقد سلطانها منذ عجزت رتابة الصنعة القديمة عن أداء واجباتها وتخلّت عنه لطريقة إنتاج المحاربين الجديدة: لأن المدافع هدمت اليوم أكثر القصور متانة في سهولة مثل سهولة دكّ الصور لأسوار أريحا، ثم ان درع الفارس الحديدية لا تحميه إلاّ قليلاً من مطر الرصاص فمثله مثل سترة الفلاح من القماش، لقد جعل البارود الناس جميعاً متساوين. بندقية البرجوازي تقتل مثل بندقية النبيل... والشعب ينهض.



إن الجهود الداخلية التي نجدها في تاريخ جمهوريات لمبارديا وتوسكانيا، والكومونات الاسبانية، والمدن الحرة في ألمانيا وفي غيرها من البلاد لا تستحق شرف تسميتها يقظات الشعوب. لم يكن هؤلاء يطلبون الحرية بل الحريات، لم تقم معركة في سبيل التحرر بل في سبيل الحصانات. النقابات التعاونية تناضل من أجل الامتيازات وبقي كل شيء في حدود (الجلد) القاسية وسيادتها. إن المعركة لم تصبح أكثر عمومية وعقلية إلاّ في زمن الإصلاح. نادى الناس بالحرية وطالبوا بها لا على أساس أنها شيء موروث ولكنها على أساس أنها أصيلة، وعلى أنها حق لم يتم بلوغهُ، بل على أنها حق طبيعي. ولم يصدروا رقاعاً بل أصدروا مبادىء، والفلاح في ألمانيا والمتطهِّر في انكلترا استظهروا عندئذٍ بالإنجيل الذي كانت أحكامه تحل محل العقل، يعني ذلك العقل الالهي الموحى به. في هذا الانجيل آيات صريحة بأن الناس منذ ولادتهم أخيار متساوون في التبل، وأن الكبر ملعون من عمل الشيطان وأن الغنى إثم، وأن الفقراء مدعوون أيضاً للتمتع بجنة الله خالق كل شيء، ورب كل الناس.

الفلاحون، وهم يحملون الإنجيل بيد، والسيف بيد جاسوا خلال ألمانيا الوسطى وقالوا للبرجوازي الضخم في مدينة (نورمبرغ) وللقلاع المتكبرة، إنه لا يجوز في المستقبل أن يبقى منزل واحد في المملكة أكثر ارتفاعاً من بيت فلاح. إلى هذه الدرجة من الحق والتقوى فهموا المساواة. ونحن نرى حتى الآن في (فرانكونيا)

وفي (سوآبيا) آثار هذا الدرس في المساواة، وكأنما يتملك المسافر احترام مفعم بالخوف، وكأنه في حضرة الروح القدس، وهو يرى على ضوء القمر الخرائب القائمة للقصور الحصينة وقد دمّرتها حرب الفلاحين. خير لمَنْ كان ذا فكر ضيق ألاّ يرى غير ذلك، ولكنه لو كان ذا بصيرة، وكل إنسان ذو بصيرة إذا عرف التاريخ، لرأى أيضاً ذلك الصيد الكبير الذي قامت به طبقة النبلاء الألمان، وهي أكثر طبقات العالم قحة وقسوة ضد المغلوبين، ولرأى كيف مزّقت بالسيوف أجساد ألوف الأشقياء العُزّل، وكيف عذبوا وضربوا واستشهدوا، وعلى أمواج الخضرة في حقول القمح ترتفع الرؤوس الدامية للفلاحين وهم يشيرون إشارات غامضة، وفوق هذا نسمع القُبّرة الضخمة المتنبئة تصفّر أغنية الثأر مثل مزمار (هلفنشتاين).

نجح الإخوان نجاحا أكبر في (انكلترا) و(ايكوسيا)، لم يكن خرابهم أكثر خزياً وأقل خصباً. ونحن نرى اليوم ثمرات حكوماتهم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبنوا شيئاً جد صامد وثابت، الفرسان المشوقون ما يزالون يسودون كما كانوا من قبل، وما يزالون يتفكهون بالحكايا المضحكة لأولئك الرجال من أصحاب الرؤوس المستديرة الهرمة القاسية، الذين أصبحت دروعهم تسلية لهم في أوقات فراغهم. لم تقم في (انكلترا) ثورة اجتماعية، وظل بنيان المؤسسات المدنية والسياسية قائمًا وسيطرة الطبقات وروح الطوائف الحرفية لا تزالان سائدتين، وانكلترا مهما كانت مشبعة بنور الحضارة الحديثة ودفئها فإنها تبقى دولة من دول القرون الوسطى يعني من القرون الوسطى المزدهرة. والتنازلات التي تمت هنالك لمصلحة الأفكار المتحررة لم تكن إلاّ تنازلات انتزعت انتزاعاً قاسياً من تلك العصور الوسطى الجاسية، وكل التحسينات الحديثة كانت نتيجة من نتائجها، لا بفعل مبدأ من المبادىء بل بفعل ضرورة الوقائع، وكلها تحمل ذلك الطابع اللعين لذلك الازدواج الذي ينتج دائمًا وبالضرورة آلاماً جديدة ومعركة من معارك الموت مع كل ما فيها من أخطار. والإصلاح الديني لم يتم إلاّ نصفه في انكلترا. وفي وسط عرى الحيطان الأربعة في سجن الكنيسة الاكليركانية الأسقفية يجد الإنسان نفسه أكثر سوءاً وانزعاجاً مما لو كان في سجن الكاثوليكية العقلي، فهذا السجن واسع على الأقل ومدهون ومصور في شكل فتّان وله أرائك مريحة وثيرة. وكذلك فإن الإصلاح السياسي لم يكن أحسن حالاً والتمثيل الشعبي أقل ما يكون جدوى. وإذا كانت الطبقات لا تتميز باللباس فهي تختلف مع ذلك بالسلطات القضائية المنفصلة، وبالرعاية والحماية، والمثول أمام المحاكم، والحقوق والامتيازات المعتادة، وبكثير من ضروب الشقاء من

هذا القبيل، وإذا كانت ملكية الشعب وشخصه لا يخضعان لنزوات الارستقراطية، بل للقانون، فإن هذه القوانين ليست مع ذلك إلاّ نوعاً من الأسنان تساعد الأرستقراطية الكريهة على الإمساك بفريستها، وضرباً آخر من الخناجر تذبح به الشعب، لأنه لا يوجد في الحقيقة طاغية من الطغاة في كل قارة أوروبا يفرض على هواه من الضرائب مثلما يُفرَض على الشعب الانكليزي أداؤه باسم إرادة القانون وليس هنالك طاغية أكثر قسوة من هذه القوانين الاجرامية في انكلترا، إنها تقوم بالقتل يومياً من أجل (سكن) واحد وبكل ما في البرودة من معنى. ومع أنهم يعدون في انكلترا منذ بعض الوقت لإجراء تعديلات وتحسينات في هذا الوضع الحزين للأمور، فهم يضعون هنا وهناك بعض الحدود للفهم الزمني والروحي، ويريدون أن يداووا إلى حد ما تلك الأكذوبة الكبرى لتمثيل الشعب، بنقل حق الانتخاب إلى بعض المحلات الصناعية هنا أو هناك، وهو حق انطفأ في بعض الأماكن المتفسخة، ويخففون من حين إلى حين بعض وقائع التعصب الذميم، باعطاء المزايا لبعض الطوائف... فإن ذلك كله ليس إلاّ تعديلاً بائساً لا يمكن أن يبقى طويلاً، وأكثر الخياطين في انكلترا حماقة يمكن أن يتنبأ بأن ذلك الرداء السياسي العتيق سوف يتمزق عاجلاً أو آجلاً ويتحول إلى أسمال بالية.

* * *

ما من أحد يخيط قطعة قماش جديدة على ثوب عتيق. لأن القطعة الجديدة تغلب القماش القديم ويصبح التمزق أكبر. ما من أحد يضع الخمرة الجديدة في الزقاق العتيقة، وإلا فإن العصير يكسر الزقاق ويسيل الخمر وتضيع الزقاق. يجب أن نُعنَىَ بوضع العصر في زقاق جديدة.» (الانجيل).

الحقيقة العميقة لا تنبع إلاّ من الحب العميق، ومن هنا يأتي هذا التوافق في النظر بين متنبىء الجبل القديم الذي تحدث ضد أرستقراطية القدس وبين المتنبئين الجبليين المحدثين في بلادنا الذين أعلنوا من أعلى منابر الجمعية التأسيسية، في باريس، انجيلاً مثلث الألوان، ودعوا فيه لا إلى إصلاح شكل الدولة، ولكن إلى أن تُعَاد صيغة الحياة الاجتماعية من جديد، على أسس جديدة محدثة تماماً.

أنا أتحدث عن الثورة الفرنسية، عن هذا العصر العالمي الذي انبثقت منه عقيدة الحرية والمساواة ظافرة، من هذا النبع الشامل لكل معرفة والذي نسميه العقل، وإنه مصدر إلهام دائم يصدر إنتاجه في رأس كل إنسان، يوطد دعائم

المعرفة وينبغي أن يفضل تفضيلاً كبيراً على تلك الالهامات المتوارثة التي لا تظهر إلاّ عند عدد محدود من الفئة المختارة، والتي يجب أن يعتقدها ويؤمن بها الجمهور إيماناً أعمى. إن هذه الصيغة الجديدة من الإلهام، وهي في أصلها ذات طبيعة ارستقراطية لم تستطع القضاء على سيادة الامتيازات، وهي من صنع الطبقات المتميزة كما قضى عليها العقل الذي هو ذو طبيعة ديمقراطية. إن تاريخ الثورة هو التاريخ الحربي لهذه المعركة التي ينبغي علينا جميعاً أن نخوضها قليلاً أو كثيراً. إنها المعركة القتّالة بين فكرة الحرية والفكر الطبقي المصري.

ورغم أن أغلال الأعداء تزداد تثلمًا كل يوم، ورغم أننا قمنا باحتلال مواقع أفضل، فنحن مع ذلك لا نستطيع أن ننشد أناشيد النصر قبل أن يتم عملنا نهائياً. نحن لا نستطيع إلاّ أن نذهب في فترات الليل إلى ساحة المعركة لدفن الأموات... ومراثينا القصيرة لهم قلّ أن تنفع، إن الافتراء، وهو شبح وقح، يجلس على أكثر القبور نبلاً...

آه.، إن الموضوع يتعلق بالقضاء أيضاً على أعداء الحقيقة المتوارثين، الذين يعرفون في مهارة كيف يسممون سمعة أعدائهم الطيبة، والذين أتقنوا فن تشويه ما قاله ذلك النبي الجبلي الأول، أكثر أبطال الحرية نقاء، لأنه، وهو الذي لم يستطع أن ينكر أنه أعظم إنسان في الأرض جعلوا منه أصغر الآلهة في السماء. وكل من أراد القضاء على الكهنة، فإن عليه أن يتوقع أن خير الأكاذيب والافتراءات سوف تمزق شهرته وصيته الطيب وتجعله أسود الوجه. ولكن، وعلى مثال هذه الأعلام التي تمزقها الرصاصات في المعركة شر ممزق، ويُلونها دخان البارود بالسواد، فيكون الناس أكثر احتراماً لها من احترامهم للأعلام الزاهية الخالية من الشوائب، فليعرضوا أخيراً في الكاتدرائيات كما يعرضون رفات القديسين أسماء أبطالنا فهي كلما تمزقت ولطخت بالسواد ستصبح في يوم من الأيام مقدسة معبودة في كثير من الحماسة في (بانتيون) الحرية.

وهكذا أبطال الثورة، فالثورة نفسها قد افتُري عليها ومثلت في الأهاجي من كل نوع على أنها رعب الملوك، وفزاعة الشعوب، لقد جعلوا الأطفال يحفظون عن ظهر قلب في المدارس، مجازر الثورة، ولا ترى في المعارض منذ عهد طويل إلا صوراً ملونة مرعبة للمقصلة. لا يمكن لنا دون شك أن ننكر أن الثورة طالما استخدمت هذه الآلة التي اخترعها أحد الأطباء المشهورين بتجبير العظام، ويدعى السيد جيلوتين، ولكنهم على أقل تقدير لم يعذبوا المساجين والأسرى طويلاً .ولم

يضربوهم بالعصي، كما كانوا يضربون ويعذبون، الآلاف المؤلفة من أبناء الشعب والفلاحين والبرجوازيين في العهود البائدة. أما أن الفرنسيين، بهذه الآلة، قد شوهوا رئيس دولتهم الأعلى فذلك أمر مرعب حقاً، ولا نعرف إن كان علينا استناداً إلى هذا الواقع أن نتهمهم بجرائم قتل الأهل أو بالانتحار، ولكننا إذا ذكرنا بالظروف المخففة وجدنا أن لويس فرنسا كان ضحية العواطف أقل مما كان ضحية الحوادث. وأن هؤلاء الناس أنفسهم الذين يدفعون الشعب إلى ارتكاب مثل هذا العمل والذين سفكوا في كل زمان دم الأمراء في غزارة كبيرة لا يجوز أن يظهروا وكأنهم متهمون صاخبون. لم يضحِ الشعب إلا بملكين، كانا كلاهما ملكي الطبقة النبيلة أكثر مما كانا ملكي شعب، ولم يحدث ذلك في زمن السلم، ولا في سبيل مصلحة تافهة ولكن في وسط أشد كوارث الحروب رعباً، وعندما رأى أنه يخاف وحين كان لا يضن بدمائه، وما من شك في أن ألف أمير سقطوا ضحايا الشره والمصالح الدنيئة بالخنجر والقيد وسم النبلاء ورجال الكهنوت. يبدو أن هذه الطبقات تعد القتل من بين امتيازاتها، ولهذا السبب فقد اهتمت بالبكاء على موت لويس السادس عشر وشارل الأول.

حبذا لو أن الملوك استطاعوا أن يكونوا أخيراً ملوك الشعب، إذن فسوف يعيشون في أمان أكبر بكثير تحت حماية القوانين مما لو كانوا يعيشون تحت الحماية القتالة لأتباعهم من البارونات والسادة المهذبين. ولكنهم لم يشوهوا وجه أبطال الثورة، والثورة نفسها فحسب، بل شوهوا وجه عصرنا كله، كل شعائر أفكارنا المقدسة حرفوها في جرأة مثيرة. وعندما نسمع أو نقرأ أصحابنا المشوهين الأشقياء نراهم يسمون الشعب، في رطانتهم، الحثالة، ويسمون الحرية الفسق الجامح، وهم في عيون تتطلع نحو السماء وفي زفرات تقية، يتشاكون ويندبون معلنين أننا فاسقون طائشون وأننا ليس لنا، ويا للأسف دين، إنها افتراءات سوداء تجر نفسها حدباء تحت أثقال آثامهم الخفية تريد أن تتجرأ لتشوه عصراً لعله أكثر عصور التاريخ قدسية فيما مضى منها وفيما سوف يأتي، عصراً يضحي بنفسه فداء لآثام الماضي، وفي سبيل سعادة المستقبل، إنه مسيح العصور، مسيح يجهد نفسه في حمل تاجه الدامي من الأشواك وتحت عبء ثقل صليبه، هذا العصر لو لم يقم بين حين وحين بأداء مسرحية هزلية مرحة، وإذا لم يطلق بعض النكات على الفرنسيين والصدوقيين المحدثين لم يتحمل كل تلك الأعباء. إنه من المستحيل على الإنسان أن يتحمل كل هذه الآلام المهرجة لولا مثل هذه التسليات الروحية، وتلك السخريات. إن الأمور الجدية تبدو أكثر قوة عندما تعلنها السخرية. إن العصر

يشبه تماماً أولئك الأبناء من أبنائه بين الفرنسيين الذي كتبوا كتباً ضاحكة جداً وخفيفة جداً، والذين يمكن أن يكونوا قساة جداً وصارمين جداً حيث تكون الحقيقة والجدية ضرورتين، ولنضرب على ذلك مثلاً (لاكلو) و(لوفي دوكرفري) كان كلاهما يقاتل عند الضرورة في سبيل الحرية في بسالة وتجرد الشهداء، ولكنهما في غير ذلك يكتبان كتباً جدّ هزلية ماجنة وجدّ ساخرة، وكلاهما ويا للأسف! ليس له أي دين.

كأن الحرية ليست ديناً طيباً كغيرها من الأديان، وبما أنها ديننا فنحن إذن نستطيع، إذا استخدمنا المقاييس نفسها أن نعلن أننا أعداءها وخصومها هم الفاسقون الذين ليس لهم دين.

نعم سأعيد التصريح الذي بدأت به هذه الأوراق. إن الحرية هي الدين الجديد، دين عصرنا ولو لم يكن المسيح إلهاً فلا أقل من أن يكون كاهناً سامياً وأن يضيء اسمه في نور باهر قلوب تلامذته وحوارييه. والفرنسيون هم الشعب المختار لهذا الدين الجديد وهم في لغتهم أول من صاغوا الأناجيل الأولى والعقائد الأولى في هذا الدين. وباريس هي بيت المقدس الجديدة ونهر الرين هو نهر الأردن، الذي يفصل بين بلاد الفروسيين وبين البلاد المكرسة للحرية.

شنابل وبسكي

(مقتطفات)

(١)

أبي كان اسمه شنابل وبسكي، وأمي كان اسمها شنابل وبسكا. كنت أبناً شرعياً لهما، ولدت في ١ نيسان ١٨٠٥ في سنابل وبس. عنيت عمة أبي، سيدة البيتسكا العجوز، بطفولتي الأولى حكت لي حكايات جميلة، ونمت في كثير من الأحيان، وهي تغنيني أغنية غابت عني كلماتها ولحنها، ولكني لم أنس الطريقة العجيبة التي كانت ترجح بها رأسها الذي يهتز عندما تغني، ولا ملامح الأسى في سنها الوحيدة الكبيرة التي تنفرد في صحراء فمها. وأتذكر أحياناً الببغاء الذي بكت موته في مرارة. لقد ماتت عمة أبي العجوز الآن أيضاً، وأنا الإنسان الوحيد في العالم الذي يفكر حتى الآن ببغائها العزيز. قطتنا تدعى (ميمي) وكلبنا يدعى (جولي) وله معرفة طيبة بالناس، يبتعد دائماً كلما أمسكت بالسوط. ذات صباح قال لنا الخادم إن ذنب الكلب يلتصق قليلاً بساقيه ويمد لسانه أكثر من العادة، وألقي (جولي) المسكين، وقد ربطت بعض الأحجار في عنقه في ماء النهر، وهناك في هذه الظروف غرق. خادمنا يسمى (برشتستفيتش) كان يتصبب عرقاً وهو يجهد ليجعلنا ننطق باسمه نطقاً صحيحاً. خادمتنا تسمى (سوورتسكا) وفي اسمها عسر على الألمان ولكنه منسجم ورنان في اللغة البولونية. كانت سمينة متماسكة ذات شعر أبيض وأسنان شقراء. وهناك أيضاً في البيت تجوسه عينان جميلتان سوداوان تسميان (سيرافين). إنها ابنة عم صغيرة جميلة، نلعب معاً في الحديقة ونراقب سعي النمال في طلب الرزق، ونلتقط الفراشات ونزرع الأزهار، ولقد ضحكت ذات يوم ضحك مجنونة عندما رأتني أزرع في التراب جواربي الصوفية. وأنا أتصور أنها سوف تكون زوجاً من السراويل أقدمها لأبي.

كان أبي أطيب روح في العالم، وكان زمناً طويلاً رجلاً رائعاً: رأس حليق، وضفيرة صغيرة صقيلة، لا تنوس ولكنها تعلو القذال بمشط صغير من الصدف. يداه بيضاوان بياضاً ناصعاً طالما قبلتهما. وما أزال يخيل إلي أني أتنفس عبيرهما العذب الذي يتغلغل ويخدعني. لقد أحببت أبي جداً لأني لم أتصور قط أنه يمكن أن يموت.

أما جدي لأبي فكان السيد (شنابل وبسكي) العجوز، فلا أعرف عنه شيئاً إلا أنه رجل وأن أبي ابنه. وأما جدي لأمي فكان السيد (فلرسرنسكي) العجوز (ويجب أن تعطس إذا أردت النطق بهذا الاسم نطقاً جيداً) ولقد صنعوا له صورة بلباسه من المخمل القرمزي القاني وسيفه الطويل، وطالما قالت لي أمي أن له صديقاً يلبس ثوباً من الحرير الأخضر وسروالاً من الحرير الوردي، وجوارب من الحرير الأبيض، وأنه كان يحرك في غضب قبعته الصغيرة الواطئة عندما يتحدث عن ملك (بروسيا).

أمي السيدة شنابل ويسكا ربتني عندما كبرت تربية صالحة. قرأت كثيراً من الكتب. وعندما كانت في مثل سني قرأت على الخصوص كل آثار (بلوتارك). وربما أثارت خيالها بواحد من رجاله الكبار، لعله واحد من (الكراك)، ومن هنا كانت رغبتي الصوفية في أن أصوغ في شكل حديث قانون الزراعة. كما يمكن أن يُسند حبي للحرية والمساواة إلى قراءات أمي قبل النوم. ولو أن أمي قرأت (حياة الرصاصة) فمن الممكن أن أصبح مصرفياً عظيماً. كم مرة، في طفولتي، تركت مدرستي لأذهب فأحلم وحيداً في براري (شنابل ويس) في سبيل تحقيق سعادة الإنسانية جمعاء. وطالما اتهموني وسموني كسولاً فأهانوني، ثم عاقبوني نتيجة لذلك، وكان علي عندئذ أن أقاسي كثيراً من المتاعب والآلام في سبيل أفكاري عن سعادة العالم. كانت ضواحي (شنابل ويس) جميلة جداً يجري فيها نهر صغير يسبح فيه الناس خلال الصيف في كثير من السرور، وهنالك أعشاش عصافير رائعة في قصبات الشاطىء وأدغاله. ومدينة (جنسين) العتيقة التي كانت عاصمة قديمة لبولونيا لا تبعد عنا أكثر من ثلاثة فراسخ. وفي كاتدرائية هذه البلدة دفن القديس (ألبير)، ويمكن أن ترى رفاته في تابوت من فضة، وفوقه تمثاله الشخصي في حجمه الطبيعي، مع تاج الأسقفية وصولجانها، وقد ضم يديه في تقوى، وكل ذلك في فضة مذابة، يا للفضة القديسة! ما أكثر ما فكرت فيك رغم أنفي. وكم من مرة وأسفاه سارت أفكاري في طريق بولونيا، فإذا أنا أجد نفسي في كاتدرائية

(جنسين) أستند إلى الأعمدة قرب قبر (ألبير) واستمع أنغام الأرغن كأن عازفها يردد قطعة من لحن (شقاء اليغري)، وفي كنيسة بعيدة يدمدمون بقداس، وآخر أشعة الشمس تخترق الزجاج الملون في النوافذ، والكنيسة فارغة إلا أمام التابوت الفضي الذي يجثو عنده رجل يصلي، انجيلي في وجه امرأة ترميني بنظرة منحرفة، ولكنها لا تلبث أن تستدير إلى القديس، وهي تتمتم بشفتيها الناعمتين إلى حد عاطفي هذه الكلمات: أعبدك!

وفي اللحظة التي كنت أسمع فيها هذه الكلمات رن جرس القداس من بعيد وبعث الأرغن أكثر أنابيبه صدى ورنيناً، ونهض وجه المرأة عن درجات القبر، ثم ألقت وشاحها الأبيض على وجهها الأحمر، وغادرت الكاتدرائية.

«أعبدك» هذه هل هي لي أم لألبير الفضي. لقد كانت تميل إلى جهتي ميلاً واضحاً ولكن بوجهها، وماذا تعني تلك النظرة المنحرفة التي رمتني بها والتي انتشرت أشعتها في روحي كأنها ذلك المد الطويل من النور الذي يسكبه القمر على البحر عندما يخرج من ظلام الغيوم ثم يغوص فيها مرة أخرى.

هذا المد المنير، في روحي المظلمة مثل البحر، أطلقت كل العواصف التي تنام في أعماق الهاوية، واندفعت أسماك القرش وأشد عفاريت العاطفة عنفاً وقوة إلى السطح وعاثوا فيه وقضموا أذنابهم من الفرح، وفي خلال هذه الفوضى كان الأرغن يدوي ويزداد وقاراً كأنما هو ضوضاء الزوبعة على بحر الشمال.

تركت بولونيا غداة غد.

(٢)

جهزت أمي نفسها حقائبي، وحزمت مع كل قميص من قمصاني نصيحة طيبة من نصائحها. وبعدئذ غيرت الغسالات كل هذه القمصان ومعها كل النصائح الطيبة. كان أبي منفعلاً جداً وأعطاني لائحة طويلة فصلت فيها، مادة بعد مادة، الطريقة التي ينبغي أن أسير عليها في هذا العام، المادة الأولى تقضي أن أقلب عشر مرات في كل الاتجاهات كل دانق من الدوانق قبل صرفه وإنفاقه. وتبعت بادىء بدء هذه التوصية، ثم أصبح هذا التقليب المستمر مرهقاً لي. وأعطاني والدي مع هذه اللائحة الدراهم المناسبة لها؛ ثم أخذ مقصاً وجز خصلة من الشعر في رأسه العزيز وأعطاني الخصلة تذكاراً له: وما أزال أحتفظ بها، وأبكي كلما رأيت شعرها الناعم الرمادي.

في الليلة التي سبقت رحيلي حلمت الحلم الآتي:

ارأيت نفسي أتنزه وحيداً في بلاد جميلة على شاطىء البحر. كان الوقت عند الظهيرة تقريباً، وكانت الشمس تشرق على المياه فتشع كأنها لآلىء. وهناك على الشاطىء تنتصب شجرة صبر كبيرة تمتد أذرعها في ضراعة نحو السماء اللازوردية. وهنالك أيضاً شجرة صفصاف باكٍ ترتفع أغصانها كلما بلغتها الأمواج حتى كأنها حورية فتية من الحوريات ترفع جدائلها الخضراء لكي تجيد الاستماع إلى النجاوى الغرامية التي توشوش في أذنيها. والواقع أنني كنت أسمع زفرات كأنها زقزقة ناعمة. وشع البحر في كل وقت إشعاعاً أكثر لمعاناً وتلون ألواناً أكثر تألقاً، وتمتمت الأمواج تمتمة تزداد انسجاماً، وعلى الأمواج المشعة المتممة كان القديس (ألبير) كما رأيته تماماً في كاتدرائية (جنسين) مع صولجانه الفضي في يده الفضية ومع تاجه الفضي على رأسه الفضي، وأشار لي برأسه وعندما أصبحت أمامي قال لي في صوت ناعم فضي: . . .

أما كلماته فقد منعتني ضجة الأمواج من سماعها. ولكني أعتقد أن خصمي، الرجل الفضي، قد سخر مني. لأني ظللت ممددا على الشاطىء حتى داهمني غسق المساء وأصبحت السماء والبحر قاتمين، لا لون لهما، حزينين إلى حد تجاوز كل مقياس. وارتفع المد، أشجار الصبر والصفصاف طقطقت وحملتها الأمواج التي كانت أحياناً تفرّ في سرعة ثم تعود منتفخة في كثير من الغضب، صارخة مدوية مزبدة ثم سمعت ضجة موزونة كأنها ضجة مجاذيف ثم رأيت قارباً يصارع الأمواج. أربع وجوه بيض مرهقة متعبة كانت تجلس في القارب وتجذف في جهد، وفي وسط الجماعة امرأة شاحبة ذات جمال له تقاطيع جد ناعمة كأنه مصنوع من عطر الزنبق. . . وقفزت المرأة إلى الشاطىء. ولم يلبث القارب، برجاله الأربعة الأشباح التي كانت تجذف، أن اندفع إلى عرض البحر كأنه سهم، وبين ذراعي كانت (بانا جادفيجا) تبكي وتضحك وتقول لي: أعبدك.

(٣)

عندما غادرت شنابل ويس، طرت إلى ألمانيا يعني إلى (هامبورغ) وبقيت فيها ستة أشهر بدلاً من أن أذهب تواً إلى (ليد) لأعكف على دراستي، كما أراد أبواي، لعلم اللاهوت. ويجب أن أعترف أني خلال هذه الأشهر الستة، انصرفت إلى الأمور الدنيوية أكثر من الأمور السماوية.

إنها مدينة جيدة هذه المدينة (هامبورغ) ليس فيها إلا بيوت صلدة وخاصة بيوت المصارف. ثم إنها دولة حرة يحكمها مجلس نيابي يُسمى أعضاؤه «الحكيم السامي والحكيم الأكثر سمواً». حقاً إنها دولة حرة، البرجوازيون يفعلون فيها ما يشاؤون، ومجلسها النيابي بحكمته السامية والأكثر سمواً، يفعل كذلك ما يشاء: كل إنسان سيد لأعماله، إنها جمهورية. لو أن (لافاييت) لم يضعه الحظ في لقاء (لويس فيليب) لأوصى أصحابه الفرنسيين بنواب (هامبورغ) وقضاتها.

نعم إن (هامبورغ) أفضل الجمهوريات، عاداتها وأخلاقها عادات الانكليز وأخلاقهم، ولكن مطبخها لذيذ. بين (واندراهم) و(دريك دول) أطعمة لا يشك فيها فلاسفتنا. وسكان (هامبورغ) رجال طيبون ويأكلون جيداً، وفي موضوع الدين والسياسة والعلم فأنت تجد فيها العدد العديد من الآراء، أما على المائدة فيسود أهل (هامبورغ) تفاهم الأصدقاء. ومهما كانت النزاعات بين رجال الدين المسيحيين فيهم حول العشاء الأخير الذي قدمه السيد المسيح لحوارييه عنيفة، فإنهم متفقون تماماً عندما يتعلق الأمر بغداء طيب. واليهود فيها حزبان حزب يتلو الصلاة قبل الطعام باللغة الألمانية وحزب باللغة العبرانية، ولكن الحزبين كليهما يأكلون في شهية متساوية؛ والمحامون، الذين هم واضعو القوانين الذين من طول ما يقلبونها ويعيدون تقليبها، ينتهون إلى أن يجعلوا منها لحماً مشوياً على موائدهم، أقول، هؤلاء المحامون الذين يتخاصمون في المحاكم كأن بهم مساً، يتفقون على نقطة أساسية هي أن فخذ الخروف ينبغي أن يكون طرياً حنيذاً. وعواطف الاسبارطيين تفعم قلوب جنود (هامبورغ) البسلاء، ولكن لا تحدثهم عن العصيدة السوداء. وأطباء (هامبورغ) على خلاف تام في موضوع تشخيص الأمراض، لمكافحة المرض المستوطن، الارتباكات في أجهزة الهضم، يزيد أتباع (بروان) الكمية اللازمة اليومية من لحم البقر المُدَخّن، وغيرهم من الأطباء يأمرون بـ$\frac{١}{١٠,٠٠٠}$ من حبوب الأبسنت) في كوب كبير ملآن بحساء السلحفاة.

إن (هامبورغ) هي وطن لحم البقر المُدَخّن، وهي بذلك تفتخر، كما تفخر (مايانس) بـ(جان فوست) و(اسليبين) بـ(مارتن لوثر)، ولكن ما قيمة المطبعة والإصلاح الديني بالنسبة إلى لحم البقر المدخن؟ هل هذان الأخيران لهما أثر طيب أو سيء؟ تلك مسألة ما تزال موضوعاً للمناقشة بين حزبين في ألمانيا، ولكن أكثر المتطرفين حماسة يعلنون أن لحم البقر المدخن اكتشاف جيد طيب.

لقد أسس مدينة (هامبورغ) الامبراطور الكبير شارلمان، ويسكنها ألوف من

الناس الصغار الذين لا يتغيرون بوجود الامبراطور الكبير المدفون في (اكس لاشابل). ربما تجاوز عدد سكان (هامبورغ) ١٠٠,٠٠٠ نسمة، فأنا لا أعرف عددهم تماماً، رغم أني قضيت أياماً كاملة في الطواف في الشوارع ورؤية المارة فيها. لا شك أن هنالك رجالاً لم أرهم، لأن النساء هن اللوتي يثرن انتباهي على الخصوص. لم أجدهن في أكثرهن نحيلات، بل هن قويات، وذوات جمال مفعم بالإغراء أحياناً، وهن، وسطياً ذوات شهوانية وطيدة لم تسخطني، بل أرضتني على العكس. وإذا كن لا يظهرن كثيراً من الحماسة للحب الرومنطيقي، ولا يخامرهن الشك في وجود هذه العاطفة الكبرى في النساء الكريمات فإن هذا الخطأ لا يقع عليهن، وإنما يقع على رب الحب الصغير الذي يفرز مكاناً على قوسه لأكثر الملامح حدة، ولكنه، إما خبثاً منه أو طيشاً، يستهدف بسهامه مكاناً أدنى، فبدلاً من أن يصيب نساء (هامبورغ) في القلب، يصيبهن في المعدة.

أما الرجال، كما رأيتهم في أغلب الأحيان، فهم ذوو قامات ربعة، وعيون ذكية باردة وجبهات غائرة، وخدود حمر، ينحنون في إهمال، وأعضاء المضغ لديهم متطورة تطوراً عريضاً، وكأن قبعاتهم مسمرة على رؤوسهم، وأيديهم دائماً في جيوبهم على أكياس نقودهم كأنهم يهمون أن يسألوا: «ماذا علي أن أدفع»؟

من طرائف المدينة: ١ ــ بلدية المدينة القديمة وفيها تماثيل من الحجارة لأكابر رجال المصارف في (هامبورغ) وفي أيديهم الصولجان والكرة الأرضية ٢ ــ سوق البورصة ــ المضاربات ــ ويجتمع فيها أولاد (هامونيا) كما كان الرومان يجتمعون سابقاً في «الفوروم» وفوق رؤوسهم تتعلق لوحة تذكارية سوداء كتبت عليها أسماء الشخصيات المتميزة من المفلسين المزورين المحتالين ٣ ــ ماريان الجميلة وهي سيدة ذات جمال عجيب تقضمه أسنان الزمان منذ عشرين من السنين ــ وأسنان الزمان مسخ ذلك ولنقل ذلك عابرين، فالزمان، وهو العجوز القديم من المؤكد أنه لم تبق له أسنان (أما الجميلة ماريان فلها أسنان كاملة). وبين طرائف (هامبورغ) أيضاً ٤ ــ مدينة (آلتونا) ٥ ــ المخطوطات الأصلية للمأساويات المرحوم السيد (مار) وهو فندقي ذو موهبة كفندقي. ٦ ــ مالك متحف (رودينغ) ٧ ــ بورسان هال ٨ ــ باخوس هال و٩ ــ مسرح المدينة. وهذا المسرح يستحق أطيب أنواع الثناء. وأعضاؤه كلهم من المواطنين الطيبين، آباء أسر أشراف، غير قادرين على التلفيق والغش، يجعلون من المسرح مدرسة للأخلاق الراقية، والشقي الذي يشك في وجود الفضيلة بين الناس يقر أن ليس كل ما في هذا العالم الدنيوي نفاقاً وتزويراً.

إنني وأنا أعدد طرائف جمهورية (هامبورغ) لا أستطيع أن أمتنع عن الإقرار بأن قائمة (أبولون) كانت في عهد مؤسسه جدّ لامعة. لقد سقطت الآن وتقام فيها الآن حفلات موسيقية. وتعرض ألوان من الشعوذة ويأكل فيها مؤتمر العلماء الطبيعيين. أمّا في الماضي فالأمر مختلف جداً، القاعة تضج بالأبواق والطبول وقرعات الصنوج، وأخلاط من الناس لهم ريش النعام يتماوجون في الهواء، وهيلويز ومينكا تركضان في صفوف الراقصات رقصة (اوجنسكي) البولونية، وكل شيء يسير في أدب ولباقة.

يا لها من أيام ابتسمت لي فيها السعادة، وكان اسم هذه السعادة هيلويز، كانت سعادة ناعمة عذبة رائعة ذات خدود حمر وأنف صغير من الزنبق وشفتين من القرنفل الأحمر، ملتهبتين، معطرتين، وكانت تنظر إلى تلك السعادة بعينين زرقاوين مثل بحيرات جبال الألب، ولكن أثارة قليلة من الغباء تغشى الجبهة كما تتلامح أحياناً ثوب من الحرير الأسود من الغيوم على منظر رائع في الجبال أيام الربيع. كانت رشيقة مشيقة مثل النخلة، نشيطة مثل السنجاب، ناعمة الجلد ملساؤه تكاد وخزة دبوس الشعر تسبب لها التهاباً يدوم اثني عشر يوماً، ولكنها، عندما وخزتها لم تحرد إلا ثانيتين ثم ابتسمت ــ يا لهذا الزمن الحلو الذي كانت السعادة تبتسم لي فيه!

أما (مينكا) فتبتسم نادراً، فليست أسنانها جميلة، ودموعها أكثر جمالاً فهي تسفحها عند كل مصاب يصيب الآخرين، ثم إنها محسنة مواسية إلى حد يستعصي على كل تعبير، وهي تعطي كل ما يمكن أن تعطيه أجمل الفتيات عندما تكون عطوفاً، لا أكثر من ذلك. مسكينة (مينكا)!

هذا الطبع السهل، الطيب يؤلف تناقضاً رائعاً مع مظهرها الخارجي. قامة مثل قامة (جونون) ممشوقة في جرأة، ونحر متكبر، تحف به جدائل من الشعر الأسود كأنها الأفاعي الكبيرة، وعينان تشعان، تحت حاجبين قاتمين منتصرين، إشعاعاً مهيمناً، وشفتان قرمزيتان لهما انحناءات سامية، ويدان من المرمر حركاتهما آمرتان، فيهما ويا للأسف بعض بقع من الجدري، وعلاوة على ذلك على الذراع اليسرى نقش أسود كأنه خنجر.

لو أنهم أخذوك إلى ما يسمونه «صحبة السوء» أيها القارىء العزيز فلا أقل من أن تفكر أن هذه الصحبة لم تكلف غالياً أحداً كما كلفتني.

ثم إن النساء المثاليات لا يخلو منهن هذا الكتاب، ومنذ الآن، ومن أجل راحتك سأقدم إليك امرأتين كانتا كما يجب، عرفتهما في ذلك العهد، وهما: السيدة (بيبر) والسيدة (شنيبر). السيدة (بيبر) امرأة جميلة في أكثر سنوات عمرها نضجاً، عينان كبيرتان سوداوان، جبهة واسعة بيضاء، خصلات سود مزورة، أنف روماني قديم منحوت نحتاً جريئاً، وفم كأنه مقصلة بكل ما لها من شهرة وسمعة طيبة. الواقع، وفي صدد السمعة الطيبة، ليست هناك آلة للقتل أسرع إنجازاً من فم السيدة (بيبر)، إنها لا تترك من تقتله يُعذب أمداً طويلاً، ولا تتخذ إجراءات واستعدادات طويلة المدى. عندما تقع أحسن النساء سمعة طيبة تحت أسنانها لا تفعل السيدة (بيبر) شيئاً غير أنها تبتسم، ولكن هذه الابتسامة ليست إلا حد السكين القاطعة التي تهبط، ويسقط شرف رجل في الكيس المشؤوم. وبهذا كانت دائماً نموذجاً للباقة والشرف والتقوى والفضيلة.

يمكن أن نثني مثل هذا الثناء على السيدة (شنيبر)، إنها امرأة رقيقة ناعمة، ذات حنجرة صغيرة مرتبكة، يُغطيها دائماً منديل خفيف، وشعر أشقر أصفر، وعينين زرقاوين قاطعتين في تعبير غريب عن الذكاء في صبغة بيضاء، يخيل إليك أن من المستحيل أن تسمعها وهي تمشي، والواقع أنك في أبعد لحظة تكون فيها منتظراً لوجودها تجدها أمامك أو إلى جانبك ثم تختفي كذلك دون ضجة. وكذلك فإن ابتسامتها قاتلة لكل سمعة طيبة ولكنها تفعل فعلتها أقل من فعل الفأس ومثل فعل تلك الرياح المسمومة في أفريقيا التي تصيب لفحتها الأشجار والأزهار، وكذلك تذبل في بؤس كل سمعة طيبة تلفحها السيدة (شنيبر) بابتسامتها، ومع ذلك فإن السيدة (شنيبر) تبقى دائماً نموذجاً للباقة والشرف والتقوى والفضيلة.

وعلي أيضاً أن أزين بثنائي عدداً من أبناء (هامونيا) ولكني الآن أدع جانباً حماستي حتى تنبثق بعد ذلك في لهب أكثر قوة وثناء. والواقع أني لا أهتم بشيء أقل من اهتمامي بنشر (بانتيون هامبورغ) وأريد، كما كنت في كل وقت، مدفوعاً برغبتي في نشر كل ما هو خارق للعادة أن أصنع شيئاً عظيماً في هذا العالم، بل إني خططت لمشروع نشر (بانتيون هامبورغ)، وهو مؤلف ضخم خالد أمجد فيه كل سكان (هامبورغ) دون استثناء، وأعرض الملامح النبيلة لإحسان سري، لم تكن قد ظهرت في أية جريدة، وأقص فيها مغامرات لا أظن أن أحداً من الناس يستطيع تصديقها وتظهر فيها، كدليل مزخرف، صورتي الشخصية، وسأمثل فيها جالساً أمام جناح سويسرا على (يونغ فيرشتند) أتأمل تمجيد (هامبورغ).

(٤)

يجب عليّ من أجل القراء الذين يجهلون مدينة (هامبورغ) ـ فربما كانت موجودة في الصين أو في (بافاريا) العليا، أن ألاحظ أن أجمل نزهة لأبناء وبنات (هامونيا) تحمل اسم (يونغ فيرشتند) الشرعي، وهو مؤلف من ممر من أشجار الزيزفون يحفه صف من البيوت في أحد جانبيه وفي الجانب الآخر يقوم حوض (الستر) الكبير، ويرتفع في هذا الجانب مقهيان اثنان بنيا على الماء على شكل خيام ويسمى كل مقهى منهما باسم «الجناح».

في العادة تحلو الجلسة في الصيف أمام أحد هذين الجناحين اللذين يسمى كلاهما «الجناح السويسري»، إذا لم تكن الشمس بعد الظهر محرقة، وإذا كانت تبتسم في عذوبة، وتنشر فخامة ساحرة على البيوت والناس وحوض (ألستر) وأسراب الإوز التي تسبح في الماء.

الجلسة هناك حلوة ولقد ظللت جالساً هناك خلال أكثر من وقت من أوقات بعد الظهر في الصيف، وأفكر فيما يفكر فيه الشباب عادة، يعني في لا شيء، واتطلع إلى ما يتطلع إليه الشباب عادة يعني إلى الفتيات المارات هنالك ـ وهن يمررن في خطوات رشيقة، وإلى الخادمات اللطيفات بقبعاتهن المجنحة وسلالهن المغطاة في عناية، رغم أنها ليس فيها شيء ـ ووراءهن تزحف الفلاحات الصبايا من (فيرلاند) اللوتي يقمن بامداد كل (هامبورغ) بالفواكه وبالحليب ـ وهنالك تخطر الآنسات الجميلات بنات التجار اللواتي من يكسب قلوبهن يكسب معها في الوقت نفسه كثيراً من المال... المرضعة التي قدمت إلى هناك وهي تقفز تحمل على ذراعيها صبياً جميلاً صغيراً تلثمه كثيراً وهي تفكر بحبيبها العزيز... هنالك تقدم كاهنات فينوس (أفروديت)، وحافظات نار المجوس وحوريات الإلهة (ديانا) ذاهبات إلى الصيد، والجنيات والحوريات، وغيرهن من بنات البيوت الراقية... هناك ظهرت (منيكا) و(هيلويز)! ما أكثر ما رأيتهما وأنا جالس أمام «الجناح» وهما تمران وتلبسان ثوبيهما من الحرير الهندي المقلم باللون الوردي، تكلفة الذراع ٤ ماركات و٣ شيلينغ وأكّد لي السيد (موسى أوفنباخ) أن أقلام الثوب مكفولة الصباغ، «يا لهما من شابتين رائعتين» هكذا هتف الشباب الفضلاء الجالسون إلى جانبي. أتذكر أن موظفاً في تبديل العملة مبهرجاً دائماً كأنه بقرة من الطراز الحديث قال ذات يوم «أريد أن أتغدى بواحدة وأتعشى بواحدة: ولن آكل غيرهما ذلك اليوم... وصرخ أحد العقداء في البحرية يوماً في

صوت عال «هذه ملاك» والتفتت الفتاتان في وقت واحد ثم رشقت إحداهما الأخرى بنظرة فيها حسد، أما أنا فلم أقل كلمة واحدة كنت أفكر في أكثر الأشياء عذوبة، وأنا أرمق الفتاتين والسماء في صفائها الواسع وجرس كنيسة (القديس بطرس) الكبير وقامته الرشيقة وبحيرة (ألستر) الصامتة الزرقاء التي تسبح فيها الأوزات في كثير من الكبرياء واللطف والهدوء.

الإوزات! ظللت ساعات كاملة أتبعهن نظري: يا لهن من مخلوقات لطيفات ذوات أعناق طويلة متموجة تترجح في لذة بين الأمواج الدافئة أو يغصن أحياناً في الماء ليعدن إلى الظهور فوراً ويضربن الماء في لطف بأجنحتهن حتى تصبح السماء قاتمة وتنبثق النجوم، حافلة بالرغبات، موقظة للآمال، متنفسات في رقة عجيبة. النجوم! أليست زهرات من الذهب على صدر السماء العذراء؟ أليست عيون الملائكة العشاق الذين يتراؤون، وهم مرتبكون ارتباكاً شهوانياً، في مياه الأرض الزرقاء، ويبتسمون للأوزات؟

. . . .

. . . .

واأسفاه، كان ذلك منذ عهد بعيد وكنت شاباً ومجنوناً، أما الآن فأنا مجنون وعجوز، وبين هذين العمرين ذبلت أكثر من زهرة وسحقت بالأقدام أكثر من زهرة، وبلي أكثر من ثوب حرير حتى الثوب الحرير المورد الذي صبغه السيد (موسى أوفنباخ) من قديم. بل إن السيد (أوفنباخ) نفسه قد انطفأ، ولافتة بيته التجاري أصبحت تحمل اليوم هذه الكلمات: «أرملة (أوفنباخ) وولده (اسرائيل أوفنباخ)». . و(هيلويز) المخلوقة العذبة التي يخيل إلي أنها لم تخلق إلا لتمشي على سجاد ايران ذي الأزهار الطرية والتي يجب أن تبترد بريش الطاووس، سقطت وضاعت في حمأة البحارة في بخار الخمر ودخان التبغ، وزوبعة الرقص والموسيقى الرديئة في الأماكن الرديئة. عندما عدت إلى رؤية (مينكا) ـ وكانت تسمى آنذاك (كاتينكا) وتقطن بين (هامبورغ) و(آلتونا) رأيتها تشبه معبد سليمان بعد أن دمره نبوخذ نصر، وتفوح منها رائحة رقيب آشوري: ـ وعندما قصت علي خبر وفاة (هيلويز) أراقت دموعاً مرة، ونتفت شعرها يأساً، وكادت تشفي على المرض، وابتلعت كأساً كبيرة من الخمر لتعود إلى طبيعتها.

والمدينة نفسها ما أكثر ما تغيرت عند عودتي! و(يونغ فيرنستسيغ)! الثلج يغمر السطوح وبدا لي كأنما البيوت نفسها هرمت وأصبح شعرها أبيض، وأشجار

الزيزفون في الممر لم تكن إلا أشجاراً ميتة بأغصان يابسة تتحرك كأنها أشباح إذا هبت عليها الريح الجامدة، والسماء ذات زرقة صارخة يصيبها القتام في عجل. كان ذلك يوم أحد في الساعة الخامسة، ساعة الطعام العامة، والعجلات تتدفق، والسادة والسيدات ينزلون منها ولهم ابتسامة جامدة فوق شفاههم الجائعة.

يا للهول! في هذه الدقيقة خطرت لي ملاحظة مرعبة: كل هذه الوجوه تعبر عن غباء مخيف، كل هؤلاء الذين يمرون في هذه الفترة يبدون وكأنهم فريسة لروح شيطانية غريبة غير محددة، لقد رأيتهم آنفاً، منذ اثنتي عشرة سنة، في الساعة نفسها، في الجو نفسه فكانوا كأنهم دمى ساعة المدينة يخضعون للآلية نفسها، ويتحركون بالطريقة نفسها، ومنذ ذلك العهد ظلوا على الشكل نفسه، لم يتوقفوا، ليصفون حساباتهم، يذهبون إلى سوق (البورصة) يحركون فكهم، يدفعون الجعالة بعد الطعام ثم يعودون مرة أخرى إلى الحساب (اثنان زائد اثنين يساوي أربعة).

«يا للهول» هتفت في ذعر عندما كان أحد هذه الأدوات الآلية يجلس وراء مكتبه وقد جاءته فجأة فكرة أن اثنين زائد اثنين يساوي خمسة، وأنه كان طوال حياته يحسب حساباً خاطئاً، وأنه أضاع حياته كلها في غلط مخيف ــ يا للهول: ولكن ها أنذا أصبح فجأة ألعوبة في يد هذيان مطبق: خيل إليّ، وأنا أنظر إلى الناس من قريب أنهم ليسوا إلا أرقاماً، أرقاماً حسابية عربية؛ الرقم واحد، الرقم اثنان، ذو ساقيين صدفاوين يمشي إلى جانب الرقم ثلاثة السيء، والسيدة زوجته، حبلى ولها حنجرة ناتئة وخلفه يتقدم الرقم ٤ على عكازين، ويأتي بعدهم الرقم خمسة وهو يتبختر بكرشه الضخم ورأسه الصغير، ثم جاء الرقم ستة من المنافقين، والرقم سبعة، وهو من الرقمين ينز عجرفة وكبرياء ولكني عندما بدأت أتفحص الشقي رقم ثمانية الذي يترنح على ساقيه عرفت فيه الموظف المكلف بصرف العملة والذي كان في مرة تابعة مزيناً كأنه بقرة على الطراز الحديث، والذي يبدو الآن وكأنه أكثر البقرات، بقرات حلم فرعون نحولاً وعجفاً: خداه غائران وأصفران كأنهما صفحتان للحساء فارغتان، وأنفه أحمر متجمد كأنه وردة في الشتاء، ويلبس ثوباً أسود مرقعاً له انعكاس أبيض تافه، وقبعة خلقت فيها فأس (سانورن) عدة شقوق ومع ذلك فإن حذاءيه ظلا لامعتين كما كانتا من قبل، ويبدو أنه لا يفكر بأن يتغذى بـ(هيلوين) ويتعشى بـ(مينكا) وخيل إليّ أنه يدور باحثاً عن غداء عادي من الحساء.

أما أرقام الأصفار التي مضت فقد وجدت منها عدداً كبيراً من معارفي القدماء

هؤلاء وغيرهم من الرجال ـ الأرقام كانوا يركضون جائعين رغم أن هنالك، وعلى طول البيوت في (يونغ فيرنستيغ) يسير ركب كثيف مخيف ومضحك في آن واحد. يا لهذه الحفلة المقنعة المحزنة! وراء عجلات الحدادكانوايمشون في جلال على سيقانهم النحيلة، كأنما يمشون على عكاز ـ دمى الموت ـ الرقباء المدنيون، المركب الممتاز في كل الجنائز. كانوا يلبسون ثياباً من (بورغونيا) مضحكة، معاطف سود قصيرة، وجزمات سوداء عريضة، وشعر مستعار ذُرّ عليه مسحوق أبيض، وسحن بيض مصمغة وفي وسط ذلك تقفز وجوههم الحمر المجهدة، وهم يحملون سيوفاً صغيرة فولاذية ذات مقابض، ومظلات خضراء تحت الآباط. ولكن الأصوات، من جهة ثانية، التي كانت تضرب أذني، سببت لي اضطراباً وجزعاً أكثر من هذا المنظر المتنافر الذي كان يجري في صمت مثل الظلال الصينية. إنها أصوات جامحة قاسية صماء، صرخات مجنونة، خفقات أجنحة مضطربة، زعقات يائسة، زفرات مختنقة، آهات وانتحابات محزنة. احتلوا حوض (آلستر): لم يبق منه إلا قرب الشاطىء مربع عريض في الجليد. إن النبرات المخيفة التي أسمعها تنطلق من حناجر مخلوقات مسكينة بيضاء تسبح في البركة وتصرخ في قلق بالغ: وأسفاه إنها الإوزات نفسها التي طالما هدهدت روحي بالعواطف والانفعالات الناعمة الصافية واأسفاه الإوزات الجميلات البيضاء قيدوا أجنحتها لمنعها من الهجرة في الخريف، نحو المناطق الدافئة. والآن يمسك بها الشمال البارد مغلولة في الجليد القاتم ـ ويدعي نادل المقهى في الجناح أنها فيها مرتاحة وأن البرد يحافظ ويعنى بصحتها.

ولكن ذلك غير صحيح، لا يرتاح أحد إذا كان سجيناً بائساً في مستنقع بارد في (هامبرغ) يكاد يلتصق بالجليد، وإذا كانت أجنحته متكسرة، وإذا كان لا يستطيع الطيران نحو المقاطعات الجميلة في الجنوب التي تنفتح فيها الأزهار الجميلة، وتنضج الثمار الشهية المذهبة بالشمس، وتتراءى فيها البحيرات الزرقاء في الجبال.

واأسفاه. لقد مرّ بي عهد سابق لم أكن فيه قط أكثر سعادة مما كنت فيه. وأنا الآن أفهم آلام هذه الطيور المسكينة.

وعندما أقبل الليل وشعت النجوم، هذه النجوم التي كانت في ليالي الصيف الجميلة تبتسم في حب لهذه الإوزات، والتي هي الآن باردة كالشتاء تبدو وكأنها تنظر إليها من أعلى السماء في سخرية جليدية، وعندئذ فهمت فهماً كاملاً أن النجوم ليست أبداً مخلوقات حبيبة لطيفة رفيقة بنا، ولكنها ليست إلا أوهاماً لامعة، أشباحاً

ساحرة في الليل الأبدي، أكاذيب من ذهب في سماء من لازورد!

(٥)

غادرت مدينة (هامبورغ) في يوم جميل من أيام الربيع. ما أزال أرى أشعة الشمس المذهبة تعبث بالشاطىء على حافات المراكب المدهونة بالقطران، وأسمع نشيد البحارة المرح: هواهو! إن مثل هذا المرفأ، في الربيع يشبه كثيراً قلب شاب يدخل العالم، ويندفع لأول مرة في بحر الحياة الزاخر، ما تزال أفكاره مصبوغة بكل الألوان، الجرأة تنفخ كل أشرعة رغباته: هواهو. ولكن سرعان ما تنطلق العواصف ويقتم الأفق، وتزمجر الزوابع، وتفرقع الألواح وتحطم الأمواج السارية، ويتكسر المركب المسكين على القواقع الرومانطيقية أو يسقط على ساحل رملي ناشف، أو يدخل ممزقاً مشعثاً، بأشرعته المكسرة إلى المرفأ العجوز ليتعفن فيه، دون بارقة من أمل، ثم يتمزق مثل هيكل عظمي بائس.

ولكن هنالك ناساً يجب أن يشبهوا، لا المراكب العادية ولكن البواخر، إنهم يضمون في صدورهم ناراً حامية ويمضون ضد الريح والموج. وجناح دخانهم يتموج، كأنه راية سوداء لفارس ليلي، ودواليب هذه البواخر كأنها مهاميز تخشى البحر في حضور أمواجه، وترى هذا العنصر الثائر المزبد ذليلاً خاضعاً لإرادتهم كأنه حصان.. ولكن طالما انفجر الموقد وقضى علينا الحريق الداخلي.

ولكني أريد أن أدع المجاز والتشبيه وأبحر على ظهر مركب حقيقي يقوم بالرحلة بين (هامبورغ) و(امستردام). إنه مركب سويدي حمل فوق بطل هذه القصة، حديداً مبروماً وسيعود كما أظن إلى (هامبورغ) حاملاً حمولة من السمك المجفف، أو سيعود إلى أثينا بحمولة من البوم.

لن أنسى أبداً أول رحلاتي على سطح البحر، طالما رددت عمتي الكبيرة طائفة من الحكايات البحرية التي تطفو على ذاكرتي في هذه الرحلة. كنت أبقى ساعات طويلة جالساً على سطح السفينة، أفكر في الحكايات القديمة، وعندما تدمدم الأمواج يخيل إليّ أني أسمع صوت عمتي الكبيرة. وعندما أغلق عينيّ أراها هي نفسها جالسة أمامي بسنها الوحيدة في فمها، تحرك في قوة شفتيها وتقص علي حكاية «الهولندي الطائر».

طالما أردت أن أرى حوريات البحر اللواتي يجلسن على الأصداف ويمشطن شعرهن الأخضر ـ ولكني لم أستطع إلا سماع أغانيهن.

ما أكثر الجهد الذي بذلته في رؤية البحر الشفاف، ولم أستطع مع ذلك رؤية المدن التي اكتسحها وابتلعها، ولا الناس الذين سحرهم تحت أشكال من الأسماك وهم فيه يمارسون حياة مائية عميقة عجيبة إلى حد بعيد. يقولون إن العوارض والقرض القديمة قائمة هناك وكأنها ماشطات للسيـدات، يجلسن على النوافذ ويتروحن بالريح ويحدجن المارين بالشوارع التي تسبح فيها المحتالات في ثياب المستشارين البلديين وأسماك الزمكة على الطراز الحديث تنظر إليهن بالمناظير، وأسماك السرطان والحلازين وغيرها من سكان هذه المناطق السابحة تتكاثر كأنها بيت من النمال. ولكن نظراتي لم تستطع النفاذ إلى هذا العالم العميق الـدفين فاكتفيت بسماع قرع الأجراس تحت البحر.

رأيت ذات مرة في الليل مرور سفينة كبيرة تفرد أشرعتها الحمراء كأنها من الدماء فكأنها تشبه عفريتاً قائماً يرتدي معطفاً قانياً. أترى ذلك هو «الهولنـدي الطائر»؟

ولكني عندما وصلت (أمستردام) رأيت هذه السفينة (منيهير) المرعبة ورأيتها في مكانها على المسرح. وتعرفت في المناسبة في مسرح (أمستردام) عـلى إحدى الحوريات التي بحثت عنهن عبثاً في البحر. ما أشد لطفها وايناسها، يجب علي أن أخصص لها فصلاً.

(٦)

أنتم تعرفون ولا شك أسطورة (الهولندي الطائر) إنها قصة المركب الملعون الذي لم يستطع الدخول في مرفأ وظل تائهاً في عرض البحر منذ زمن بعيد جداً. وكان إذا لقي مركباً آخر أرسل في زورق من الزوارق بعض الرجال من بحارته العجائبيين يرجون رجال المركب أن يتطوعوا مشكورين في حمل رزمة من الرسائل، وكان من الواجب أن تُسمّر هذه الرسائل في أعلى سارية وإلا فستحل بالمركب مصيبة ولا سيما إذا لم يكونوا يحملون معهم العهد القديم أو لم يربطوا حدوة حصان على سارية الزاوية في مقدمة المركب. أما الرسائل فموجهة إلى أناس لا يعرفونهم أو إلى أناس ماتوا منذ زمن بعيد حتى إن أحد الأحفاد يتلقى رسالة رقيقة موجهة إلى جده الثالث الذي يرقد في قبره منذ مائة عام، هذا الشيخ الخشبي، هذا المركب المخيف يحمل اسم ربانه الهولاندي الذي أقسم بالشيطان، رغم عاصفة هوجاء كانت تهب آنذاك أنه سيرسو في مرفأ نسيت اسمه، فكان جزاؤه أن يدور متشرداً

في مركبه حتى يوم الحساب. وتمسك الشيطان بالكلمة، وهكذا وجب على الربان الهولاندي أن يبقى في البحر حتى نهاية الأيام إلا إذا أنقده إخلاص امرأة، ولذلك فقد وعد الربان اللعين بالنزول إلى الأرض مرة واحدة في كل سبع سنوات وأن يتزوج فيها ويحاول انقاذ نفسه. يا للهولندي المسكين لقد كان في أغلب الأحيان جدّ سعيد إذا استطاع الخلاص من زوجته العزيزة والعودة إلى مركبه لكي يبلى من مرض الإخلاص النسائي ووفاء المرأة.

حول هذه الأسطورة كانت تدور حوادث المسرحية التي شاهدتها في مسرح (امستردام) مضت سبع سنوات، والمسكين الهولندي أكثر ما كان متعباً من تشرده الدائم، وهبط إلى الارض، وصادق تاجراً من ايكوسيا كان قد لقيه وباعه لآلىء بأسعار زهيدة، وعندما علم أن عميله له ابنة جميلة طلبها زوجة له، وتمت هذه العملية. وعندئذ رأينا بيت الأيكوسي، وابنته الشابة التي تنتظر، مشغولة اللب، عريسها. كانت تتطلع كثيراً في حزن إلى لوحة عتيقة مدخنة معلقة في الحائط، تمثل شاباً جميلاً يرتدي بزة اسبانية من ايرلندة الجديدة، كانت اللوحة من إرث قديم حدثتها جدتها عنها أنها تصور في شكل مثير الهولندي الطائر، كما رآه الناس منذ أكثر من مائة سنة في ايكوسيا في عهد الملك (غليوم أورانج)، وعلى اللوحة يلصق إعلان تراثي يدعو نساء الأسرة إلى الحذر من صاحب الصورة الأصلي. ولذلك فإن هذه الصبية، منذ طفولتها نقشت في قلبها ملامح هذا الرجل الخطر. وعندما جاء الهولندي الطائر الحقيقي بلحمه وعظمه أصابتها رجفة، ولكن هذه الرجفة لم تكن رجفة الخوف، وتأثر الزوج القادم برؤية الصورة. وعندما فسروا له ما تمثله استطاع أن يتجنب كل الشكوك وضحك من الخرافات وسخر أيضاً على حساب الهولندي الطائر. وهو يهودي تائه في البحر. ورغم ذلك فقد ترك نفسه رغم إرادته ينساق إلى الحزن وصور الآلام المزعجة التي يجب أن يتحملها (منيهير) في تلك الصحراء الواسعة من المحيط قال: واأسفاه إن جسده ليس إلا هيكلاً من اللحم تتململ فيه روحه، الحياة تدفعه والموت يرفضه أيضاً، وهكذا بقي الهولندي المسكين معلقاً بين الحياة والموت لا يريده أحدهما، كأنه برميل فارغ تتقاذفه الأمواج وتعبث به على هواها، إن حزن الهولندي عميق مثل البحر الذي يبحر فيه، ليس لمركبه مرساة وليس لقلبه أمل...

أعتقد أن هذه الكلمات هي تقريباً الكلمات التي أنهى بها الخطيب كلامه. ونظرت إليه خطيبته في جد، ونظرت نظرات كثيرة منحرفة إلى صورته. يبدو أنها

اكتشفت سره وعندما قال لها أخيراً: ــ كاترين، أتريدي أن تكوني مخلصة لي أجابته في تصميم: ــ نعم حتى الموت.

أتذكر أني سمعت من يضحك في هذه اللحظة، ولم تأتِ هذه الضحكة من تحت، من الجحيم ولكنها جاءت من فوق من الجنة. وعندما أدرت عيني إلى تلك الناحية رأيت إحدى بنات حواء الجميلة ترمقني بنظرة جدّ مغرية بعينيها الكبيرتين الزرقاوين. كانت ذراعها تمتد على طول المقصورة وتمسك بيدها تفاحة أو على الأصح برتقالة. وبدلاً من أن تقدم إلي رمزياً نصفها ألقت على رأسي قشورها مجازياً. لا أدري إن كان مصادفة أو عن عمد، ذلك ما أردت معرفته، ولكني عندما صعدت إلى الجنة لأتابع معرفتي لها لم أكن قليل الدهشة عندما وجدت صبية بيضاء ناعمة، وجهاً نسوياً حلواً إلى حد بعيد ولكن فيه اثارة من الاجهاد سريع العطب كأنه البلور، كان إنموذجاً من المحفوظات المنزلية ذا لطف عذب. ولكن إلى جانب الأيسر من الشفة العليا يتوضع شيء كأنه ذنب حرذون يتكور على نفسه. إنه إشارة غريبة لا نكاد نجدها عند أحد الملائكة الأطهار ولا نجدها مطلقاً عند شيطان من الأبالسة، هذه الإشارة لا تدل على خير ولا شر، ولكنها تدل على معرفة ثمينة، إنها ابتسامة سممتها تفاحة العلم التي تذوقها الفم. وعندما رأيت هذه الإشارة فوق تينك الشفتين القرمزيتين الرقيقتين شعرت في شفتي بارتجافة وارتعاشة، برغبة جامحة في لثم هاتين الشفتين: إنها أثر من تعاطف روحي كامل.

وتمتمت في أذنها: ــ جوفروا، أريد أن أطبع قبلة على شفتيك، وأجابت في حيوية وإغراء في الصوت المنطلق من القلب: والله! مينهير تلك فكرة طيبة.

ولكن كلا! كل هذه القصة التي أريد أن أرويها هنا والتي لم تكن قصة «الهولندي الطائر» إلا إطاراً لها سوف أكف عنها. وهكذا أنتقم من النساء المتزمتات اللواتي يتذوقن في لذة أمثال هذه الحكايات، ويتولهن بها إلى أعماق أرواحهن، ثم يشتمن من قصها عليهن، ويكشرن له في القاعات ويصفنه بأنه لا أخلاق له. إنها قصة طيبة ذات نكهة مثل الأناناس المسكر أو مثل (الكافيار) الطري، أو مثل الكمأة المنقوعة في نبيذ (بورغونيا)، وسوف تكون قراءتها باعثة على العبرة والتأمل. ولكني أكف عنها غضباً لكي أنتقم من إساءات سابقة قديمة ــ وأنا أضع هنا ــ طويلا.

هذا ــ الطويل يعني أريكة سوداء جرت فوقها القصة التي لا أرويها. يجب

على البريء أن يتعذب مع المذنب، وأنا أرى أكثر من روح طيبة تنظر إليّ بعينين متوسلتين، حسناً أنا أبوح بسري إلى هؤلاء، وأعترف أني لم أعرف قبلاً أكثر خصباً من قبلات هذه الشقراء الهولندية، وأن كل أحكامي السابقة على الشعر الأشقر والعيون الزرق قد سقطت في شكل عنيف، وعندئذ فهمت لماذا شبه أحد الشعراء الانكليز أولئك السيدات بالشمبانيا المبردة. تحت هذا الغلاف المتجمد يتغلغل أطيب الخمور وأكثرها إحراقاً. وهل شيء أكثر وخزاً من التناقض بين البرودة الخارجية والنار الداخلية التي تتأجج في كأس معربدة مستهترة وتثير أعصاب الشارب المرح. نعم إن حريق الحواس يكمن أكثر مما يكمن في السمراوات، في هالة شقراء، عيناها زرقاوان كالسماء، ويداها النقيتان مثل السوسن. أعرف فتاة شقراء من أرقى بيوتات هولندة تترك كثيراً قصرها الجميل على نهر (زويدرتس) لكي تأتي (أمستردام) سراً تحت اسم مستعار، ثم تذهب إلى المسرح وتلقى على رأس واحد أرضاها قشور البرتقال، ثم تقضي ليالي من القصف في فنادق البحارة، ثم إنها سيدة هولندية. . . .

عندما عدت إلى المسرح كان يؤدي الفصل الأخير من المسرحية حين كانت امرأة «الهولندي الطائر» السيدة «الهولندية الطائرة» وقد ارتقت رصيفاً عالياً تفرك يديها في يأس، وحين كنا نرى على البحر زوجها الشقي يقف على سطح مركبه السحري. إنه يحبها، ويريد أن يتركها رغم حبها لكي لا يجرها معه إلى خرابها. لقد باح لها بقدره المريع وباللعنة المخيفة التي تنصب عليه. ولكنها كانت تصرخ في صوت عال: لقد كنت وفية لك حتى الآن، وأنا أعرف وسيلة أكيدة للإخلاص لك حتى الموت.

وعند هذه الكلمات ألقت المرأة نفسها في البحر، وبطل سحر «الهولندي الطائر» وتم خلاصه، ورأينا المركب الشبح يضيع في عباب الأمواج.

المغزى الأخلاقي للمسرحية أن على النساء أن يحذرن من الزواج «بالهولندي الطائر» وأن علينا نحن الرجال أن نتعلم كيف تضيعنا النساء، في اللحظة المناسبة.

(٧)

ولكن الآلهة لم تكابد عناء تخريب حكمي السابق ضد الشقراوات في (امستردام) وحدها، ولكني كنت سعيداً بتصحيح أخطائي السابقة في بقية أنحاء (هولندا). ولكني لا أريد مع ذلك أن أعطي الهولنديات قصب السبق على حساب النساء في البلاد الأخرى. أرجو أن تحميني السماء من ارتكاب مثل هذا الظلم،

الذي اعتبره بالنسبة لي ظلمًا ونكراناً للجميل شنيعاً في وقت واحد. كل بلد له مطبخه ونساؤه الجميلات، والقضية هنا قضية ذوق، واحد يحب الفراخ المشوية وآخر يحب البط المشوي وثالث يحب الإوز المشوي. أما أنا فأحب الفراخ المشوية والبط المشوي أما الإوز المشوي فلا. ومن وجهة النظر الفلسفية الرفيعة لكل النساء رهافة ذوق خاصة بالمطبخ الوطني المحلي. للنساء الانكليزيات الجميلات ألسن سليمات، صحيحات، راسخات، متماسكات دون استعداد سابق، ومع ذلك منهن ماهرات تماماً مثل المرأة الطيبة العادية، العجوز الانكليزية: في صنع (الروستو، والخروف المشوي، وصنع الحلوى بـ(الكونياك) الملتهب والخضار المسلوقة بالماء مع نوعين من الحساء، أحدهما يقوم على الزبدة السائلة؟ ما من لحم محمر يبتسم لنا، وما من طائر ـ في ـ الريح خفيف يخدعكم، وما من يخنة تتغنج، هناك لا مزاح بين هذه الأنفاس المؤلفة المختومة، القافزة، المقلية، والنافرة، والكبة المحشية، وأنفاس صاخبة، وكريمات عاطفية، كل هذه المأكولات التي نجدها في المطاعم الفرنسية، لا نجدها هنالك، مع العلم أن هذه المطاعم تدلنا على مشابه كثيرة بينها وبين الفرنسيات الجميلات أنفسهن. ألم يحدث لنا كثيراً أن نلاحظ في هؤلاء الجميلات أن أعماقهن الأساسية ليست إلا قطع تبديل، وأن السمكة أقل قيمة من المرق، وأن الذوق واللطف والرشاقة والأبازير تأتي هنا متقدمة على كل شيء. والمطبخ ـ السمين ـ المذهب في ايطاليا ومأكولاته المخمرة بالتوابل إلى حد عاطفي، والمزينة تزييناً عجيباً، والمثالية حتى الذوبان، ألا يحمل ذلك كله سجية الجميلات الايطاليات، أوه، طالما تنهدت بعد أكلات (ستوفاني و(زامبتي) اللومباردية و(فيجاتيلي) و(تاجلياريني) والـ(بروكولي) التوسكانية السعيدة. كل شيء يسبح في الزيت طرياً ناعمًا وينشد أناشيد (روسيني) العذبة، ويبكي من عصير البصل والعاطفة، ولكن يجب أن نأكل (المعكرونة) بالأصابع وعندئذ تسمى (بياتريس)!

أنا لا أفكر كثيراً في ايطاليا، وإذا فكرت فيها كان ذلك غالباً في الليل. حلمت أول أمس أنني في ايطاليا، وأني مهرج مبرقش أضطجع في أكثر الأشكال كسلاً تحت ظل صفصافة باكية. ولكن الأغصان المتدلية في تلك الصفصافة كانت من (المعكرونة) حتى إنها كانت تسقط في فمي. وخلال هذه الأوراق المعكرونية، وعوضاً عن أشعة الشمس كانت تقطر أمواج حقيقية من الزبدة الذهبية، وأخيراً سقط من ذروة أحد الأغصان مطر أبيض من الجبن المبشور.

وأسفاه لا أستطيع أن أشبع قط من المعكرونة التي حلمت بها: بياتريس!

أما المطبخ الألماني فدعنا من الحديث عنه، ولو بكلمة واحدة، إن فيه كل ما في العالم من صفات طيبة ولكن فيه نقيصة واحدة، ولست أريد أن أذكر هذه النقيصة. فيه حلويات رجراجة طيبة المذاق، وصحاف بيض رائقة، وكريات لذيذة بالخوف، وحساء أفلاطوني بالشعير، وعجة بالتفاح والدهن، وسجقات فاضلات وكرنب مملح. . . . طوبى لمن يهضم كل هذه المطاعم.

أما المطبخ الهولندي فيتميز عن المطبخ الألماني، بنظافته أولاً وبنوع من الحلوى خاصة ثانياً وعلى الخصوص بالطريقة التي يعالجون بها الأسماء فتصبح ذات مذاق طيب لا يمكن التعبير عنه، ورائحة الكرفس فيه مثيرة حميمة، ولذيذة جداً في الوقت نفسه، وهنالك بساطة مدروسة وثوم. ومع ذلك فقد وجدت فيها عادة ارتداء السراويل من (الفانيلا): ولست أتحدث عن الأسماك ولكن عن الفتيات البيضاوات في هولندا المائية.

وفي (ليد) عند وصولي إليها وجدت مطبخها سيئاً جداً. لقد أفسدتني جمهورية (هامبورغ) بدلالها، وعليّ مع ذلك أن أمدح مطبخها وأن أثني في الوقت نفسه على نساء (هامبورغ) الجميلات وبناتها الحلوات. أوه، يا رب، خلال الأسابيع الأربعة الأولى كم أسفت على اللحوم الطرية الهامبورغية. لقد أصاب العياء قلبي ومعدتي. ولولا أن صاحبة فندق ـ البقرة الحمراء، أحبتني وأشفقت علي لمت ضنى ولوعة.

المجد لك يا صاحبة فندق (البقرة الحمراء): كانت امرأة ربعة، ذات بطن كبير مدور ورأس صغير جداً مدور، وخدين صغيرين أحمرين، وعينين صغيرتين زرقاوين: ورود وزنابق. كنا نبقى ساعات طويلة جالسين في الحديقة نشرب الشاي في أقداح حقيقية من البلور الصيني. ولقد كان البستان جميلاً حقاً له ممرات مربعة ومثلثة، مفروشة تماماً برمل ذهبي، وبالرمل الأحمر وبالأصداف الصغيرة اللامعة، وجذوع الأشجار مصبوغة وملونة تلويناً جميلاً بالأحمر والأزرق. وهناك أقفاص من النحاس المصقول فيها أسراب من طيور الكنار. والزنابق من أكثر أنواعها ندرة تنمو في أصص ملونة بكل الأنواع ومصقولة، وأشجار الزينة مقصوصة في فن رائع وتمثل قباباً وكؤوساً ووجوه حيوانات. وهناك بقرة مقصوصة في شجرة زينة خضراء كانت تنظر إلي فيما يشبه الحسد عندما كنت أضم صاحبة فندق «البقرة الحمراء» الطيبة.

المجد لك يا صاحبة فندق «البقرة الحمراء»! عندما كانت (ميفراو) تغطي رأسها بمنديل تحفة شذرات ذهب (فريز) ويدرع بطنها ثوب دمشقي ذو أزهار وتملأ يديها طبقات بيض من الزركشات البلجيكية بـدا مظهـرها وكـأنها معبد صيني أسطوري، أو كأنها إلهة البلور. وعندما كانت تستبد بي الحماسة وكنت أقبلها في صخب على وجنتيها كانت تتخذ وضع البلور الجامد الذي لا يتحرك، ولا تعرف غير أن تتنهد وتقول: مينهير، في رنين بلور حقيقي. وكانت كل ما في البستان من أزهار الزنابق يشاركها هيجانها وانفعالها ويتنهد معها مردداً: مينهير!

هذه العلاقات اللذيذة وفرت لي أكثر من مقطوعة رقيقة، لأن كل مشهد غرامي من هذا النوع يؤثر في مضمون سلة المأكولات التي ترسلها إلي كل يوم صاحبة الفندق الممتازة. وكان الطلاب المبتـدئون، وهم ستـة يتغدون معي في غرفتي، يستطيعون أن يدركوا كل مرة من حالة الخروف المشوي أو فتائل لحم البقرة، كم كانت تحبني تلك السيدة صاحبة فندق (البقرة الحمراء). وإذا كانت عزيزتي سيئة المزاج، مصادفة، فعلي إذن أن أتحمل كثيراً من السخريات المخجلة، فقد كانوا يقولون مثلاً: ـ انظر كم يبدو (شنابل وبسكي) شقياً، وكم يبدو وجهه أصفر مجعداً وكم تدعو عيناه إلى الشفقة كأنها مصابة بدوار البحر. . . ليس غريباً أن تكون السيدة صاحبة الفندق قد شبعت منه، فهي الآن ترسل لنا طعاماً عادياً سيئاً. أو يقولون مثلاً: وحق الله إن (شنابل وبسكي) يصبح في كل يوم أكثر نحولاً وذبولاً، وسينتهي به الأمر إلى أن يفقد في النهاية كل ما تحفه به السيدة صاحبة الفندق من عناية ورعاية. ولن نحصل عندئذ إلا على طعام سيء. . . هنا علينا أن نغذيه غذاء جيداً لكي يعيد شكله المغري. ثم يدسون في فمي أكثر اللقم كراهية ويجبرونني على الأكل دون اعتدال من أوراق الكرفس.

ولكني كنت إذا لم نحصل على طعام لذيذ عدة أيام متتابعة أوجه نداءات حارة للسهر على المطبخ وأحاول من جديد إضرام قلب سيدتنا صاحبة الفندق وأضاعف الرقة معها، وأضحي بنفسي في سبيل الصالح العام. . وكانوا إذا تمّ إصلاح الطعام يعرضونني إلى خطب طويلة، ويذكرون كم هو نبيل وشريف أن يقرر الإنسان التضحية بنفسه في سبيل سلامة مواطنيه، كما فعل (ريجليوس) الذي حشر نفسه في برميل عتيق محقون بالمسامير أو كما فعل (تيزي) الذي تاه بإرادته في عرين (مينوتور). . . ثم يرسمون على الجدران الأفعال العظيمة مع تلميحات غاية في الفظاظة، لأن (مينوتور) يشبه تماماً البقرة الحمراء المرسومة على لوحة الفندق،

ولأن البرميل العتيق القرطاجني بني مثل صاحبة الفندق. لا شك أن هؤلاء الأصدقاء المنكرين للجميل أخذوا بالمظهر الخارجي لتلك المرأة الممتازة ليجعلوه نقطة هدف ثابتة لمداعباتهم. وقد اعتادوا أن يضعوا لها صورة من التفاح أو أن يعجنوها بالخبز. فهم يأخذون مثلاً .تفاحة صغيرة تمثل الرأس يضعونها فوق تفاحة ضخمة تمثل الجسد ويضعون مسواكين بدلاً عن الساقين. ويصنعون من الخبز صورة صاحبة الفندق تعجن تمثالاً صغيراً نحيلاً من المفروض أنه يمثلني، ثم يطلقون في هذه المناسبة تشبيهات من أخبث الأنواع وأكثرها إثارة للسخط. يقول أحدهم مثلاً ان هذا الوجه وجه هانيبال وهو يجتاز جبال الألب، ويدعي آخر على عكس ذلك أن هذا يجب أن يكون (ماريوس) وهو يتأمل خرائب قرطاجة، ومهما يكن من أمر فلو لم أجتز وأجابه جبال الألب ولو لم أقم بتأملاتي على خرائب قرطاجة لما حصل زملائي المبتدئون إلا على أسوأ أنواع الطعام.

(٨)

عندما يكون الشواء سيئاً جداً كنا نتنازع حول وجود الله. وكان الله العظيم يكسب الأكثرية دائماً. لم يكن في جماعتنا إلا ثلاثة من الملحدين، ومع ذلك فقد كانوا يجنحون إلى التسليم والاقتناع عندما تأتيهم جبنة طيبة آخر الوجبات. أكثر الربانيين حماسة كان (سيمسون) الصغير وعندما كان يخاصم (فان بيتر) الطويل حول وجود الله، يغضب في كثير من الأحيان ويزرع الغرفة في كل الاتجاهات وهو يصرخ دون انقطاع: والله، هذا لا يجوز، أما (فان بيتر) الطويل، وهو مثل (فريزون) النحيل فكانت روحه صافية مثل الماء في القناة الهولندية، وكلماته تزحف في هدوء مثل الزحافة، ويستمد حججه وبراهينه من الفلسفة الألمانية التي كانت في ذلك الحين موضع الاهتمام في (ليد). كان يسخر من الأفكار الضيقة التي تسند إلى الله الطيب وجوداً خاصاً ويتهمها بالتجديف إذا وصفت الله بالحكمة والعدالة والحب وغيرها من الصفات البشرية التي لا تلائمه قط، لأن هذه الصفات كانت إلى حد ما نفياً للنقائص الإنسانية لأننا لم نفهمها إلا بصفتها نقائض للحماقة والظلم والحقد الخ... ولكن (فان بيتر) الطويل عندما كان يبسط أفكاره الحلولية كان يثير ضده تلميذ (فيختـه) السمين، ويدعى (دريكسن أوتريخ) الذي ينتظر أن يصنع إلهه الغامض كما يجب، إلهاً ينتشر في الطبيعة دائم الترحال، موجوداً في الفضاء، بل كان يذهب إلى حد أن من التجديف على الله الحديث فقط عن وجود الله، ما دام الوجود نفسه فكرة تفترض فضاء ما، يعني شيئاً من الجوهر، وقولنا

دون شك في الله: إنه موجود تجديف في حق الله، لأن الكائن الأنقى لا يمكن أن يتصور دون شيء من المحسوس، من النهائي، وأننا حين نريد أن نتصور الله فيجب أن نجرده من كل مادة وألا نتصوره في شكل من أشكال الامتداد ولكن كأنه نظام للحوادث فقط، وأن الله ليس بكائن، ولكنه عمل محض، وأنه ليس إلا مبدأ كل عمل في الوجود.

عند هذه الكلمات كان من عادة (سيمسون) أن يأخذه الغضب، كان يجري كالمجنون في الغرفة وهو يصرخ بأعلى صوته: «يا رب يا رب، والله ليس هذا مما يجوز. يا رب، طالما أعتقدت أنه سيضرب (فيشتن) السمين لأجل مجد الرب لو لم تكن ذراعاه رقيقتين ناحلتين جداً. ولقد هاجمه فعلاً أكثر من مرة ولكن (فيشتن) السمين كان يقبض على ذراعيّ (سيمسون) الصغير، ويمسكه في هدوء ويعرض عليه في هدوء طريقته في سحب غليونه من فمه وينفخ عليه دلالاته وبراهينه البارعة مع موجات من دخان تبغه الكثيفة، حتى يكاد الرجل الصغير يختنق من الدخان ومن الغضب فهو يئن في لهجة أقرب إلى الاختناق منها إلى الشكوى: يا رب: يا رب ولكن الله لم يدعمه قط رغم أنه يدافع عن قضيته.

على الرغم، وفي معزل عن هذا الاختلاف في الاتجاه الإلهي وعن هذا الانكار الإنساني تقريباً لله، فقد ظل (سيمسون) الصغير البطل الراسخ للربوبية، وذلك فيما أعتقد لميل فطري، لأن آباءه ينتمون إلى شعب الله المختار، إلى الشعب الذي صانه الله بعنايته الخاصة، والذي ظل نتيجة لذلك يحتفظ حتى هذه الساعة بنوع من الصلة والارتباط الشخصي بالله العظيم. إن اليهود هم دائماً ربانيون مطيعون، وخاصة أولئك الذين ولدوا، مثل (سيمسون) في مدينة (فرانكفورت) الحرة. وفي القضايا السياسية يمكن أن يكونوا أصحاب أكثر ما يمكن من الآراء الثورية. ويمكن أن يخوضوا في الطين مثل جماهير الذين لا سراويل لهم، ولكن لتبق، الآراء الدينية على البساط فهم عندئذ أشد خدام معبودهم القديم تواضعاً، هذا المعبود الذي لا يحب أن يسمع حديثهم عن نزاعاتهم، والذي عمّد نفسه ليصبح إلهاً فكرياً ضالعاً.

أعتقد أن هذا الإله الفكري الصافي، هذا الآتي من السماء الذي هو الآن جدّ أخلاقي ولطيف وعمومي وعالمي وحضاري ما زال يحتفظ بإرادة سرية خبيثة ضد هؤلاء اليهود المساكين الذين عرفوه في أشكاله الأولى الخشنة، والذين يذكرونه يومياً في كنسهم ومعابدهم بعلاقاتهم القومية التي تعود إلى أيام فلسطين المزيلة.

ربما كان السيد القديم لا يريد أن يتذكر أنه من أصل عبراني وأنه سُمي منذ ذلك الحين إله إبراهيم واسحق ويعقوب.

(٩)

في (ليد) زرت كثيراً سيمسون الصغير، ولقد تحدثت عنه كثيراً في هـذه المذكرات. وبعده كنت أرى غالباً واحداً آخـر من المبتدئـين هو الشـاب (فان مولان)، وكان من الممكن أن أراقب وجهه الجميل خلال ساعات كاملة وأنا أفكر في أخته التي لم أرها قط ولا أعرف عنها شيئاً غير أنها كانت أجمل امـرأة في (فاترلند). كان (فان مولان) رأساً إنسانياً جميلاً، كان (آبولون) من المرمر، بل من الجبن. إنه أكمل من رأيت من الهولنديين، مزيج من الشجاعة ورباطة الجأش، ذات يوم أثار غضب أحد الإيرلنديين إلى درجة أنه سحب مسدسه من جيبه وصوبه إلى (فان مولان) وأطلق النار فلم يصبه وإنما أصاب الغليون في فمه، وظل وجه (فان مولان) هـادئاً ساكناً كأنه قطعة من الجبن وقال في لهجة هـادئة وفي غـير اكتراث: جان!nue piep e يا جان، غليون جديد. لقد جعلتني ابتسامته أحسُّ إحساساً مشؤوماً، ذلك أنه أبدى صفاً من الأسنان الصغيرة البيضاء التي تشبه السمك، وكان مما ساءني أيضاً أنه يحمل حلقتي أذنين من الذهب، وله عادة غريبة هي أنه يغير كل يوم مواضع الأثاث في بيته، وعندما تصل إلى بيته تجده مشغولاً دائماً إما بوضع الخزانة الصغيرة في موضع السرير، أو في نقل الأريكة لوضع مكتبه في مكانها.

سيمسون الصغير يمثل في هذه الناحية نقيضه المعذب لا يمكن أن يحتمل إزعاج أصغر شيء في غرفته، ويصبح قلقاً في شكل واضح عندما تمس أي شيء فيها حتى المقراض مثلاً، كل شيء يجب أن يبقى في مكانه الذي أقره فيه، لأن هذه القطع من الأثاث وهذه الأماكن وسائل تذكره لكي يثبت في ذاكرته، حسب مبادىء التذكر كل ألوان الحوادث التاريخية أو الحكم الفلسفية. الخادمة، ذات يوم، خلال غيابه أخرجت من غرفته صندوقاً قديماً، وأخذت من جرارات خزانته جواربه وقمصانه لغسلها، وعندما رأى ذلك أصيب بـذهول ومصـاب لا يقبل العزاء، وادّعى أنه أصبح لا يعرف شيئاً من ذلك الحين عن التاريخ الآشوري، وأن كل البراهين الدالة على خلود الروح والتي رتبها ترتيباً منطقياً في جرارات خزانته قد أرسلت إلى الغسيل.

من الأفذاذ الأصلاء الذين عرفتهم في (ليد) كان أيضاً السيد (فاندر بيسـان)

وهو ابن عم (فان مولان) الذي أدخلني إليه. كان أستاذ علم اللاهوت في الجامعة وسمعت في دروسه تفسير مزمور (سليمان) وشيئاً من رؤيا القديس (حنا). إنه إنسان جميل في ميعة العمر في حوالي الخامسة والثلاثين، جدّ جدي وكثير الاحترام في كرسيه. أردت ذات يوم أن أقوم بزيارته في بيته، لم أجد أحداً في المدخل، ورأيت في فرجة باب مفتوح في الغرفة المجاورة مشهداً عجباً. هذه الغرفة مؤثثة النصف على الطريقة الصينية والنصف الآخر مؤسس على نمط (بومبادور). وعلى الجدران تتدلى ستارات من القماش الدمشقي مطرزة بالذهب، والأرض مغطاة بسجادة فخمة من فارس، وفي كل مكان تبدو معابد غريبة من البلور وزينات من الصدف، وأزهار، وريش نعام، وأحجار كريمة، أما المقاعد فكانت من المخمل الأحمر، خيوطها من الذهب، وبين هذه المقاعد مقعد أكثر علواً كأنه عرش، تجلس فيه فتاة صغيرة يمكن أن تكون في الثالثة من عمرها، تلبس ثوباً من(الساتان) الأزرق مطرزاً بالفضة، ولكنه من الطراز القديم البالي وتمسك بيدها مروحة من ريش الطاووس كأنها صولجان، وتمسك باليد الأخرى تاجاً من الغار الذابل، وأمامها على الأرض يتدحرج السيد (فاندربيسان) وزنجيها الصغير وكلبها وقردها، هذه المخلوقات الأربعة كانت تمسك بعضها بشعر بعض، ويعض بعضها بعضاً بينما كانت الطفلة والببغاء الأخضر على عصاها يصيحان: مرحى، مرحى. وأخيراً نهض السيد وركع أمام الطفلة وألقى خطاباً طويلاً جاداً باللغة اللاتينية أثنى فيه على الشجاعة التي حارب فيها ثم انتصر على أعدائه. ووضع على رأسه التاج الذابل من الغار... ولم نلبث أنا، وقد دخلت الغرفة والطفلة والببغاء أن صحنا معاً: مرحى، مرحى.

فوجىء السيد قليلاً وارتبك عندما رآني في قلب مساخره، وقد قالوا لي بعد ذلك إنه ينصرف إليها كل يوم. كان في كل يوم ينتصر على الزنجي والكلب والقرد، وكان كل يوم يتوج رأسه بتاج الطفلة المصنوع من الغار، ولم تكن الطفلة ابنته ولكنها كانت يتيمة لقيطة من بنات (أمستردام).

(١٠)

كان البيت الذي أسكنه في (ليد) هو بيت (جان ستين) العظيم الذي أراه عظيًما مثل (رفائيل). وهو كرسام ديني لم يكن أقل عظمة وسيرى ذلك الناس في وضوح ذات يوم، عندما يختفي دين الحزن ويأتي دين الفرح لينتزع النقاب الأسود

الذي يغطي ورود هذه الأرض، وعندما تستطيع العنادل أن تنشد أناشيدها التي طالما كتمتها.

ولكن ما من عندليب يغني في صفاء وسعادة كما يرسم (جان ستين) ما من أحد شعر في عمق، كما شعر هو، أن من الضروري أن يعيش الناس دائماً في عيد خالد على هذه الأرض، وهو يعلم أن الروح القدس يتبدى في أرقى درجة في النور وفي الضحك.

عينه تضحك في النور والنور يتراءى في عينه الضاحكة.

ويبقى (جان) دائماً طفلاً طيباً ساذجاً محبوباً. وعندما أقام المبشر العجوز القاسي لمدينة (ليد) في منزل قرب منزله وجعل يلقي عليه موعظة طويلة تتعلق بحياته الصاخبة وعاداته المرحة المخالفة للمسيحية، وبسكره، وبالفوضى في منزله وإدارته وفي شبابه المتفلت أصغى إليه (جان) ساعات طويلة في هدوء ولم يبد عليه اعتراض ما على هذا التبشير بالتوبة، ولم يقاطعه إلا مرة واحدة بهذه الكلمات: نعم يا دومين، ولكن النور أحسن نفاذاً على هذه الصورة، أرجوك، يا (دومين) أن تدير مقعدك قليلاً أمام الموقد، حتى يضيىء اللهب بنوره الأحمر كل وجهك، بينما يظل باقي جسدك في الظل. . . . هبّ (الدومين) غاضباً ومضى، ولكن (جان) أمسك حالاً بلوحة ألوانه ورسم المبشر العجوز القاسي تماماً في وضعه، وهو يلقي موعظته، وكانت له نموذجاً. هذه الصورة رائعة، وهي معلقة في غرفة نومي في (ليد).

رأيت في (هولنده) عدداً كبيراً من لوحات (جان ستين) فكنت كأني أعرف كل حياة هذا الرجل. نعم أنا أعرف كل ذوي قرباه؛ زوجته وأولاده وأمه وأبناء عمه وخاله، وأعداءه وكل من حواليه، أعرف كل واحد منهم بوجهه، كل هذه الوجوه حيتني بلوحات (جان ستين) ومجموعة لوحاته الكاملة هي تاريخ حياة الرسام. وطالما استطاع بضربة واحدة من ريشته أن يكشف أبعد أعماق روحه غوراً. وهكذا فأنا أعتقد أن زوجته طالما أنبته على سكراته العديدة، لأن اللوحة التي تمثل عشاء عيد الملوك، ويبرز فيها (جان) مع كل أفراد أسرته حول المائدة تبرز فيها زوجته وهي تمسك بيدها دن الخمر ذا البطن الكبير، وعيناها تلمعان مثل عيني كاهنة من كاهنات باخوس. ولكني مقتنع أن هذه المرأة الباسلة لم تشرب قط شرباً كثيراً ولكن زوجها المستهتر أراد أن يحملنا على الاعتقاد بأنه ليس هو نفسه، بل إن

زوجته هي التي تحب الخمرة، ولذلك فإن سحنته في هذه اللوحة أكثر مرحاً مما تعود، إنه سعيد يجلس بين أهله، ابنه الشاب هو ملك الفول، ويلبس تاجاً من الصفر اللامع أما الجدة التي تكشر غضون وجهها العجوز في وجه أكبر قسط من المرح فتمسك بين يديها آخر حفيد من أحفادها، والموسيقيون يعزفون أعنف أغانيهم، وريشة الزوج الخبيثة اتهمت ربة البيت المدبرة بتصويرها في تكشيرة المرأة المقتصدة وبأنها ثملى سكرى، لتذكرها الأجيال كذلك.

ما أكثر ما استطعت في غرفتي في (ليد) أن أنطلق بأفكاري ساعات كاملة في قلب هذه المشاهد الأهلية التي رسمها (جان) الممتاز، أو التي قاساها في الأمكنة ذاتها، وظننت أكثر من مرة أني أراه جالساً على حمالة لوحاته يمسك بيده من وقت إلى آخر دن الخمر الكبير، ويتأمل ثم يشرب ويشرب دون أن يفكر. إنه لم يكن عائداً حزيناً من القرون الوسطى، ولكنه كان إنساناً عصرياً، وفكراً لامعاً ظل حتى بعد وفاته يزور مرسمه القديم ليرسم وجوهاً حديثة شابة وليشرب. إن أحفادنا لن يروا إلا أشباحاً من هذا النوع، في وضح النهار عندما تنفذ الشمس في زجاج النوافذ اللامعة، وإلا من ذرى الأبراج حيث لن تكون الأجراس القاتمة الحزينة، بل الطبول المدوية المرحة التي تعلن ساعة الغداء.

ذكرى (جان ستين) كانت خير ما في منزلي، في (ليد)، بل كانت وحدها أحسن ما أملك، ولولا هذا السحر المثالي لم أستطع البقاء فيه خلال عشرة أيام. خارج البيت كان سيئاً، يثير الرحمة، وقاتماً، تماماً على نقيض عادات الهولنديين. هذا المنزل الأسود، المتداعي كان مفروشاً قرب النهر وعندما تمر من الجانب الآخر من القناة تظن أنك ترى ساحرة عجوزاً تنظر إلى نفسها في مرآة سحرية. وعلى سقف المنزل كانت تسرح عدة أوزات كما هي العادة في كل سقوف (هولنده)، وبالقرب مني كانت تقطن البقرة التي أشرب لبنها كل صباح، وتحت نافذتي كان قن دجاج. كانت جاراتي ذوات الريش يبضن بيضات طيبة، وكان عليّ كل يوم، أن أسمع قبل أن يضعن هذه البيضات أن أسمع قوقأة صاخبة طويلة وكأنها كانت مقدمة مملة لهذه البيضات فتفسد إلى حد ما لذتي في أكلها.

وكنت أعد إزعاجين آخرين لي في منزلي، أما أحدهما فضرب بالكمان يرهق أذنيّ طوال النهار، وأما الثاني فاليقظات المستمرة خلال الليل عندما كانت صاحبة البيت ترهق زوجها المسكين بغيرتها الغريبة.

إن من أراد أن يعرف المواقف المتميزة بين صاحب البيت وصاحبته ليس له إلا أن يسمعهما عندما يعزفان الموسيقى. الزوج يعزف على كمان جهير والمرأة تعزف على كمان وسط، ولكنها ما كانت تحرص على الحركة، تسبق دائمًا زوجها بمقياس أو بمقياسين، وتنتزع من آلتها البائسة أصواتاً جدّ صارخة ونحيلة. وعندما يُدمدم الكمان الجهير، ويدندن الكمان الأوسط يخيل إليك أنك تسمع شجاراً بين زوجين في بيت، وتستمر المرأة في العزف أمداً طويلاً بعد انتهاء الزوج من عزفه، كأنها تريد أن تكون لها الكلمة الأخيرة. كانت امرأة ضخمة ولكنها قليلة اللحم، ليس لها إلا الجلد والعظم، وفم تبرز فيه أسنان مزيفة، وجبهة مسحوقة، وكأنها ليس لها ذقن، وأنفها طويل جداً، تنحني أرنبته كأنها منقار، ويبدو أحياناً، عندما تعزف على الكمان الأوسط أنها تستخدمه كالخشبة التي تخفض الصوت.

أما صاحب البيت ففي حوالي الخمسين من العمر، ساقاه دقيقتان جداً، ووجهه أصفر مجوف، وعيناه صغيرتان خضراوان يغمز بهما غمزاً متواصلاً كأنه حارس تضرب الشمس في وجهه. وكانت مهنته مضمداً، ومذهبه الديني تجديد العماد. يقرأ الانجيل في استمرار. وتلاحقه القراءة حتى في أحلامه الليلية، وفي صباحه وهو يشرب القهوة، كان يغمز بعينيه الصغيرتين ويقص على زوجته أنه مبارك ذو كرامة، وأن القديسين يشرفونه بأحاديثهم وحوارهم معه، بل إنه وجد هكذا نفسه في صحبة مجتمع صاحب الجلالة العلي الأعلى المقدس، وكيف كانت نساء العهد القديم تعامله معاملة صديق عزيز وفي غاية من الرقة واللطف. كانت هذه النقطة الأخيرة تثير صاحبة البيت وتبدي غيرتها في مزاجها السيء بمناسبة التجارة الليلة التي يمارسها زوجها مع نساء العهد القديم. تقول مثلاً لو كان الأمر يتعلق بالسيدة الأم الطاهرة مريم، أو بالعجوز (مارت) أو حتى بمادلين لأنها قابلة للتوبة والإصلاح لهان الأمر... ولكن الزيارات الليلية لبنات لوط السكيرات، وللسيدة (جوديت) الجميلة ولهذه المرأة التي تلاحق الرجال ملكة (سابا) ولأمثال هؤلاء السيدات، أمر لا يمكن أن يحتمل. ولكن الغيرة تجاوزت كل حد. وثار غضبها ثورة ليس لها مثيل، عندما حدثها زوجها في إحدى اندفاع ثرثرته البريئة وأبرز لها صورة حماسية لـ(أستير) الجميلة التي رجته أن يشرف على زفتها، لأنها تريد بجاذبية تقاطيعها وملامحها كسب الملك (آهاسفبروس) إلى صفها. عبثاً حاول الزوج المسكين أن يطمئنها إلى أن (ماردوخ) نفسه هو الذي أدخله إلى ربيبته الجميلة، وأنها كانت قد ارتدت نصف ثيابها، وأنه لم يفعل شيئاً غير أنه سرح شعرها الأسود الطويل... عبثاً حاول الدفاع عن نفسه، فالمرأة الغاضبة جعلت

تضرب الزوج المسكين بضماداته نفسها وترميه على وجهه بالقهوة التي تغلي، ولا شك في أنها كانت ستقضي عليه وتقتله لولا أنه وعدها، وهو يقسم بأكثر الأمور قداسة. إنه سيكف عن المتاجرة مع نساء العهد القديم والمتعامل معهن، وإنه لن يزور إلا البطاركة العظام والأنبياء الذكور الكرام.

كانت نتيجة هذا الشجار العنيف، أن السيد الزوج بدءاً من هذا اليوم قتل في عناية مقلقة كل ثروات أحلامه، وأصبح تماماً فاسقاً إنجيلياً، قديساً ماكراً، صرح لي ذات يوم أنه تجرأ في حلم من الأحلام أنه عرض أكثر العروض فسقاً على الفاضلة (سوزان) وأنه استطاع بوقاحته التسرب إلى حريم الملك (سليمان) وأنه شرب الشاي مع زوجاته الألف.

(١١)

يا للغيرة التاعسة ! لقد قطعت حلمًا من أحلى أحلامي وربما قطعت بعد ذلك حياة(سيمسون) الصغير. ما الحلم؟ ما الموت؟ إنه ليس إلا قطع الحياة أو الكف الكامل عن الحياة. نعم، إن الناس الذين لا يعرفون إلا الماضي والمستقبل، والذين لا يعرفون كيف يعيشون أبداً كاملاً في كل لحظة من لحظات الحاضر، نعم إن الموت عند مثل هؤلاء الناس يجب أن يكون مخيفاً مرعباً! عندما يحرمون هاتين الصدفتين: الزمان والمكان يسقطون في العدم الأبدي.

والحلم؟ لماذا لا نخاف أن ننام مثلما نخاف أن ندفنّ؟ أليس فكرة مخيفة أن يستطيع الجسم البقاء ليلة كاملة مثل جثة منطفئة، بينما يجرنا الفكر في حياة كثيرة الاضطراب والحركة، في حياة فيها كل فظائع هذا الانفصال الذي خلقناه بين الجسد والفكر؟ أما في المستقبل فإن الجسد والفكر يمتزجان من جديد في شعورنا، وعند ذلك فلن تكون هناك أحلام، أو على الصحيح لن يكون هناك إلا رجال مرضى، رجال اضطرب انسجامهم الحيوي فهم يحلمون عندئذ. اليونان والرومان لا يحلمون إلا أحلاماً خفيفة ويحلمون نادراً: الحلم القوي القادر عندهم حدث من الأحداث، عن الأحلام الحقيقية لم يوجد إلا عند قدماء اليهود، وقد بلغ أوجه عند هؤلاء اليهود المحدثين الذين نسميهم «النصارى». سيرتجف أحفادنا هلعاً عندما سيقرؤون يوماً من الأيام أية حياة من الأشباح عشناها، وكم كان الانسان فينا موزعاً، لا يتمتع إلا بنصف حياته. عهدنا (وقد بدأ بصليب المسيح) سوف يعتبر عهداً مرضياً طويلاً من عهود الإنسانية.

ومع ذلك فما أحلى الأحلام التي استطعنا أن نحلم بها. لا يكاد أحفادنا يفهمونها. إن كل روائع العالم تتلاشى فيما حولنا، وإذا نحن نجدها في أعماق أرواحنا. إلى أرواحنا يلجأ عطر الورود التي سحقناها بأرجلنا وغناء العنادل التي خافت وهربت منا. . .

أنا، أعرف كل ذلك، وأنا أموت بهذه الألوان من المزعجات وبهذه الألوان المخيفة من المتع في عصرنا، عندما أخلع ثيابي مساء وأرتمي في سريري وأتمدد فيه وأغطي جسدي باللحف البيضاء يحدث لي أكثر من مرة أن أرتجف دون إرادة، وأن أتصور أني لست إلا جثة وأني أكفّن نفسي بيدي هاتين. وعندئذ أسرع في إغماض عيني لكي أتخلص من هذه الفكرة وأنجو منها للتشرد في بلاد الأحلام. . . .

إنه حلم عذب، حلم مشرق بالشمس، السماء زرقاء قرمزية صافية دون غيوم، والبحر أخضر هادىء، وبساط الماء يمتد إلى مرمى البصر، وسطح البحر يزحف فيه مركب مزين، وأنا أجلس على الشاطىء، قابعاً عند أقدام (جادفيغا). كنت أقرأ لها أغاني الحب التي كتبتها على أوراق وردية، أقرأها وأنا أتنهد تنهدات سعيدة، وهي تصغي إصغاء فيه شك، وفي ابتسامة شاحبة، وكانت أحياناً تنتزع في نشاط أوراقي وترميها في البحر. ولكن الحوريات الجميلات بصدورهن وأذرعهن البيضاء كالثلج كن يخرجن من الأمواج كل مرة ثم يلتقطن هذه الأشعار الغرامية. وعندما كنت أطل على مياه الشاطىء كنت أستطيع أن أرى في وضوح حتى أعماق البحر، الحوريات جالسات في حلقات كأنهن في قاعة استقبال، وفي وسطهن يبدو ملاك بحري من زملائهن يتلو عليهن في كثير من الارتباك أشعاري، كانت عاصفة من الاستحسان تنفجر عند نهاية كل رباعية، وكانت الحوريات الجميلات، ذوات الشعر الأخضر، يصفقن في حماسة، وتزداد صدورهن وخدودهن حمرة، ويقلن في حماسة مفعمة بالسرور والرضا معا: ــ ما أعجب هذا الصنف من الناس. ما أكثر ما في حياتهم من غرابة وما أكثر ما في قدرهم من مأساة. إنهم يحب بعضهم بعضا وقل أن يبوح بعضهم بحبه إلى بعض، وإذا باحوا لم يدركوا دائماً سعادة التفاهم. . . ثم إنهم لا يعيشون إلى الأبد كما نعيش، إنهم فانون زائلون، ولا يتمتعون إلا بوقت قصير للبحث عن السعادة، وعليهم أن يقبضوا عليها وهي طائرة وأن يضموها إلى قلوبهم قبل أن تفرّ منهم فراراً. ولهذا كانت أناشيدهم في الحب جدّ رقيقة جدّ حميمة، جدّ أليمة رائعة بكل ما فيها من يأس، إنها مزيج عجيب من الفرح ومن

العذاب... إن فكرة الموت تلقى ظلها الكئيب على أكثر ساعات حياتهم حلاوة ومتعة وتعزيهم تعزية رقيقة في شقائهم. إنهم يستطيعون أن يبكوا، يا لهذا الشعر الذي تضمه دمعة الإنسان.

قلت عندئذ لـ(جادفيغا) اسمعي، إنهم يتكلمون بصوت خافت؟ تعالي أضمك لكيلا يأسفوا لحالنا، بل لكي يحسدوننا، ولكن حبيبتي نظرت إلي نظرة حب لا تنتهي ولم تجب بحرف. فلثمتها في صمت، فاصفر لونها وسرت رعشة باردة في ملامحها الساحرة، ثم مضت جامدة لا تتحرك كأنها من المرمر الأبيض لتلقي نفسها بين ذراعي واعتقدت أنها ميتة لولا جدولان كبيران من الدموع يجريان دون انقطاع من مقلتيها... وبللتني هذه الدموع حين كانت تختلج بين ذراعي هذه المخلوقة الحلوة...

وفجأة سمعت صوت صاحبة البيت الحاد، فانتزعني من حلمي، كانت واقفة أمام سريري، وفي يدها قنديل ورجتني أن أرافقها. لم أرها مرة في مثل هذه البشاعة. كانت تلبس قميصاً وصدرها المفتوح أصفر من نور القمر الذي كان ينفذ من بلور النافذة فأشبه ثدياها ليمونتين أصابها الجفاف، ودون أن أعرف ما تريد، تبعتها وأنا نصف سكران من النوم إلى غرفة نوم زوجها. كان الزوج المسكين متمدداً على سريره، وقد غطت طاقية نومه عيونه وبدا أنه يحلم حلماً عاطفياً. كان جسمه يختلج في وضوح تحت غطائه، وشفتاه تبتسمان في نشوة لا نهاية لها ثم تنطبقان في عصبية كأنهما تهمان أن تطبعا قبلة، وكان يتمتم ويدمدم: ـ(فاشتي) يا ملكة (فاشتي)، يا صاحبة الجلالة،... لا تخافي(آهاسفيروس) يا عزيزتي (فاشتي)! كانت زوجته، وعيناها تقدحان غضباً، تنحني فوق زوجها النائم وتدني أذنها من رأسه، كأنها تريد أن تفاجئه حتى في أفكاره وتقول لي هامسة: ألست الآن مقتنعاً يا سيد (شنابل وبسكي)؟ إن له علاقات مع الملكة (فاشتي)، المراهقة القذرة. لقد اكتشفت هذه العلاقة الأثيمة في تلك الليلة... إنه يفضل علي امرأة وثنية! ولكني أنا زوجته وأنا مسيحية، سترى كيف أنتقم لنفسي منه.... وعند هذه الكلمات انتزعت اللحاف الذي يغطي الأثيم المسكين... كان يلهث... وأخذت عصابة من جلد الأيل وضربته دون رحمة على أعضائه الجافة. استيقظ المسكين يقظة مزعجة من حلمه الفارسي وجعل يصرخ في قوة كأن مدينة (سونسه) تلتهمها النيران أو كأن هولنده غمرتها المياه، وأرهقت صرخاته كل جيرانه.

وأشاعوا في الصباح، في كل مدينة (ليد) أن صاحب البيت لم يصرخ كل

هذه الصرخات المدوية إلاّ لأنه وجدني في الليل مع زوجته. لقد رأوا زوجته عارية في النافذة، وعندما سُئلت خادمتنا، التي لا تستحسنني، عن هذا الحادث، وكانت صاحبة فندق (البقرة الحمراء) هي التي سألتها ذكرت أنها رأت بعينيها الاثنين السيدة (ميفراو) وهي تمضي للقائي في الليل في غرفتي.

لا أستطيع، دون حزن شديد أن أتذكر هذا الحادث، ما أكثر ما خلف من نتائج مرعبة!

(١٢)

لو كانت صاحبة فندق (البقرة الحمراء) اسبانيـة فلربما سممت طعـامي، ولكنها هولندية فاكتفت بإرسال طعام كريه إليّ. غداة ذلك اليوم بدأنا نكابد نتائج ذلك المزاج النسوي. كان أول صحفة: لا ثريدة. هذا أمر مخيف وخاصة لإنسان رُبي تربية طيبة مثلي، تعود منذ طفولته أن يأكل كل يوم ثريدة، ولا يستطيع أن يتصور عالماً تشرق فيه الشمس كل يوم ثم لا تطبخ فيه ثريدة. الصحفة الثانية كانت تضم لحم بقر ولكنه كان بارداً وقاسياً مثل بقرة (ميرون). وتأتي الصحفة الثالثة محاراً يفوح برائحة مثل رائحة رجل. والصحفة الرابعة وجامة لا ترضي جوعنا، وكأنها هي جائعة من كثرة ما هي عجفاء هزيلة حتى إن شفقتنا عليها منعتنا من أكلها.

وصرخ (دريكسن) الضخم:

ــ حسناً يا (سمسون) الصغير. أما تزال تعتقد بوجود الله. أهذا أمر عادل، السيدة صاحبة المنزل ذهبت لزيارة (شنابل وبسكي) في الليل المظلم ثم نحن نتلقى العقاب في وضح النهار!

وقال الرجل الصغير وهو يتنهد: وقد أرهقته هذه الطلعات الملحدة، وربما كان ذلك من الغذاء السيء:

ــ آه يا رب يا رب. وزاد ورعه عندما غضن (فان بيتر) الطويل ملامحه وهاجم أصحاب وحدة الوجوه ومدح المصريين الذين كانوا يعبدون البقر والبصل، لأن البقر إذا شوي لحمه، ولأن البصل إذا طبخ وسلق، لهما دون شك مذاق إلهي.

ولكن هذه السخريات كانت تثير روح (سمسون)الصغير وتغمرها بالمرارة، وانتهى بهذه الكلمات محاضرته في الألوهية: إن الله بالنسبة إلى الناس مثل الشمس بالنسبة إلى النبات، عندما تلمس أشعة الشمس الأزهار ترتفع في فرح، وتفتح

أكمامها، وتنشر أفخم ألوانها وأكثرها اختلافاً وتنوعاً. وفي الليل عندما تكون الشمس غائبة، تبدو الأزهار حزينة وتغلق أكمامنا وتنام وتحلم بقبلات النور الذهبي في الأيام الخالية. والأزهار التي تبقى دائمًا في الظل تفقد قامتها ولونها وتتضاءل وتذبل حزينة تعيسة، ولكن الأزهار التي تنمو تماماً في العتمة في كهوف القصور القديمة، في خرائب الأديرة، تصبح قبيحة كريهة تتسلق وتزحف على الأرض كأنها الأفاعي، رائحتها وحدها تقزز النفس وتمرضها وتقتلها.

وصرخ (دريكسن)، وهو يبتلع كأساً كبيرة من خمرة (شييدام):

ــ أوه. حسنا. لسنا في حاجة إلى أن تلفنا في حججك الانجيلية، أنت يا (سمسون) الصغير أنت زهرة نقية تتنشق تحت شمس الله أشعة الفضيلة والحب المقدسة، في نشوة بالغة حتى إن روحك تتلون ألوان قوس قزح. أما روحنا التي انحرفت عن الله، فتذبل قبيحة دون لون، إن لم تكن تفوح بروائح فاسدة كأنها الطاعون.

قال (سمسون) الصغير:

ــ رأيت مرة في (فرانكفورت) ساعة لا تؤمن بالساعاتي، كان قصديرها يلمع ولكنها كانت تمشي مشية جدّ سيئة.

أجاب (دريكسن) وقد احمر غضباً:

«لا أعرف المعدن الذي صنعت منه، ولكن سيفي ليس من القصدير المموه بالذهب». ثم كف عن إرهاق الرجل الصغير.

كان الرجل الصغير، رغم يديه الضعيفتين لصغيرتيـن، يجيد استعمال السلاح واتفقنا في اليوم نفسه أن يتبارزا بالسيف. وهجم أحدهما على صاحبه في ضراوة شديدة. كانت عينا (سمسون) الصغير تلمعان بكل ما فيهما من سعة. وتؤلفان تناقضاً ملحوظاً مع يديه الصغيرتين المجردتين من اللحم، الخارجتين من كميه المطويتين، وازداد حيوية شيئاً فشيئاً، لأنه كان يقاتل في سبيل إثبات وجود الإله، إله اسرائيل، ملك الملوك. ولكن الله لم يمنح شيئاً من التأثير لمن يدافع عنه، وفي الدورة السادسة تلقى طعنة اخترقت رئته.

ــ يا رب

قال ذلك ثم سقط على الأرض.

(١٣)

لقد أذهلني هذا المشهد ذهولاً قاسياً. ولكن فورة غضبي انصرفت ضد المرأة، السبب غير المباشر في هذه الكارثة. وهرعت، وقلبي مفعم بالغضب والألم، نحو «البقرة الحمراء».

عندما لقيت صاحبة الفندق في المصبخ صرخت:
ــ يا شيطانة، لماذا لم ترسلي الثريدة؟

اصفر وجه المرأة وارتعدت آنية البلور على المدفأة من هول صوتي، كنت مخيفاً، كما يمكن للرجل أن يكون إذا لم يأكل ثريدة، وعندما يتلقى خبر صديق أصابته طعنة سيف في الرئة. وكررت هذه الكلمات:
ــ يا شيطانة، لماذا لم ترسلي الثريدة؟

خلال ذلك كانت المخلوقة، التي تعرف غلطتها، واقفة أمامي جامدة خرساء. ولكنها لم تلبث أن انسابت الدموع من مقلتيها كأنها تفيض من قناتين مفتوحتين، فغسلت كل وجهها وانصبت شلالاً حتى مجرى صدرها. ولكن ذلك المشهد لم يكن كافياً لإطفاء غضبي، فقلت لها وقد زدت غيظاً: يا امرأة، أنت تعرفين ما لدموعك من تأثير، ولكن الدموع ليست ثريدة. لقد خلقت لشقاء الرجل. نظرتك خيبة ونفسك كذبة. من كان أول من أكل تفاحة الخطيئة؟ الإوزات أنقذت (الكابيتول) ولكن امرأة خربت (طروادة). نعم (طروادة)، (طروادة) مدينة (بريام) المقدسة، لقد سقطت بخطيئة امرأة. من الذي جرّ (ماركوس انطونيوس) إلى دماره؟ من الذي سبب اغتيال (ماركوس سيسيرو)؟ من الذي طلب رأس القديس (حنا) المعمدان؟ من كان سبب بتر أعضاء (أبيلار) وتشويهه؟ كل ذلك كان بسبب امرأة. التاريخ ملآن بأمثلة تثبت أنّا بكن نضيع. كل أفعالكن جنون، كل أفكاركن جحود ونكران، نعطيكن أثمن ما نملك، اللهب المقدس في القلب... حبنا... وماذا تعطوننا لقاء ذلك. لحم بقر، بقرة عجفاء، لحم سمك أكثر سوءاً، يا شيطانة، لماذا لم ترسلي ثريدة؟ عبثاً كانت السيدة تحاول سرد سلسلة من الاعتذارات وأن تقسم علي بكل متع حبنا الماضي، لأغفر لها ما فعلت هذه المرة، وعرضت أن ترسل من الآن فصاعداً، غداء أكثر جودة مما كان، دون أن تتقاضى أكثر من (٦) فلورينات على الوجبات الشهرية رغم أن صاحبة فندق (دولان الكبير) تتقاضي (٨) فلورينات على وجبة غداء عادي، بل ذهبت إلى

حد السماح لي في اليوم السابق بإرسال وجبة من الشطائر بالمحار، بل إن نبرات صوتها الرقيقة كانت تُعدّ حتى بالكمأة. ولكنني بقيت صلباً لا أتزعـزع. كنت مصمًا على أن أقطع علاقتي بها إلى الأبد، تركتها وأنا أرميها بهـذه الكلمات المأساوية:

ــ وداعاً. لا مطبخ بيننا في هذه الحياة!

سمعت وأنا أمضي شيئاً يقع على الأرض؟ أكان ذلك قدراً من القدور أو السيدة نفسها؟ لا أدري، ولكني لم أكلف نفسي عناء النظر إلى ما وقع ومضيت مباشرة إلى فندق (دولان الكبير) لأوصي بست وجبات لليوم التالي.

(١٤)

بعد أن تخلصت من هذه المهمة الخطيرة ذهبت مسرعاً إلى مسكن (سمسون) الصغير فوجدته في حال سيئة جداً. كان يستلقي في سرير كبير غوطي لا ستائر له، وعلى الزوايا تنتصب أربعة أعمدة من الخشب على شكل المرمر تحمل سماء مذهبة.

كان وجه (سمسون) الصغير أصفر من الألم، وكان في النظرة التي سددها إليّ كثير من الحزن والطيبة وسوء الحظ هزتني إلى أعماق روحي. صرح الطبيب الذي غادره منذ قليل أن الجرح خطر بل وخطر جداً. أما (فان مولان) الذي ظل طوال الليل ساهراً عليه فكان جالساً في مقعده عند سريره يقرأ عليه «التورارة».

قال الصغير وهو يتنهد: ــ شنابل وبسكي. جئت في الوقت المناسب. يمكنك أن تسمع القراءة وفي ذلك الخير لك. إنه كتاب ثمين، حمله أجدادي معهم إلى العالم كله، ورعايتهم لهذا الكتاب كلفتهم كثيراً من الإهانات والمصادرات والشتائم والأحقاد. لقد قاسوا كل أنواع العذاب الممكنة، بل إنهم قتلوا في سبيل هذا الكتاب الذي كلفت كل ورقة منه دموعاً ودماء. إنه القسم الذي خطه أبناء الله، إنه الإرث المقدس لأبيهم السماوي، يتقدس اسمه.

وصاح (فان مولان): لا تتكلم كثيراً، فالكلام يزعجك وأضاف:

ــ ولا تتكلم على الخصوص عن رب إسرائيل وهو أشد الأرباب عقوقاً لأنه يترك شعبه يهزل ويذبل في بؤس أبدي، والذي من أجله قاتلت أنت اليوم. إنه لم يتنازل فيحميك من هذه المبارزة التعيسة مع زنديق.

تنهد الصغير وأجاب ودموعه تهطل: «يا رب أنت تعين علينا أعداءنا». وكرر

(فان مولان) قوله: لا تتكلم كثيراً، ثم قال لي في صوت خافت: وأنت يا شنابل وبسكي، عفوك عني إذا أزعجتك. الصغير يريد مني في إلحاح أن أقرأ عليه قصة سميه، ونحن في الفصل الرابع عشر، فاسمع:

هبط (شمشون) إلى ظمناتا، ووجدت هنالك امرأة بين بنات الفرنسيين. «كلا» قال الصغير وعيناه مغمضتان: نحن في الفصل السادس عشر، يخيل إلي أني كنت أشهد كل ما جرى، وأني أسمع ثغاء الشاء التي تمشي على ضفاف نهر الأردن وأنني أنا الذي أشعلت أذناب الثعالب، ثم أطلقتها في حقول الفرنسيين، وأني قضيت على ألف فريسي بفك حمار. يا للفريسيين. لقد قهرونا وسخروا منا، وجعلونا ندفع ضرائب الجمارك مثل الخنازير. لقد ألقوا بي على باب قاعة الرقص في فندق (الحصان الأبيض) وخمارة (بوكنهيم) لقد رفسوني بأقدامهم. ــ نعم لقد طردوني ورفسوني في فندق (الحصان الأبيض) وفي خمارة (بوكنهيم) يا رب. أهذا عدل؟ يا رب.

ولاحظ (فان مولان) في صوت خافت:

ــ الجرح أدى به إلى الحمى فهو يهذي. وبدأ بقراءة الفصل السادس عشر من تاريخ (هرقل) اليهود.

بعد ذلك ذهب (شمشون) إلى غزة وهناك رأى مومساً فذهب إليها.

عرف الفرنسيون ذلك وشاع بينهم أن (شمشون) دخل المدينة فأحاطوها ووضعوا حراساً على أبواب المدينة، وهناك انتظروا صامتين طوال الليل ليقتلوه صباحاً عند خروجه.

ونام شمشون، حتى منتصف الليل وعندئذ استيقظ وذهب ليأخذ بابيّ المدينة بأوتادهما وأقفالها، ثم وضعها على كتفيه وحملها إلى رأس الجبل الذي يطل على (حرمون). وبعد ذلك أحب امرأة تقطن وادي (سورق) وتسمى دليلة.

وجاء أمراء الفريسيين لرؤية هذه المرأة وقالوا لها: اخدعي شمشون، واعلمي منه من أين تأتي قوته وكيف نستطيع أن نغلبه ونعذبه بعد أن نقيده بالحبال، وإذا فعلت ذلك أعطيناك أحد عشر قطعة فضة لكل واحدة منكن...

وقالت دليلة لشمشون: قل لي، أرجوك، من أين تأتيك هذه القوة الهائلة وبأي شيء يجب ربطك لكي نحرمك طريقة إنقاذك وهربك؟

وقال لها شمشون:

لو أنهم ربطوني بسبعة حبال غليظة، ليست ناشفة، والتي ما تزال تحتفظ برطوبتها لأصبحت مثل سائر الرجال.

وحمل أمراء الفريسيين سبعة حبال كما قالت المرأة فربطته بها. خبأت الرجال في غرفتها وكانوا ينتظرون قيامها بعملها، ثم قالت له: انظر، هؤلاء الفريسيون سيهجمون عليك. وقطع الحبال كما يقطع خيط من الكتان إذا أصابته النار. ولم يعرفوا من أين تأتيه هذه القوة الخارقة وصرخ الصغير في ابتسامة راضية:

يا للفريسيين الحمقى: إنهم مثلي يريدون أن يسوقوني إلى مركز الحرس. وتابع (فان مولان) قراءته:

«ودليلة قالت له: لقد عبثت بي، وقلت لي اشياء غير صحيحة، أخبرني الآن على الأقل بأي شيء يجب ربطك؟

«وأجابها شمشون: لو أنهم ربطوني بحبال جديدة، لم يستعملوها قط فسوف أصبح ضعيفاً ومشابهاً لسائر الرجال...

ودليلة ربطته مرة أخرى بعد أن أخفت الرجال في غرفتها وصاحت به: شمشون: انظر، هؤلاء الفريسيون سيهجمون عليك، وفوراً قطع الحبال كأنه يقطع خيطاً.

وصرخ الصغير:

يا للفرنسيين الحمقى، أنا أعرفكم بحماقاتكم».

وصرخ (فان مولان):

لا تتكلم. اصمت وابق ساكناً، ثم تابع:

وقالت دليلة مرة أخرى لشمشون: إلى متى تخدعني وتقول لي أشياء غير صحيحة؟ قل لي: بماذا يجب أن تُربط؟

وقال لها شمشون:

لو صنعت سبع جدائل من شعر رأسي مع شريط نساج وأمررت بينها مسماراً ودفنته في الأرض.

وقالت له: شمشون: أنظر: الفريسيون سيهجمون عليك. واستيقظ ثم انتزع المسمار مع شعره ومع الشريط.

وصرخ الصغير، وهو يضحك:

إنه مثلي عندما مررت يوماً بشارع (اشنهبم)... ولكن... وفرض عليه (فان مولان) أن يصمت ثم تابع:

«عندئذ قالت له دليلة: كيف تقول لي إنك تحبني وأنت تبعدني عنك. لقد خدعتني ثلاث مرات ولم ترد أن تقول لي: من أين تأتيك هذه القوة الخارقة، كانت تلح عليه دائمًا وظلت عدة أيام تلاحقه وأخيراً استسلم قلبه وسقط في تعب قاتل:

«عندئذ كشف لها حقيقة ما يحدث وقال لها: «موس الحلاقة لم تمر أبداً على رأسي لأني نذرته لله منذ كنت في بطن أمي. لو حلقوا لي شعر رأسي، تخلّت عني كل قوتي، وأصبحت ضعيفاً مثل سائر الرجال.

قال الصغير في صوت خافت؛ وهو يتنهد «يا للحماقة»

وتابع (فان مولان):

رأت دليلة أنه اعترف لها بكل ما في قلبه فأرسلت إلى أمراء الفريسيين وقالت لهم تعالوا مرة أخرى لأنه فتح لي قلبه وجاؤوا إليها يحملون المال الذي وعدوها به. أنامت دليلة شمشون على ركبتيها وأراحت رأسه على صدرها وجاء حلاق حلق جدائل شعره السبع وبعدئذ بدأت تطرده وتدفعه عنها لأن قوته فارقته في الوقت نفسه.

«وقالت له: شمشون. انظر. هؤلاء الفريسيون يهجمون عليك واستيقظ شمشون وقال في نفسه: سوف أتخلص كما تخلصت من قبل وأنجو منهم لأنه لم يعرف أن الرب تخلى عنه.

وأمسك به الفريسيون وفقأوا عينيه وقادوه إلى غزة مكبلاً بالأغلال وسجنوه في سجن وجعلوه يدير رحى الطاحون.

وجعل الصغير المريض يتفجع ويبكي وينتحب باستمرار.

وقال (فان مولان):

اسكت واستأنف قراءته:

بدأ شعره يرجع إليه، وعندما عقد أمراء الفريسيين اجتماعات كبرى لتقديم القرابين الفخمة إلى إلههم (داجون) ويقيموا مآدب القصف واللهو وهم يقولون: لقد أوقع ربنا عدونا شمشون بين أيدينا.

وما رآه الشعب كذلك، كان يعلن بمدائح الإله، ويقول مثلهم: ربنا أوقع شمشون عدونا بين أيدينا، هذا العدو الذي خرب بلادنا وقتل عدة أبناء منا.

أقاموا أعراساً وولائم في مرح كبير، وبعد الغداء جاؤوا بشمشون كي يلعب أمامهم، وجيء بشمشون من السجن فلعب أمام الفريسيين وجمعهم بين عمودين

وقال شمشون للغلام الذي يقوده. دعني ألمس العمودين الذين يسندان كل البيت حتى أستند إليهما وأستريح قليلاً.

«كان البيت ملآن بالرجال وبالنساء، وكل أمراء الفريسيين كانوا فيه. بل إن من فيه يبلغون ثلاثة آلاف شخص من هذا الجنس وذاك، كانوا من أعلى البيت ينظرون إلى شمشون الذي يلعب.

ودعا شمشون الرب وقال له:

يا رب، اذكرني، يا رب أعد إلي قوتي السابقة لكي أنتقم من أعدائي دفعة واحدة لأنهم أفقدوني عيني.

وأمسك بالعمودين من الوسط، هذان العمودان اللذان يعتمد عليهما البيت، أمسك بعمود بيده اليمنى وبعمود الآخر بيده اليسرى، وقال: علي وعلى أعدائي يا رب. وهز العمودين هزاً عنيفاً وسقط البيت على كل الأمراء وعلى سائر الشعب الذي كان مجتمعاً هناك. فقتل منهم وهو يموت أكثر مما قتل منهم في حياته.

عند هذا المقطع أصبحت عينا المريض كبيرتين زائغتين كأنهما عينا شبح، وجلس مترنحاً على مؤخرته وأمسك بيديه النحيفتين الصغيرتين عمودي سماء السرير عند قدميه وهز هذين العمودين وهو يزأر كأنه فاقد صوابه «علي وعلى أعدائي يا رب».

ولكن عمودي السرير القويين بقيا ثابتين، وأخيراً، وقد هده التعب، وفي بسمة من الحزن لا توصف وقع الصغير المريض على عقبيه وانبثق جرحه الذي تزحزحت رباطاته بسيل من الدم.

ايضاح

وجدت هذه الصفحات التالية في النص الألماني الأصلي في رأس مذكرات السيد (شنابل وبسكي) وتحمل تاريخ ١٧ تشرين الأول (أوكتوبر) عام ١٨٣٣، وتشرح لماذا كانت آثار المؤلف الأدبية تحمل كثيراً من التقطع بسبب الأحوال السياسية المعاصرة.

«يا صديقي، أنصحك ألا ترسم ملاكاً ذهبياً فوق لوحة أعلانك، وأفضل أن ترسم أسداً أحمر. لقد اعتدت على ذلك وسترى أني لو رسمتك ملاكاً ذهبياً فسيكون له مع ذلك شكل أسد أحمر»

انقل هنا كلمات صديق فنان لأنها ترد سلفاً وفي صدق تام على الملامات التي يمكن أن توجه إلى هذا الكتاب. ولكي نصرح بكل شيء ألاحظ أن هذا الكتاب ألف خلال صيف وخريف عام ١٨٣١ وهو العهد الذي كنت أعمل فيه خصوصاً في الورق المقوى لأسد أحمر في المستقبل. كان كل شيء في نفسي يزأر ويغضب كما كان ما حولي أيضاً يزأر ويغضب.

ألم أصبح اليوم أكثر تواضعاً واعتدالاً؟

يمكن أن تثقوا بأن اعتدال الناس له أسباب ممتازة، إن الله العظيم، في العادة سهّل كثيراً على عباده ممارسة التواضع وغير ذلك من الفضائل المشابهة. فمن السهل مثلاً أن يصفح الإنسان عن أعدائه، عندما لا يمكن ما يكفي من التفكير في قدرتهم على الإضرار وكذلك من السهل جداً أن لا يغوي النساء عندما تهب السماء أنفاً بشعاً يثير التقزز.

القديسون، من كل الألوان، يتنهدون تنهداً عميقاً عند كثير من كلمات هذا الكتاب، ولكنهم لا يصبحون بذلك أكثر انسياقاً... هنالك جيل جديد، يتقدم، فهم أن كلماتي وأغاني هي انبعاث فكرة ربيعية مرحة، هي على أقل تقدير أكثر احتراماً، إن لم تكن خيراً من تلك الفكرة الحزينة القاتمة في أربعاء (الرماد)، التي خنقت في سرف الأزهار في بلدنا (اوروبا) الجميلة، ثم ملأتها بأشباح كثير من كارهي البشرية، هناك حيث كنت أقمت الأساس بملامح خفيفة تجري اليوم حرب مفتوحة جدية ولست قط في الصف الأول من هذه الحرب.

شكراً لله. إن ثورة تموز قد أطلقت الألسنة التي ظن الناس أنها خرساء خلال فترة طويلة، وكأن هؤلاء استيقظوا في رعدة وأرادوا أن يكشفوا دفعة واحدة ما سكتوا عنه حتى الآن، وكان من نتيجة ذلك ظهور خليط من الصيحات كادت تصمّ أذني في شكل جدّ مزعج. لقد أردت أكثر من مرة أن أتخلى عن مهمتي كمحام وخطيب شعبي، ولكن ليس سهلاً على مثلي أن ينصب نفسه في موضع مستشار حميم للدولة رغم أن هذا المنصب يحمل كثيراً من المنافع أكثر مما تحمله أكبر المناصب في محكمة الشعب. يتصور الناس الطيبون أن أفعالنا وآثار هي أشياء نختارها بإرادتنا، وأننا انتقينا من مخزن الأفكار الجديدة، فكرة من هذه الأفكار، قررنا أن نتحدث عنها ونعمل لها ونكافح في سبيلها ونتألم لانحيازنا لها، كما يفعل مثلاً فقيه لغوي ينتقي أحد المؤلفين الكلاسيكيين، ويقضي كل حياته في شرحه

وتفسيره. كلا، ولا ريب، نحن لا نأخذ الفكرة، ولكن الفكرة هي التي تختارنا، تسوقنا مثل عبيد لها، وتدفعنا بضربات السياط في ميدان صراعها، وعلينا هنا أن نناضل ونحارب من أجلها كأننا مصارعون مكرهون، وكذلك الأمر في حمل كل رسالة صادقة. ما أصعب هذا الاعتراف عندما قال (آموس) للملك (أمازيا): لست نبياً ولا ابن نبي، ولكني فقط راعي بقر أقطف التوت، ولكن الله هو الذي سحبني من قطيعي وقال لي: اذهب وبشّر. لقد كان ذلك اعترافاً أليمًا، عندما ظهر ذلك الكاهن الفقير متهمًا أمام الامبراطور وأمام كل الامبراطورية (ودرمس) وصرح بأن من المستحيل نقض شيء من عقيدته والتخلي عنها، رغم كل ما في قلبه من تواضع عميق، وأنهى اعترافه بهذه الكلمات: أنا رهن أيديكم، لا أستطيع أن أفعل غير ما فعلت. أعانني الله آمين!

لو عرفتم هذا العنف المقدس لكففتم عن إهانتنا وتحقيرنا والإساءة إلينا... الحق أننا لسنا قط معلمين ولكننا خدمة الكلمة. ولقد كان اعترافاً أليمًا كذلك عندما قال (مكسيمليان روبسبير) كلماته: أنا عبد الحرية.

وأنا نفسي أحب اليوم أيضاً أن أقوم باعتراف. لم يكن نزعة عابثة في قلبي عندما ترك كل ما هو عزيز علي، كل ما كان يسحرني ويبتسم لي في وطني، هناك كان أكثر من شخص يحبني... مثلاً أمي... ومع ذلك فقد سافرت دون أن أعرف لماذا، سافرت لأني كان يجب علي أن أسافر، وبعد ذلك شعرت أن روحي مرهقة: طالما قمت بمهمة النبي قبل ثورة تموز (يوليو) حتى كادت النار الداخلية تلتهمني؛ كان قلبي، بالكلمات القوية التي تنتزع منه، مستنزفاً مثل بطن امرأة تخلصت من حملها.

جعلت أفكر في أنكم لستم في حاجة إليّ، وأني أستطيع أخيراً أن أعيش لنفسي، وأن أنظم الشعر الجميل، والمهازل والقصص وألواناً من ألاعيب الفكر الرقيقة المسلية التي تراكمت في علبة دماغي، وأني أستطيع العودة هادئاً إلى بلد الشعر التي عشت فيها من قبل كثير السعادة.

ثم إني لم أستطع انتقاء مكان أكثر صلاحاً لتنفيذ هذا المشروع، كان ذلك في قرية صغيرة، على شاطىء البحر، قرب (هافر الرحمة) في (نورماندیا) كان المنظر رائعاً على بحر الشمال، كان منظراً يتبدل دائمًا ومنظراً بسيطاً في آن واحد، اليوم عاصفة هوجاء وغداً هدوء وديع، وفي السماء قوافل من الغيوم بيضاء ضخمة

عجيبة ، كأنها ظلال أولئك النورمانديين الذين يوزعون على هذه المياه حياتهم الجريئة. وتحت نافذتي تزدهر النباتات والأزهار الرائعة والورود التي ترمقني في محبة، والزنابق الحمر ذات العطور المتواضعة المستعطفة، والغار الذي يصعد على طول الحائط حتى يصل إلي، ويكاد يدخل غرفتي كأنه مجد يلاحقنا. نعم كنت أركض مفعمًا بالحب وراء (دافني) أما اليوم فإن (دافني) تركض ورائي كأنها مستهترة وتنسل إلى غرفة نومي. ما كنت أريده أمس أصبح الآن مربكاً لي؛ أريد أن أعيش في هدوء وأحب من كل قلبي ألا يتحدث عني إنسان، وأريد أن أنظم أغاني هادئة، تكون لي وحدي، وعلى أحسن حال، تكون مما أقرأه على عندليب يختبىء. ولقد وفقت إلى ذلك بادىء بدء، وأصبحت روحي مرة أخرى يهدها روح الشعر، وجعلت أشكال جديدة مألوفة وصور مذهبة تبيض وتفرخ في ذاكرتي؛ ووجدت نفسي أحلم وتهزني الصور والرؤى، سكران ثملاً كما كنت، وليس عليّ إلا أن أسجل في هدوء على صفحات الورق ما أشعر به وما أفكر فيه: لقد بدأت.

كل إنسان يعرف أنه في مثل هذا الوضع، لا يمكن أن يبقى دائمًا قابعاً في غرفته، وأنه في مثل هذه الحالة يشرع في التجوال في البرية، وقد أفعمت الحماسة قلبه، والتهب خداه، ثم لم يعبأ بالدرب وبالطريق اللذين يسير فيهما. وهذا ما حدث لي، دون أن أعرف كيف حدث، لقد وجدت نفسي فجأة في طريق (هافر) الكبير، وأمامي تمر عدة عجلات من عجلات الفلاحين عالية بطيئة محملة بكل أنواع الصناديق البائسة والأكياس، وبأشكال مختلفة من الناس والنساء والأطفال. كان بعض الرجال يسيرون حولها ولم تكن دهشتي قليلة عندما سمعتهم يتحدثون بالألمانية. نعم إنهم يتحدثون بالألمانية في لهجة محلية، أدركت فوراً أنهم من اللاجئين الألمان، وعندما تأملتهم في انتباه، أحسست فوراً بشعور غريب، لم أحس به في حياتي، كان دمي يموج عنيفاً في قلبي ويضرب صدري، كأنه يريد أن يخرج مني، وأن يخرج في أسرع ما يمكن، وتوقفت أنفاسي، نعم، إنه الوطن نفسه الذي يصادفني على قارعة الطريق، على هذه العربات تجلس ألمانيا الشقراء، بعيونها الزرقاء العميقة، ووجوهها الواثقة المفكرة، وفي زاوية فمها هذه البساطة المحزنة المحدودة التي طالما أقلقتني وآلمتني، ولكنها الآن توحي إلي وتؤثر بي في شكل كئيب، لأني في ذلك الوقت كانت لي أيام شبابي الجميلة التي تختلط فيها ضاحكة الحماقات والعنعنات الوطنية وكان لي أن أفرغ مراراً مع الوطن السعيد الثمل مثل صاحبة فندق بطيئة كأنها حلزون، بعض النزاعات العائلية، كما يحدث ذلك في

أرقى العائلات، لقد انطفأت كل هذه الذكريات من هذا النوع في روحي، عندما وجدت الوطن يقع فريسة للبؤس، في الغربة، في المنفى. هذه النقائص نفسها أصبحت عزيزة غالية في لحظة واحدة، ولقد عقدت الصلح مع كل تلك العادات المسكينة فصافحته، صافحت يد هؤلاء اللاجئين الألمان كأنما أعطي الوطن قبضة يد لمعاهدة صداقة متجددة وجعلنا نتحدث بالألمانية. كان أولئك الناس أيضاً سعداء في الاستماع إلى أنغام بلادهم على طريق أجنبية واسعة، وتفتحت الظلال القلقة التي تغطي وجوههم وانقشعت، بل إنها كادت تبتسم بعد حين، والنساء أيضاً وكان بينهن عدة جميلات صرخن بي من أعلى العربات يعربن عن شعورهن: حياك الله، بل إن الأطفال حيوني في تهذيب، وقد علت وجوههم حمرة الخجل، والأطفال الصغار جعلوا يرسلون إليّ استهلالات صداقة من أفواههم الصغيرة التي ليس فيها أسنان، وسألت هؤلاء الناس البؤساء: ــ ولماذا تركتم ألمانيا، وكان جوابهم: ــ البلد طيب ولقد أحببنا الإقامة فيه، ولكننا لم نحتمل ما يجري فيه أكثر مما تحملنا.

نعم لست من هؤلاء المجادلين الذين يحبون إثارة المشاعر، ولست أريد أن أنقل كل ما سمعت، على طريق (الهافر) وتحت قبة السماء من فظائع النبلاء والكبراء الذين يضطهدون أبناء وطننا، ثم إن عظمة الشكوى ليست في الكلمات ولكنها في البساطة والاستقامة التي تقال فيها أو على الصحيح في تنهدها: هؤلاء الناس الفقراء أيضاً ليسوا سفسطائيين ولا جدليين، كانت اللازمة التي ترافق دائماً شكاواهم تنتهي بهذه العبارة: ماذا يجب أن نفعل أيجب أن نقوم بثورة..

اقسم بكل آلهة السماء والأرض: إن عشر ما قاساه هؤلاء الناس في ألمانيا أدى إلى ست وثلاثين ثورة في فرنسا، وكلف تيجان ستة وثلاثين ملكاً ورؤوسهم أيضاً. ــ ومع ذلك فقد تحملنا كل هذا وها نحن هؤلاء نهاجر في سبيل أطفالنا، إنهم لم يتعودوا كثيراً الحياة في ألمانيا وربما أصبحوا سعداء في الغربة: وإن كنا لا نشك أنهم سيلاقون أعباء كثيرة في أفريقيا.

ذلك ما قاله أحد المهاجرين (الصواب) وهو في الثمانين في عمره.

وهؤلاء البؤساء يذهبون إلى الجزائر فلقد وعدوهم، في شروط مناسبة، أن يعطوهم قطعة من الأرض يقيمون فيها. قالوا: البلاد طيبة، ولكنهم قالوا لنا: إن فيها أفاعي سامية يمكن أن تؤذينا، وسوف تزعجنا القرود التي تسرق الثمار في

الحقول أو التي تسرق الأطفال وتقودهم إلى الغابات. إنه لشيء قاس. ولكن محاكم الاقطاعيين هي أيضاً أفاعٍ سامة، عندما لا تدفع الضرائب؛ وحقولنا يخربها الصيد والقنص ثم إنهم يأخذون أطفالنا ليجعلوا منهم جنوداً: ماذا يجب أن نفعل: أيجب أن نقوم بثورة؟

في سبيل الكرامة الانسانية يجب أن أتحدث هنا عن العطف الذي لقيه هؤلاء المهاجرون ــ كما ذكر المهاجرون أنفسهم في كل فرنسا، في كل مرحلة من مراحل رحلتهم الأليمة. إن الفرنسيين ليسوا أكثر الناس روحية ولكنهم أيضاً أكثرهم رحمة وإحساناً. أكثر الفرنسيين فقراً حاولوا أن يبرهنوا لهؤلاء الغرباء البؤساء عن صداقتهم، أعانوهم في حماسة على تحميل وتفريغ عجلاتهم، أعاروهم قدور النحاس لطبخهم، كسروا الحطب معهم، حملوا الماء معهم وأسهموا في غسيل ملابسهم. رأيت بأم عيني متسولة فرنسية تعطي طفلاً من (الصواب) كسرة من خبزها، مما دفعني إلى شكرها شكراً جزيلاً. ويجب أن نلاحظ أيضاً أن الفرنسيين لا يعرفون إلا بؤس هؤلاء الناس المادي، وهم لا يفهمون لماذا يغادر هؤلاء الألمان وطنهم.

لأن إزعاجات السادة الكبار عندما تصبح أمراً لا يطيقه الفرنسيون، أو عندما يرى هؤلاء أن هذه الازعاجات أصبحت غير مهذبة، فالفرنسيون لا تخطر على بالهم فكرة الهرب من بلادهم، وهم يفضلون عندئذ إعطاء جوازات سفر إلى مضطهديهم، يقذفون بهم إلى خارج حدود بلادهم ويظلون هم فيها سعداء، وبكلمة واحدة إنهم يقومون بثورة.

أما أنا فقد أصابني من هذا اللقاء حزن عميق، مزاج أسود، وأصابني في قلبي يأس من الرصاص لا أستطيع أبداً أن أعبر عنه بالكلمات، أنا الذي كنت منذ لحظة أترنح من نشوة عارمة كأني منتصر في معركة أعود من هذا اللقاء منهزماً ومريضاً كأني إنسان متكسر، الحق أن ليس ذلك أثراً من آثار الوطنية التي استيقظت فجأة، شعرت أن ذلك كان شيئاً أكثر نبلاً وخيراً، ومع ذلك فإن كل ما يحمل اسم الوطنية أصبح عسيراً علي منذ زمن بعيد. نعم بل إني أستطيع أن أشعر بالاشمئزاز من هذا الأمر عندما أرى مساخر هؤلاء السود البلهى الذين جعلوا من الوطنية مهنة منظمة عادية، واعتادوا ارتداء زي مناسب للمهنة، وتوزعوا إلى معلمين وأصحاب وأجراء متمرنين، وأصبحت لهم تحياتهم وعلامات مرورهم التي بها يتاجرون في بلادهم، أقول: يتاجرون بكل ما في هذه الكلمة من دناءة مواطنينا

(التوتونبين) لأن التجارة الحقيقية النبيلة، مع الأغلال، لم تكن من تقاليد ولا عادات هذه المهنة.. أبوهم، جان، جان، أبو المهارة كان، كما يعرف كل إنسان، كان وغداً وتافهاً خلال الحرب مع فرنسا. وكذلك فإن أكثر أصحابه لم يكونوا إلا من جنس عامي، يكرهون الناس، أسيء ربطهم، بل إن غلظتهم لم تكن شيئاً سمجاً، إنهم يعرفون جيداً أن البساطة الألمانية ما تزال تعتبر الشدة علامة تدل على الشجاعة والإخلاص، ونظرة نلقيها على بيوت الاصلاح يمكن أن تكفي لتدل على أن كثيراً من الأوغاد هم أشداء قساة وكذلك عدد غير قليل من الأنذال. في فرنسا أصبحت الشجاعة متحضرة ومهذبة، وأصبح الإخلاص يلبس قفازات ويرفع لك قبعته. في فرنسا تقوم الوطنية على حب البلد مسقط الرأس لأن هذا البلد في الوقت نفسه وطن الحضارة والتقدم الإنساني. أما الوطنية الألمانية المزعومة، فهي على عكس ذلك، تقوم على كره فرنسا في جملة كرهها للحضارة والتحرر. ألست أنا غير وطني لأني أثني على فرنسا؟

هنالك شيء متميز في الوطنية في حب الوطن حباً حقيقياً، يمكن للإنسان أن يحب وطنه دون أن يلاحظ ذلك، حتى في سن الرابعة والعشرين، ولكن مثل هذا الإنسان يلزمه لذلك ألا يغادر قط بيته. إننا لا نستطيع أن نعرف طبيعة الربيع إلا في فصل الشتاء، ووراء المدفأة يمكن أن نجد أحلى أغنيات أيار. وحب الحرية زهرة تولد في السجن وهناك يمكن أن نشعر بثمن الحرية. وهكذا فإن حب الوطن الألماني يبدأ عند حدود ألمانيا، وخاصة عندما نرى البؤس الألماني في أرض أجنبية، أمامي في هذه اللحظة كتاب يتضمن رسائل صديقة ماتت، ولقد كنت مذهولاً تماماً وأنا أقرأ أمس المقطع التالي الذي تصف فيه الانطباع الذي تركه فيها منظر مواطنيها في البلاد الأجنبية خلال حرب ١٨١٣.

«لقد سكبت طوال الليل دموع الشفقة والألم، أوه، أنا لم أعرف قط وطني كما عرفته الآن؛ كنت مثل ذلك الذي لم تعرف الفيزيولوجيا ثمن دمه، لو سحبوا دمه لسقط الرجل».

هذا الكلام جد طيب. ألمانيا هي نحن أنفسنا. ولهذا فقد شعرت فجأة مصعوقاً ومريضاً عند رؤية هؤلاء المهاجرين، هذه الجداول الدافقة من الدم التي تجري من جراحات الوطن وتمضي لتضيع في رمال أفريقيا. إن ذلك لحق. إنه ضياع جسدي. عبثاً حاولت أن أهدىء نفسي بحجج ممتازة: أفريقيا أيضاً بلد طيب، والأفاعي فيها لا تصفر بأصوات كافرة ولا ترمي بسمها قبلة الحب

المسيحي، والقرود التي فيها ليست أكثر إثارة للنفور من القرود الألمانية... ولكي أتسلى جعلت أدمدم بأغنية، ولكنها كانت تلك الأغنية القديمة لشوبارت:

wir sollen uber land ind meer
Ins heisse Abrika

يجب أن نقطع الأقطار والبحار لكي نبلغ أفريقيا المحرقة.

An Deutschilands grenzen fullem wir
Mit erde noch die Hand;
und küssen Sie, das sey dein dank
Tur schirmung, plêge, speis'und trank
Du liebes vaterland

(عند الحدود الألمانية جعلنا نملأ أيدينا بترابها ونلثم الأرض والتراب. لعل ذلك أن يكون شكرنا على المأوى وعلى العناية بنا ونحن أطفال، وعلى الطعام والشراب اللذين وهبتهما لنا، يا وطني الحلو!).

لم أستطع أن أحتفظ في ذاكرتي إلا بهذه الأبيات من الأغنية التي سمعتها في طفولتي، وكانت تعود إلى فكري كلما قطعت الحدود الألمانية، وأنا لا أعرف كثيراً عن مؤلفها لا أعرف إلا أنه شاعر ألماني مسكين وأنه كان معتقلاً في إحدى القلاع أطول فترة في حياته وأنه كان يحب الحرية. لقد مات ونخر الدود عظامه منذ أمد بعيد، ولكن أغنيته ما تزال تعيش لأن الكلمة لا يمكن أن تعتقل في قلعة ولا أن يجعلوها تفسح في السجون.

أقسم لكم إني لست متعصباً قومياً وإذا كنت بكيت في ذلك اليوم فذلك بسبب الطفلة الصغيرة. هبط المساء، وكانت طفلة ألمانية، لاحظتها بين المهاجرين، واقفة عند الساحل الرملي وكأنها غارقة في تأملاتها وتتطلع في أعماق البحر الواسع. كان عمرها ثماني سنوات تقريباً، لها غديرتان صغيرتان من الشعر الجميل، وتنورة (صوابية) قصيرة، من (الفانيلا) المخططة، ووجهها أصفر صفرة مرضية، وعينها واسعة وجدية، سألتني في صوت يضطرب بالقلق ولكنه مثير للفضول: أليس هذا هو المحيط؟

ظللت إلى ساعة متأخرة من الليل على شاطىء البحر وأنا أبكي ولست

أخجل من هذه الدموع. (أخيل) أيضاً بكى على الشاطىء، واضطرت أمه ذات الأقدام الفضية أن تخرج من وسط الأمواج لكي تعزّيه، وأنا أيضاً سمعت في الأمواج صوتاً ولكنه أقل تعزية وأكثر إثارة ولكنه صوت حكيم في الأعماق. ذلك لأن البحر يعرف كل شيء: النجوم تسرّ إليه في الليل بأكثر أسرار السماء خفاء. وفي أعماقه ترقد مع الممالك الأسطورية الغاربة تقاليد الأرض القديمة التي اختفت، وهي تلصق على كل الشواطىء ألوف الآذان المتطلعة إلى الأخبار، آذان أمواجها، والأنهار التي تهرع إليها تنقل إليها كل الأخبار التي سمعتها في أعماق القارات البعيدة أو التي التقطتها من ثرثرة الغدران الصغيرة والينابيع في الجبال... ولكن البحر إذا كشف لك أسراره وتمتم في قلبك الكلمة المنقذة للعالم فالوداع للراحة إذن، والوداع للأحلام الرائعة، والوداع للقصص والمهازل التي بدأتها بداية جميلة والتي لن أنهيها الآن في زمن قريب.

ألوان الملاك الذهبية جفت أو كادت تجف نهائياً في لوحة رسمي، ولم يبق منها إلا لون أحمر قانٍ يشبه الدم، لا يمكن أن ترسم به إلا أسوداً حمرا وهكذا فإن كتابي القادم سيكون في صفاء وبساطة **أسد أحمر** ولذلك فأنا أرجو الجمهور المحترم أن يسامحني لأني قدمت له هذا الاعتراف سلفاً.

فهرست

الجزء الأول

رايسبيلدر

رحلات هاينه في أوروبا

المكان: أوروبا؛ والزمان: القرن التاسع عشر. أوروبا القرن التاسع عشر التي انتهى إليها التاريخ الانساني وأسلم لها زمامه. هذه القارة العجيبة التي وحّدت البشرية ـ ولأول مرة في التاريخ ـ تحت قيادتها واستغلالها في زمنٍ كانت فيه الأشياء الأكثر رسوخاً وصلابة تخرج عن مساراتها المألوفة وتبدل من طبائعها: زمن احتضار لعالم كان لمعانه يخبو وزمن ولادة لعالم ما زلنا نعيش امتداداته.

هذا السفر الذي نقدمه في مجلدين يتجاوز كلياً التصور التقليدي لأدب الرحلات. إنه أكثر من مجرد وصف للطبيعة والمدن والناس وعلاقاتهم ومعتقداتهم وسجونهم ومعابدهم وأسواقهم وجامعاتهم ومتاحفهم... الخ. فالحس النقدي الجذري الذي يتمتع به هاينريش هاينه يرتفع بهذا الوصف إلى مرتبة الأعمال الأدبية الكبرى التي وانْ كانت تستخدم الوصف للتعبير عن الواقع إلاّ أنها تحمل في طيّاتها الحلم الكبير للانسانية بتغيير هذا الواقع واعادة بنائه على أسس أكثر انسانية وعدالة وجمالاً.

الثمن ۲۲ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

دار التنوير للطباعة والنشر ص . ب : ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر ص . ب : ٥٨٠٣ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان